**خَطْوة بخَطْوة ويَداً بيَدٍ**

**صحبة غوته ودافنشي تحت سماء إيطاليا**

**محمد أحمد السويدي**

**Passo dopo passo**

**e mano nella mano**

**In compagnia di Goethe e di Leonardo Da Vinci sotto i cieli d'Italia**

الإهداء

**إلى فاطمة رفيقتي في الحلّ والتّرحال**

**الفهرس**

**المقدمة**  **إيطاليا الألف باب**

**الفصل الأول:**

**البندقية**

**-لا أحد يموت في البندقية**

**-مشروع خارطة لتجوال غوته في البندقية**

**-إنّا نتزوّجك أيّها البحر**

**-أو سولوميّو**

**-لغة الرمل ولغة الماء**

**-العجوز الذي لا يكاد يبصر**

**-الفصول الأربعة**

**-كازانوفا**

**-أنثى العنكبوت في الغرفة رقم 10**

**-البَطّولة البندقيّة**

**-فينيسيا في السينما**

**-الوصول إلى الدولومايت**

**-إطلالة على ذهب الدولومايت**

**-مغامرة في الدولومايت**

**-رحلة إلى جبل مارمولادا**

**الفصل الثاني:**

**ميلانو**

**-حارس ميلانو: في عاصمة الأمير**

**-عِقْدُ «الفلورنسيّة» وأصابع أجدادي**

**-دافنشي الشجرة الراسخة الجذور**

**-مدونات ليوناردو كودكس أتلانتك**

**-ليوناردو في بلاط الأمير: رسالة دافنشي إلى الأمير لودفيكو سفورزا**

**-السيدة والسمور**

**-إسبريسّو في الربع الخالي**

**-شقيق المسيح وأضاحي روما**

**-سندريللا والرأس القوقازي**

- **في جنّة فيردي**

**- زيارة الدومو**

**-ثور تورين**

**-سيدتي العزيزة.. إليك فهرس الأسماء**

**-ثقافة المائدة: عشاء في لوجو دي إيمو إي ناديا**

**-في ضيافة الملك**

**-كاتدرائية ميلانو**

**-اليساندرا لم تعد في اليساندرا**

**-اسرار ميلانو: (لُمع)**

**الفصل الثالث**

**كومو**

-**كومو والنبيل الروماني الكامل**

**-في الطريق إلى عروس الإدرياتيك: لمح ومتفرقات**

**-نم قرير العين يا حبّي العزيز**

**-تورتونا وياقوتها**

**الفصل الرابع:**

**فرانشا كورتا**

**بيت الغابة**

**الفصل الخامس:**

**فيرونا**

**-شرفة جولييت وصرح الآلهة**

**-روميو وجولييت**

**-اختطاف أوروبا**

**-الشيخ الذي يسكّ النقود**

**-مدرج فيرونا**

**-لا تثق بطاهٍ إيطالي نحيف**

**الفصل السادس:**

**بارما**

**-قبة كنيسة بارما وذعر القساوسة**

**الفصل السابع:**

**بولونا**

**الوصول إلى بولونا -**

**-سيسيليا قبلة الزائرين في بولونا-**

**-راعوث أمّ النبيّ**

**- لا بيفانا ساحرة الكريسماس الإيطالية**

**- ريميني فيلليني**

**-بازوليني وكائنه العملاق**

**-"جالاتيو" و"آداب المواكلة"**

**الفصل الثامن:**

**ليغوريا والريفييرا الإيطالية**

**إلى ليغوريا -**

**خليج الشعراء**

**سليلات أراكني-**

**-رماد شيللي**

**-خبز وزيت ريكّو**

**-ماريو الأسد والسيّدة العقرب**

**- جوليانو ومطعم بالين**

**أن تحيا أو تموت عشقاً-**

**جنوة وطبائع المدن-**

**-النوارس في رابالّو**

**-سفينة نوح ونشرة أخبار جوزيب**

**جنكترّي وشارع الحب -**

**-التشيتشيزبيو أو الصويحب**

**-راباللو صحبة النقيب سيمونوني**

**الفصل التاسع:**

**فلورنسا وتوسكانا**

**-الطريق إلى فلورنسا**

**-أخلاقُ فلورنسا**

**-إنها تدور في فلورنسا**

**-فيللا الإطلالة البديعة**

**-بينوكيو الفلورنسي**

**-برزخ بين جنّتين**

**-صحبة دافنشي ولسان الطائر**

**-سيدة من فلورنسا**

**-جيوكندا دافينشي**

**-الموناليزا تبعث من جديد**

**-فلورا والحرمل: تداعيات المسافة في جنان لوحتين**

**-** **أتدري كيف أحبك؟: بين شاهدة وحديقة**

**-جنيفرا التي رأيت: في حضرة لوحة لليوناردو**

**-نزهة ربيعية: القدمان في كاتشيني والخطوات في أبوظبي**

**-عشاء عيد الفصح في بلاجيو**

**-** **آني فيولد والنجمات الثلاث**

**-عشاء عند سيستللو ملك البحار**

**-في فرسكو بالدي**

**-القلعة الحصينة**

**-مولد فينوس: في حضرة لوحة**

**-مايكل انجلو: "ليلٌ ونهار، غَسقٌ وفجر"**

**-غرفة ذات اطلالة**

**-تجوال في بيمبيوني**

**-وجوه في توسكانا**

**-الأمير في سانت أندريا**

**-فندق تومبولو**

**-جريفي خسرو درة كيانتي**

**-تافرنيللي كيانتي يحرسها الله**

**-أماروزا لوكاندا السيمرغ\***

**-أريتسو الأم غير الرؤوم**

**-العودة إلى جنة كيانتي**

**الفصل العاشر:**

**أسيسي**

**السلام عليك أيّها القدّيس؟-**

**معبد منيرفا-**

**-منيرفا تهبط من عليائها**

**بحيرة تراسيمينو-**

**الفصل الحادي عشر:**

**روما**

**-هكذا حدثني غوته: مرة بصوته وخطواتي ومرة بصوتي وخطواته**

**-تجوال في روما**

**في متحف غوته**

**زيارة قصر دوريا بامفيلي**

**كنيسة إكنازيو دي ليولا**

**حمامات كركلا**

**تلة البلاتينا**

**-فيوجي، الإكسير السحريّ**

**-صعود وسقوط آل بورجيا: الفصل الغريب من تاريخ إيطاليا (عبور مسرحي مستلهم(**

**-عزيزي برونو**

**- الهولندي الطائر: في حضرة لوحة**

**-روح الطائر**

**-الطوفان**

**-البانثيون**

**-فيلا فارنِزينا**

**-صفعة البابا في أَنانّي**

**-موسى مايكل آنجلو أسيراً**

**-في إست الحوت**

**-روميتو لا يكرّر قصائده**

**-فيوجي الإكسير السحريّ**

**- مصير أكيتون**

**-روما الجمال العظيم**

**الفصل الثاني عشر:**

**كابري**

**- صخرة كابري ومكائد الميناء**

**-الجزيرة العائمة**

**-إلى التيبر يا تيبريوس**

**-أم الرومان**

**-أكسل مونتي والطيف**

**-البابا الكورتوزي وعطوره**

**الفصل الثالث عشر:**

**بومبي**

**-مدينة تبعث من جديد: بومبي ورأس الميدوزا**

**الفصل الرابع عشر:**

**نابولي**

**-السي والهاي سي**

**-رؤيا كاروزو: صوت المغني وقلم المسافر**

**-فيتزجرالدو**

**-كارمن في نابولي**

**-العيد في بوسيتانو**

**-أصوات نابولي**

**-قمر الشمال وقرص الجنوب**

**الفصل الخامس عشر:**

**صقلية**

**-في المجاز إلى صقلية: لي بيت هنا**

**-الحجّ إلى صِقليّة: برونتي، أرض الفستق:**

**أرض الأوديسا**

**فتح باب الفردوس وغاب**

**النهر والينبوع وصخرة السايكلوب**

**جيوفاني فيومارا والسكّر والجيلاتي**

**بحيرة بركوزا**

**-موسيقار السماء: بِلّليني أو بجعة كاتانيا:**

**حكاية لا سونّامبولا**

**-البراق المجنح مارسياس**

**إيكاروس وديدالوس**

**-كوازيمودو وبرانديللو والحلوى الصقلية**

**-سينما براديسو**

**الفصل السادس عشر:**

**المستطرف الإيطالي**

**-نسكن معاً ياسيدي**

**-أطبق فمك!**

**-جحيم مايكل آنجلو**

**المقدمة**

**إيطاليا الألف باب**

لكل بلدٍ باب، ولإيطاليا ألف بابٍ وباب، من أيها ولجتَ، سيغمرك شعورٌ مائز ويكتنفك معنىً مختلف، وتقف على مشهد آخاذ، لذا وجدت نفسي أكتب "مقدمات"، آملاً أن تبقى في الذهن لدى سفرك معي في عوالمها، وهي بعض ما اختزنته الذاكرة من قبل حتى دخولي إيطاليا، لعلها أن تكون مفاتيح السِّفر كله.

وما كنتُ لأمر على تلك الديار مرور عابر. كنتُ أحفر بالمعنى المعرفي عميقاً. وما كان للعين أن تشيح عما تقع عليه، وما رسخ في الذهن، مثل وعي باطن ربما تشكل منذ الطفولة. يفور الذهن مثل نبع هادئ بمحمول الحلم الطفولي الأول، والفكرة الأولى، وبالوعي الناضج الأكثف والأعمق، وهما يمتحنان نفسيهما على الواقع، لتمتلئ اللحظة بالدهشة، والدهشة حالٌ يحول الدهشة شعراً.

على ذلك، كانت رحلتي الأولى إلى إيطاليا تمريناً على مطابقة الوعي وتشعباته المختلفة مع الواقع. لا يحيرني ولا يربكني، الآن، مقام التذكُّر، لكن توضيحه وإبانته يصبحان شرطاً من شروط تملُّك القارئ للنص، ليتعرف على العدة والعتاد اللذين امتلكتهما سلفاً، وعبر مسرى الطفولة واليفاعة والنضج، وشكلا مهادا ومفاتيح لفهم إيطاليا. وهما كذلك إطار واجب لتماسك منطق النصوص المختلفة، فرادى ومجتمعة، والتي نثرتها في هذا الكتاب تحت عناوين شتى، بمثابة إشارات إلى مكنون العواطف والفكرة، وقد سقتُ بعضها لمحاً.

**أوفيد، الخلود يتجدد**

قرأت أوفيد، وأسارع إلى القول بل قرأت ما هو أبعد من القراءة. كان في الجملة الأخيرة التي اختتم بها "التحولات"، من الغواية والاستفزاز ما يكفي للعودة إلى قراءة الكتاب مرة تلو مرة، بعين تجدد نظرتها. قرأت الخاتمة كأنها المقدمة. كتب أوفيد:

**اليوم أتممت عملا**

**لن يكون في وسع غضب جوبيتر ولا ناره ولا سيفه ولا حتى الزمن النهم أن يطمسه.**

أقرأ وأعيد، ها هو أوفيد يقهر الموت، يكبله في وظيفته، إفناء الأجساد لا غير، ليظل حياً وخالداً. أمّا وقد طوّفتُ متاحف أوروبا، في إيطاليا أساساً، وطالعت فنون الرسم، وتأملت المنحوتات والتماثيل والجداريات، وقرأت الشعر والروايات، وتذوقت موسيقات كلاسيكية وحديثة، وشاهدت الأعمال السينمائية وعروض الأوبرا والمسرح، فإني، ومع كل ملمح جمالي فاتن في هذه الفنون، وجدت أوفيد "التحولات" وأوفيد "فن الهوى". فأهل الأدب والفن يُجدون في استلهامه واستنطاقه، كلٌ بمنطوق عصره ومقولاته الفلسفية والجمالية، ما رسّخ لدي القناعة بأن من لم يعرف ويلم بالمصادر الأربعة الأساسية في الثقافة الأوروبية، قُل ربما الإنسانية، الكتاب المقدس، تحولات أوفيد، والإلياذة والأوذيسة لهوميروس، سيدخل المتاحف ويخرج منها وهو يسائل نفسه عما إذا كانت زيارته ضرباً من العبث.

على هذه الخلفية، وخلال إدارتي للمجمع الثقافي في أبو ظبي، كلّفت الشاعر علي أحمد سعيد أدونيس بترجمة "التحولات"، والشاعر ممدوح عدوان بترجمة الإلياذة. وعن "دار السويدي"، أصدرت كتاب "فن الهوى" بترجمة قام بها الشاعر علي كنعان. واحتفيت قبلا بفنون عصر النهضة بتبني نشر موسوعة من ثلاثة مجلدات ضخمة قام بها ثروت عكاشة هي "الرينسانس" و"الباروك "الروكوكو".

وما اكتفيت، فقد ظل السؤال: هل للمهاد ومراتع الصبا دور في شاعرية الشاعر؟ فحججت مرتين إلى مكان ولادة أوفيد، سلمونة، في الشرق من روما، وزرت ما هو مفترض أن يكون موقع بيته. وسلمونة بلدة صغيرة في باطن وادٍ على طرف نهرٍ صغير، تعلوها جبال شاهقة تناطح السحاب، ويكسو قممها بياض الثلج. هناك طالعتني وجوه صباياها الحسان، التي أحسن أوفيد وصفها في "فن الهوى". لا بد لهذه المعطيات الجغرافية والأنسانية من أثر في خصوبة خيال الطفل أوفيد، وهو ربما ما شكل في اليفاعة والشباب الطاقة المبدعة التي أعانته على مواجهة التحديات التي واجه، دون أن يفقد رومانسية الهوى وسحر التخييل.

**\*\*\***

غوته رفيقي يداً بيد وخطوة بخطوة، وقل سطراً بسطر، في رحلاتي الأولى إلى إيطاليا، إلى أن شققت طريقي الموازية دون أن يغيب عن بالي. ومن سيكون أثرى ثقافة وأرقى شاعرية من يوهان فولفغانغ غوته، شاعر ألمانيا الكبير وفيلسوفها، ليكون دليلي في معظم ترحالي، على خطوه خطوت، ومن معارفه نهلت، ومعجباً به ووفياً له في لاحق الأيام عنيت بإخراج يوميات رحلته الإيطالية الرائعة بترجمة من فالح عبد الجبار، وهي رحلة إلى إيطاليا قام بها الشاعر ما بين عامي 1786 و1788.[[1]](#footnote-1) وذلك عشية اندلاع الثورة الفرنسية.

على أن معرفتي بغوته تعود إلى زمن أقدم من ذلك، عندما وقعت فتى يافعاً على رائعته "فاوست" وربما كان من بين أسبابي إعجابه بالإسلام وبالنبي العربي، واستلهامه الأدبي للإرث العربي والشرقي شعراً ونثراً في كتابه "الديوان الشرقي للشاعر الغربي"، وبحثه في المعلقات، وترجمته قصيدة الشاعر "تأبط شراً"، وأوراقه تشير إلى معرفة عميقة بأعمال شعرية عربية كثيرة، وقراءة لـ"ألف ليلة وليلة"، وذكرٍ عابر لأبي الطيب المتنبي، وكم تمنيت لو أنه واصل اهتمامه بشعر المتنبي، أو عايش الترجمات اللاحقة، لكانت له مساهمة كبرى في فهم روح الثقافة العربية، ولأخذ المتنبي أخذ عزيز مقتدر، كما أخذ الكثيرين.

"رحلة إيطالية" ليست مجرد تسجيل أو تدوين ليوميات تسرد أسماء ومواقع، بل هي عبارة عن حوار خلاق، واشتباك فكري وفلسفي وحضاري رفيع المستوى مع الثقافة الأوروبية في زمانها، ومع جوهرها النابع من تراث أدبي قديم يعيه غوته، ومعايشة لأشهر كتابٍ وشعراءٍ وفلاسفةٍ التقاهم في رحلته، كانوا قد سعوا إلى التلاقي في ما بينهم.

قراءات فلسفية وفكرية وجمالية شملت كل ما وقع عليه بصره من معالم عمرانية وظواهر أدبية في طول إيطاليا وعرضها، من جبال الألب نزولاً إلى جزيرة صقلية، كان ذاك في رحلته الأولى عام 1786 قبل أن يعاود الارتحال ويخص روما وحدها بعام كامل في 1788.

عند كل منعطف، وأمام كل بوابة أو لوحة أو تمثال، كنت أفتح كتابه لأقرأ انطباعاته وتفسيراته ورؤياه، لعلي أُثري رؤيتي الخاصة.

هكذا، وفي غير صفحة من يومياتي، سيطل غوته، فبعد أكثر من قرنيين من الزمان، لا تزال سطوره الخالدة إلى اليوم قادرة على تجسيد الجمال والعظمة الإيطالية بلغة جذابة وآسرة.

\*\*\*

لم يكن إلمامي بالفن الإيطالي ممنهجاً، كان أقرب إلى التعرف على الأشهر من الأعمال الفنية، عنايتي برحلة غوته نبهتني إلى ذلك النقص، وإلى تلك الانتقائية، فعدت إلى دراسة تاريخ الفن الإيطالي وأعلامه وتطور أساليبه ومدارسه في الرسم والنحت والمعمار.

وبمقدار ما كان غوته عوناً، كان للعمل الموسوعي لثروت عكاشة الأثر الأكبر والفهم الأعمق، من خلال مجلداته الثلاثة المعنونة "فنون عصر النهضة، الرينيسانس الباروك، الروكوكو". هذه المجلدات الأنيقة والفاخرة، التي حرصت على إصدارها كما أسلفت هي ثمرة جهد بحثي عميق وكبير لعكاشة، جمعها وعاينها أثناء عمله سفيراً لمصر في إيطاليا.

سفرى في تلك الثلاثية، إلى جانب عدد من دراسات أخرى، ساعدتني في تحقيب الفن الإيطالي، وبالتالي الأوروبي، ثم ربط تطور الفنون بالتطور الاجتماعي والاقتصادي لإيطاليا وأوروبا، والأهم التطور الفكري والثقافي عموماً في الفلسفة والشعر والموسيقى، والانفصال التاريخي بين الديني والدنيوي على كل الصعد، ومنها الفن بالطبع، الذي منح أوروبا هذا التفوق، ولاحقاً منحها صفة "المركزية" مقرونة، بل ومعززة، بالاستعمار والتوسع. ومن هذه كلها، انطلقتُ لفهم الإبداعات الفنية الجديدة في إيطاليا أساساً، وأوروبا عموماً.

**آريا تتبعها آريا**

بالتوازي مع ما ذكرت من الفنون، كان للموسيقى في نفسي، وتحديداً غناء الأوبرا، المكانة الأجلّ بين فنون الموسيقى. عوّدت الأذن على سماعها لتترسخ جملتها الموسيقية في ذائقتي، وهي ترتقي ببساطة تلك الحبكات والقصص إلى مستوى عالٍ من الكمال الفني بمقاييس ومعايير متفق عليها عالمياً، آريا تتلوها آريا. وصارت هذه مفتاح البهجة للنهار، أو كما يقول جلال الدين الرومي: "لكل واحد منا رفيق موسيقي خفي"، وأنا كان لي من الرفاق والرفيقات ما يملأ صفحات من النوتات.

من تلك الأصوات يأتي صوت السوبرانو الأشهر لويزا تترازيني التي لمع نجمها مطلع القرن الماضي، وانتهت حياتها بفصل مأساوي بعد رحلتها الأخيرة إلى أميركا اللاتينية وعودتها إلى إيطاليا فقيرة معدمة. ومن الأصوات التي شدتني بشدوها إنريكو كاروزو الذي، رغم مضي 100 عام على وفاته، لا تزال شركات الإنتاج الفني تعيد طباعة أقراص غنائه، مستفيدة من تطور وسائل تنقية الصوت من التشويش. ومن الأصوات في العصر الحديث لوتشيانو بافاروتي، خصوصاً في شبابه، إلى جانب أصوات أخرى مثل أندرياس بوتشيلي، وبلاسيدو دومينغو، وخوسيه كاريراس، ومن السوبرانو ماريا كالاس، وجوان ساذرلاند، وجيسي نورمان، ونتالي ديسيه.

لكن هذه الأصوات وتلك العنادل، على اختلاف درجاتها، لم تكن لتصدح لولا عباقرة الموسيقى الطليان الذين لحنوا وأمسكوا بمفاصل السحر في الصوت والآلة الموسيقية، ومنهم فيفالدي، وفيردي، وبيليني، وروسيني.

وفي تذكر كل تلك الأسماء، وفي سماع كل آريا، تعود إليَّ صورة الصديق محسن سليمان الذي كان له قصب السبق عندي في إضافة المزيد والمزيد حول فن الأوبرا وشخوصها، وإحياءً لذكراه أسست موقعاً له "في حضرة محسن".

ختاما، كيف لي أن لا استدرك وول ديورانت وعمله الموسوعي "قصة الحضارة" الذي لم يبارحني فما من باب موصد في المعرفة إلا ووجدت مفتاحه في "قصة الحضارة"، وديورانت أفرد للرينيسانس الإيطالي في موسوعته مجلداً كاملا.

**كيمياء الشخصية الإيطالية**

التاجر والفلاح، ربّ العمل والنادل وحتى البابا نفسه خلقوا من الصلصال الإيطالي، والسمات يتقاسمها الجميع، فهم مركّب عجيب جبلوا من طينة واحدة ومن شخصيّات عدّة. ففي كل إيطالي يكمن القدّيس بيو بجراحات المخلّص، وهو ما يعرف عند الكنيسة الكاثوليكية بسمات المسيح، اي ظهور جراح بدأت تحفر جسده في المواضع ذاتها التي جرح بها المسيح بفعل الصلب. كان ذلك في 20 سبتمبر 1918. هذه الشخصيّة بجراحاتها الغريبة كامنة في كل إيطالي، لأن في كلّ إيطاليّ قدّيس معذّب اسمه بيو.

الجراحات السايكولوجية هذه تسكن ماركو بولو كذلك، وهو الرجل الذي سافر كثيراً ودبّج أحد أشهر كتب الرحلات، ولعلّه لم يبرح قط زنزانة سجنه في جنوة، فالشارع الذي يطل عليه بيته في البندقيّة ما يزال يسُميّ حتى اليوم (المليوني) أي شارع المليون كذبة، والإيطاليون ما زالوا في ريبة من كل ما رواه هذا المسافر من مشاهدات ولا يصدقون أنه قابل من ادعى أنه قابلهم من أشخاص في رحلاته.

والأمر نفسه ينسحب على كازانوفا، الرجل الشغوف الذي يقيس للنساء ذراعا كلما قسن إصبعا، ويهمس كعمر بن ابي ربيعة:

**سلامي عليها ما أحبت سلامنا**

**وان كرهته فالسلام على الأخرى**

ويقسم بلسانه الإيطالي طبعا. ويحلف أن أصدق الغزل أكذبه.

إيطاليا مختبر كبير لتوليد سلالات من الحب، إنها بلد العشاق. وفي كلّ إيطاليّ يختبيء كازانوفا متربص في انتظار شرفة تلوح منها امرأة، فعلى كلّ رجل يقصد إيطاليا أن يحذر على حبيبته من كازانوفا الذي لا يزال ينصب شباكه في الريالتو و"جسر الشيطان" و"شارع النواميس"، وعلى كلّ امرأة تصدّق إيطاليا يبذل لها حبّه أن تدرك مسبقا ما سيؤول إليه أمرها من دمار. فمن ذا ينسى الليدي مونتيجا التي أصابها نيزك ايطالي اسمه فرانشسكو وغيّر مسار حياتها، حتى أمست تندب الحظ الذي ساقها إلى إيطاليا، كما حدّثنا وول ديورانت.

بل من ينسى لويزا تترازيني أعظم سبرانوات إيطاليا عندما سطع نيزك بييترو في سمائها فهوت من عليائها لتنتهي وحيدة وحزينة بعد سنين حافلة بالمجد في صالات أوروبا ومسارح نيويورك، ولتعود من أمريكا اللاتينيّة في نهاية المطاف (وهي في أرذل العمر) في الدرجة الثالثة على سفينة مع عائدة إلى إيطاليا.

ولكي يكتمل طوق الحبّ هذا فليس ببعيد عنك فيرونا حيث لم تزل جوليت تشرع نافذتها بانتظار أن ينبعث روميو من رماده ويتسلّق إليها الشرفة.

ويسكن كريستوفر كولومبس كذلك الشخصيّة الإيطاليّة وهو الرحّالة المغامر، ففي بلد يكاد يسورها البحر من كل جانب لابدّ أن يتمخّض رحمها عن بحار من طراز كولمبوس الذي خطف المجد عندما استطاع إقناع ملكي اسبانيا فريدناند وايزابيلا، بالإبحار إلى الهند عن طريق المحيط الأطلسي لكونه اعتقد أن كرويّة الأرض ستسمح له بذلك. ووعدهما بكنوز تلك الأر ض التى يحلم بها كل إيطالي منذ نعومه أظفاره، وقد برّ بوعده.

مدينة كجنوة يليق بها أن ينتسب إليها الرجل الذي عاد من رحلته بالعالم الجديد.

والإيطالي لا يعيش خارج ذاكرته، ففي حال سفره إلى بلد ما، يصطحب معه فضلا عن حقائبه البقّال واللحّام والخبّاز والخيّاط والمزيّن والإسكافي، بل يحمل حتى ثاراته إلى بلده الجديد، ولعلّ المافيات الإيطالية كآل كابوني وكارليونيزي، والبونانو، والغامبوني وغيرها، التي نشأت أوّل أمرها في صقلية قد برعت في تصدير خلافاتها الدامية معها، لتصبح جزءا حقيقيا من نسيج وثقافة البلد الجديد.

ولو شئت أن تنصف التناقض في الخلطة الإيطاليّة فما عليك سوى فك مفردة (البيلا فيجورا)، وهي لفظة تمنح معنى الكمال والإتقان، فعندما تذكر إيطاليا فسوف يتبادر الى ذهنك جملة من الصنائع التي بلغت الغاية في الإتقان كالفراري، واللومبرجيني في عالم السيّارات. وأرماني، ودولشي آند جابانا، وفيرساتشي في عالم الأزياء. والمائدة الإيطالية بنبيذها وأعنابها، بزيتونها وخبزها وأجبانها التي بلغت الغاية في الجودة والتعدد. والهندسة الرومانية، والحمّامات التي صدّروها إلى العالم، والرسامون والنحاتون أمثال دافنشي ومايكل انجيلو ورفائيلي، ولو كان البحر مدادا لنفذت الكلمات التي تحاول إنصاف البيلا فيجورا الإيطالية.

أخيرا، لا يمكن للوحة أيطاليا أن تكتمل عندي من دون فن السينما الذي ولعت به مبكرا. فمن منا لم يسحر بأعمال كبيرهم فيلليني، وبازوليني ودي سيكا وفيسكونتي وأنطونيوني، وليس آخرهم بيرتولوتشي.

فمع أعمال هذه الكوكبة من العباقرة لا تكفي مشاهدة واحدة للفيلم ولا نظرة واحدة ولا رأي واحد.. وخلاصة القول، إن إيطاليا وما أثرت به البشرية من فنون وبدائع لايمكن أن يفيها عمر واحد.

**محمد أحمد السويدي**

**الفصل الأول:**

**البندقية**

**لا أحد يموت في البندقية**

في رحلاتي في الديار الإيطالية التي دامت عقدا ونيف اخترت البندقية شرفة أودع منها عاما يمضي وأشرف منها على عام جديد. ففي البدء كانت البندقية.

وعندما يبدأ العد التنازلي نحو الدقيقة الأخيرة في العام وقبل أن تضج السماء بأنوار الألعاب النارية وأزهارها الملونة، وتشكيلاتها المبهرة للأبصار والحواس، أختار أن أكون في جندول يعبر الزمن سابحاً في شتاء القناة الفينيسية الكبرى، وفي منزلة القلب، وقد ودع الزورق الاعتدال الخريفي ميمما شطر الاعتدال الربيعي.

البندقية هي فينيسيا لو كانت فينيسيا جسدا أُعلنت قيامته فستكون الأقنية شرايينه وأوردته التي تمدّه بالحياة وأسبابها.

ليست البندقية سوى أرخبيل يتكون من نحو 300 جزيرة أقامها على نحو فريد جماعة من سكان ميلانو الذين وفدوا إليها هربا من هجمات تلاحقت عليهم من أقوام الهون والقوط[[2]](#footnote-2)، وهو ما يمنحنا إجابات عن الطبيعة النائية للمكان وطريقة إقامته مستثمرا عزلته البحرية ليكون حصينا ومنيعا وبمنجاة من أعدائه.

ولكن كيف لأحد أن يعلن قيام أرخبيل ممزق من الجزر المغمورة بالماء إلى أرض تزخر بحيل البنائين القدامى، صلبة ومتماسكة وملتحمة ببعضها.

أخذ البنادقة الأوائل يقتطعون جذوع آلاف الأشجار الضخمة ويغرسونها في الأرض كالأوتاد المتراصة لتشكّل الدعائم التي ترتفع عليها المدينة التي نعرفها منذ قرون، واقترن الأمر بهندسة بالغة التعقيد بالقياس إلى زمنها والزمن اللاحق عليها، وهو ما منحها فرادتها فلا نجد قرينة لها في مكان آخر.

ومازالت تلك الجذوع قائمة بهيئتها الوتدية، وفي أحايين يُستخرج بعض منها أثناء أعمال الترميم والبناء فتبدو سليمة كما لو غرست للتوّ.

وكل ما نعرفه وندركه من العمارة الفينيسة قائم عليها، أما أقنيتها التي منحتها القدرة على أن تكون مفازة مضللِّة فهي حدود الجزر البرزخية.

ومنذ أن كانت أرخبيلا مغمورا، ومن ثم جمهورية مستقلة وإقليما معزولا، لم يكن بوسع الجيوش المهاجمة احتلالها على الرغم من تعرّضها لموجات متلاحقة من الغزو، حتى دخلها نابليون.

فحسبنا أن نعرف أنها، على ضآلتها قياسا بشبه الجزيرة الإيطالية، ألحقت الهزيمة بالجيوش العثمانية التي كانت في تلك الآونة تدّك مدن أوربا حتى بلغت أسوار فيينا.

ويمنحنا المأثور الشعبي الفينيسي حكاية امرأة عجوز قام الأعداء برشوتها من أجل أن تساعدهم على اختراق مفازات فينيسيا المضللة ومسالكها التي تشبه قرن أيّل عجوز، فقادتهم إلى مكان أدركت أن الماء سينحسر عنه لعلمها بمواقيت المد والجزر، وينكشف الأسطول أمام البنادقة وهو ما حدث وما تؤكده الحكاية.

لم تخسر البندقية أي من الحروب التي خاضتها، ومع هذا تشعر أنهم فطروا على التجارة وقبضوا على مسالكها، وأقاموا أحلافا ومعاهدات من أجل تنميتها وتوسيع امتداداتها وآفاقها.

ويقوم على تسيير ذلك كله مجلس المدينة الذي يتكون من 500 من رجالاتها الذين يتحدّرون من مهن واهتمامات مختلفة، وهو ما دعا دانتي إلى أن يطلق عليهم (مجلس الآلهة)، ربما في محاولة لتذكيرنا بآلهة البانثيون في روما، وقد تكون أيضا رسالة ملغزة إلى أن الآلهة لا يمكنها أن تنحاز إلى جغرافية ما أو زمن بعينه، فبوسعهم أن يكونوا هنا أيضا.

ولم تفقد البندقية حظوتها ومكانتها كأكثر البلدان ثراء وغنى حتى مجيء كولومبس ابن المدينة التي تقع على الساحل المقابل، وكأن الأمر كان في جوهره انتقاما جنويا مضمرا من أرخبيل الجزر العائمة وآلهة العالم الجديد. على أن الذي أجهز عى البنادقة في نهاية المطاف هو فاسكو دي غاما باكتشافه الطريق إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح سنة 1497.

\*\*\*

هل تعتقد أنك إنْ وجدت نفسك في البندقية ستكون مخبوءا في سيل من الحشود البشرية التي تتوافد عليها؟ بالطبع لن يسعك ذلك أبدا، فالبنادقة يعرفون كل وجه يدخل المدينة بمناطقها الست، وثمة دائما من يعرف أين أنت في هذه الآونة وأين ستكون في الآونة التي تعقبها وأين تقطن وما الذي يعنيك من أمرها.

فهنا تشعر أن المدينة جسم واحد تتوزّعه المناطق الست بأزقتها التي تنتشر كالشعب الرئوية الدقيقة بإتقان لا يدركه إلا من كان من بعضه. إنها مفازات مضللة، كما قلت من قبل، ولن تبلغ غايتك من غير أن تكون مسلحا بخارطة تفهرس المكان، فقد تمشي نحو عشرين ضعفا عن الغاية التي تقصدها قبل أن تصل.

وهذا ما يمنحك القدرة على التساؤل عن حقيقة ما يتناقله مرتادو المكان أو البنادقة ذاتهم عن كونها مدينة لا يضيع فيها أحد.

فلو أن طفلا ما فُقد، فستجد أن الجسم الكامن في المدينة سيستنفر نفسه ويستيقظ. ويتواصل البنادقة في مهاتفات سريعة وحاسمة، وبموهبتهم الفريدة في القبض على ملامح الوجوه الوافدة، سيتعرفون عليه في زمن وجيز.

حدّثتني دليلتي الإيطالية مؤكدة: لا أحد يضيع في البندقية.

فكرت في سري ماذا لو أن الفقد كان مقترنا بالغرق في مدينة تتخللها الأقنية بمثل هذه الكثافة، ثم بحت لها بهواجسي متسائلا: هل سمعت بحوادث غرق حدثت من قبل؟

ـ لا أحد يغرق في البندقية، قالت دليلتنا. ثم أردفت: إنها مدينة في حركة دائبة، لا تقف ولا تعرف الثبات ولا يمكنك أن تعثر فيها على مكان شاغر يجعل الفقد أو الغرق ممكنا.

إنها البندقية، المدينة تركت آلهتها يتحوّلون إلى أدلاء سياحيين بعد أن سرق الجنويّ النار من مجلسهم.

\*\*\*

لا تصل البندقية دون أن تضطر إلى ركوب سفينة أو عبّارة تمخر الماء صوبها، وحتى الطرق الحديثة تقف على أعتابها دون أن تلجها، وهو ما يكرّس عزلتها ويدفع إليك تصوّرا عن طبيعتها المنيعة التي جعلتها تستعصي على الجميع. ومن جانب آخر سيتسلل إليك شعور، لا يمكنك تفاديه، بأنك ما إن تبلغها حتى تجد نفسك في منأى هادىء جميل، ستحتاج إلى مركب ليس لتلجها وحسب، بل ولمغادرتها أيضا.

مدينة تدخلها بمثل هذه الطريقة، لا بد أنك ستجد فيها طقوسا تجعلها ممعنة في فرادتها. فمن طقوس البنادقة التي لا يعرفها إلا من كان من نسيجها، والتي ارتبطت منذ العصور الوسطى بتوفّرها على الثراء الفاحش هو شارع المراوح، وفيه أنفس المراوح التي بوسعك العثور عليها وتحرص عليها نسوة ذلك الشارع حرصهن على حبات الخال، فهي لم تعد مراوح لتحريك الهواء من حولهن، بل لتحريك ذكورة مرتادي المكان بلغة لا يفقهها إلا الراسخون في علمها:

عندما تحرّك فينيسيّة مروحتها المطوية بيدها اليسرى، فهي تنظر إليك؛

أمّا إذا حرّكتها بيدها اليمنى وهي تقابلك فما عليك إلا أن تتبعها.

وعندما تغطّي أذنها اليسرى بمروحة مفتوحة، أي لا تفشِ سرّنا

وإذا راحت تخطّ خطوطا في راحة اليد بمروحة مطوية، فهي تكرهك.

وإن خطّتها على الخدّ، فهي تحبّك.

وإذا لمست بمروحتها المطوية رأس الإصبع، فهي تدعوك للحديث.

وإذا ثّبتت المروحة على الخد الأيمن، فهذا: نعم.

وعلى الخدّ الأيسر: لا.

أما فتح المروحة وضمّها، فأنت فظّ.

وأن تلقي بالمروحة في الأرض، فلنكن أصدقاء.

وأن تحرّك المروحة على وجهها ببطء، فهي متزوّجة.

وإن حرّكتها بسرعة، فهي مخطوبة

أما إذا قرّبت لك مقبض المروحة حتّى شفتيك، فقبّلها.

فإذا ألقت مروحتها على الأرض، فهي إشارة إلى أمر ما. وإذا حجبت بها نصف وجهها، فهي تريد أمرا آخر، وكذلك إذا حركتها على عجل أو ضمتها إلى صدرها أو هبطت بها إلى حجرها، وهكذا دواليك في فعل إشاري عتقته السنوات وبنت قاموسه وجعلت منه لغة فريدة نسيج وحدها.

**مشروع خارطة لتجوال غوته في البندقية**

البندقية، مدينة تبدو وكأنها عروس لا تستطيع أن تراها دون أن يرتدّ طرفُك ليقبض في كل مرة على بعض من شواردها، فما بين طرفة وأخرى يولد فيها جديد ماتع، وهي تختلف عن الشمال الأوروبي حيث شكا غوته من العتمة التي تلفّ الناس والأشياء من حولهم، وتحدث عن ضعف عيون أهل الشمال في فرز الألوان، فالضوء الشحيح والكابي لا يمنح اللون حياته، وهو ما خبرته بنفسي حيث بتّ أشكو أنا أيضاً ابن الشمس الساطعة واللاهبة الصعوبة ذاتها في تمييز الألوان، فاشتركت في هذا الأمر مع أهل هذه المدينة، وذكرني ذلك بالرحلات التي قام بها الفنانون الأوربيون إلى الشرق من أجل إعادة اكتشاف الضوء بدءا من ديلاكروا وحتى ماتيس وباول كلي، حيث بدأت أعمالهم بعد عودتهم من الشرق مشبعة باللون وكأن الشرق بشمسه اللافحة التي خرجتُ من تنورها منحتهم نعمة اللون.

إنها مدينة الزجاج المعشّق، وزجاج المورانو، حيث يمكن لقطعة من الزجاج أن تتحوّل إلى ذهبٍ مصفّى، مدينة الحرفيّين المهرة، ظهرت أوّل الأمر في القرن الثامن والتاسع الميلاديين عندما لم يجد أهل الشمال الإيطالي مناصا من الفرار من إبادةٍ جماعية إلى هذه الجزر واتخذوها ملاذاً ولينتهوا بذلك من تأسيس أقوى إمارة بين القرنين 13 و 16 الميلاديين.

ومكثت طيلة ثلاثة قرون على حالها من القوة والمنعة وما يتبع ذلك من استقرار مكّنها من أن تكون قوة اقتصادية كبرى حتى اكتشاف أمريكا في القرن الخامس عشر فكان هذا الموعد إيذاناً بسرقة التاج من عروس الإدرياتيك، فبدأت مرحلة سقوطها وأفول نجمها ودخولها في هاوية النسيان.

منذ أن بلغتُ المدينة في رحلة شتائية حتى شرعت بالتفكير في إنجاز خريطةٍ تتبع تجوال غوته في البندقية، وهي بلا ريب خريطةٌ صعبة ومتشعبة بالرغم من أنه لم يمكث فيها أكثر من أسبوعين، ولكن الأسماء وبعض المعالم تغيّرت ولم تعد كما كانت على أيامه، ولكي أتمكن من القبض على هذه المنطقة الزمنية والجغرافية كان عليّ أن أستعين بدليلٍ فكانت دليلتنا في هذه الرحلة السيدة دانييلا، ولحسن طالعي وجدت فيها ما جعلني أحدس أنني أخذتُ أشربُ من المنبع قبل أن يتبدد في مسارب شتى، فوضعنا معاً خارطة البندقية في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وحددنا منطقة الأرسنال، وهي مصنع السفن حيث صنعت تلك المراكب التي خاضت معركة لابانتو، وهي معركةٌ عظيمة انتصر فيها البنادقة على الأتراك في عام 1571 وكان من بين أسرى البندقية والدول المتحالفة معها وخصوصا إسبانيا ميغيل دي ثيربانتس الذي فقد ذراعه اليسرى وانتهى أسيراً في مغارة في الجزائر.

حضر غوته في 5 أكتوبر من عام 1786 الحفل السنوي الذي يقام في هذه المناسبة. شرعنا بالبحث عن المسارح واكتشفنا كيف تبدّلت أسماؤها، وكيف تحوّلت إلى صالاتٍ للعروض وفنادق، ثم عرفت من خلال دانييلا كيف انتقلت بعض تماثيل المدينة إلى مناطق أخرى، وكيف وقع غوته في الخطأ عندما أطلق على تمثال أريانا اسم كيلوباترا، ولم يسعه التمييز بينهما. كما زرنا معاً عدة أمكنةٍ كنت قررت أنني لن أفوّتها، فكان أول تلك الأمكنة هو متحف غوغنهايم، وتعود تسميته إلى أسرة سويسرية تحمل التسمية نفسها، ويُعدّ ماير غوغينهايم عميداً ومؤسسا للأسرة. ولد في سويسرا، وهاجر إلى الولايات المتحدة في عام 1847 حيث بدأ حياته بالعمل في مجال الاستيراد، ولكنه بنى ثروته وثروة عائلته التي تعتبر من أكبر الثروات في القرن التاسع عشر من عمله في التعدين، وقد كان لديه هو وزوجته باربرا عشرة أبناء أحدهم مات غرقا في حادثة التيتانيك، وترك ابنة اسمها بيغي كانت كبيرة في روحها كما يصفها معاصروها، قامت بيغي بشراء قصر غير مكتمل، ثم أتمته واقتنت مجموعة من الأعمال التي تعود إلى مدارس الفن المعاصر وتياراته، لتكون هذه نواة المتحف، أول الأمر 200 لوحة، قبل أن تتوسع المجموعة التي اشتملت على أعمال لبيكاسو وماتيس وبولوك وموندريان وميرو وآخرين، ولقد كانت الأعمال والمشروع برمته على نقيض فنون عصر النهضة، بدأت السيدة بيغي أولا بتشجيع الفنانين الجدد، وتمكنت من حيازة مجموعة كبيرة من أعمالهم الفنية بأثمان بخسة، قبل أن تتحول هذه الأعمال إلى أيقونات تباع بأثمانٍ باهظة.

وثانيهما متحف الأكاديميا الذي يحتوي على أكبر وأعظم المجموعات الفنية في العالم التي تمتد من العصر البيزنطي وفنّه الأيقوني ومن ثم فنون العصر الوسيط وصولا إلى عصر النهضة حتى القرن الثامن عشر حيث شهد تأسيسه، وهناك سنرى مجموعة من الصور التي سبق لغوته أن رآها من قبل وتحدّث عنها كلوحة فرنيزي وأعمال فنية أخرى عظيمة، ولعلّ أهمها لوحة العاصفة للفنان الإيطالي جورجوني الذي عاش بين عامي (1477 و1510).

**إنّا نتزوّجك أيّها البحر**

صار مستحيلا علينا اليوم أن نصحب الدوج وهو الحاكم الفينيسي في سفينته المذّهبة (البوسنتورو)، برفقة رجال الدولة والسفراء، تحفّ بهم المراكب والجماهير في عيد صعود المسيح، وهو يستعدّ لقذف خاتم ذهبيّ في لجّة الأدرياتيك قائلا باللاّتينية: (تي، مير، نوبيموس) "إنّا نتزوّجك أيّها البحر"! فنابليون خطف السفينة والدوج والخاتم، وعطّل هذا العرس السنويّ الذي ظلّ سارياً قرابة ألف عام، ولكنّ الكاتدرائيّة العظيمة ما تزال واقفة، بكل ما استحوذ عليه البنادقة نهبا وسرقة من كنوز الأمم لأجل الرب: الجياد البرونزيّة المطّهمة، والأعمدة الرخامية التي جلبت من أصقاع الأرض على اختلاف ألوانها، والأرضيّات المرّصعة بالعقيق، والشبابيك المعّشقة، بما في ذلك رفات القدّيس ماركوس نفسه الذي سرق من كنيسة خاملة الذكر في الإسكندرية لتقام له كنيسة فاخرة في البندقية.

القناة الكبرى التي تقسم سمكة البندقيّة إلى نصفين ظلّت كما كانت، تلك التي شقّها اللورد بايرون سباحة كطوربيد بحريّ، وهو يتلوَّى مع انعطافاتها، جيئة وذهابا، والقصور ظلّت قائمة كما هي بطرزها البيزنطيّة، والقوطيّة، وعصر النهضة، والباروك. والجسور التي تربو على الأربعمائة جسر ما زالت قائمة بكل قناطرها الحجرية الرائعة، بما فيها جسر ريالتو الأكثر قدما، والأكثر صخبا حتّى اليوم، وجسر النهود، حيث كانت الغانيات يعرضن رمَّان صدورهن على أعين الرجال الجائعين، وجسر الشيطان حيث تمثّل ذات مرّة فوق هذا الجسر في صورة امرأة رداح ليغوي تونيو عن سبيل الرشاد، كما تقول حكاية شعبيّة، والمئتا شارع – كالليّ - من الماء ما زالت تغذّي كقصبات الهواء سكّان الجزيرة، وحتّى الكرنفال الذي ألغاه القائد الفرنسيّ يوما بقذيفة مدفع، كما فعل مع أبي الهول بكل طيش، لكن الكرنفال بعث من جديد في فبراير من كل عام، وظل أبو الهول في الشاطئ الآخر محافظا على جرحه وصمته المهيب!

زرنا المكان الذي سكنه غوته، فعلمنا أن الفندق منذ رحيل الشاعر قد تبدّل إلى لوحة جداريّة لا أكثر. وزرنا منزل ماركو بولو صاحب المليون كذبة، فوجدنا الأبواب موصدة ولا أحد من القوم هناك. عرجنا على قصر كازانوفا، فقيل لنا: لمح مع راهبة من دير القدّيس زكريّا، قبل أيّام ولم يظهر بعدها. قصدنا قصر فندرامن كاليرجي فالموسيقار الكبير فاجنر لقي وجه الله هناك. وعلمنا أن كليوبترا تستقبل الحجيج في قصر لابيا، فسعينا للسلام على الملكة التي آثرت سكنى البندقيّة. دخلناغرفة هنري جيمس في قصر بربارو، كان حبر روايته أوراق آسبرين لم يجفّ بعد. عبرنا بحبور كالي فاريسكو الطريق الذي يكتم الأنفاس، وهو أضيق أزقَّة البندقية. وقفنا أمام الساعة التى فرّت منها عقاربها في الضّفة الأخرى من ريالتو، ثمّ كالي دي لي موسكيت (شارع الناموس) حيث توشم النساء في الخدّ والعنق والعجيزة بحبّات الخال تزّلفا لشيطان الحبّ، وشربنا الأومبرا مع الملاّحين في الاستراحة عند ظلال برج الناقوس، وعندما شاهدنا الصورة الجصيّة الرائعة لجونو وهي تهب الدوقيّة والتاج للبندقيّة في متحف قصر الدوج، تبّين لنا لماذا كان الدوج يردّ للربّة الذهب في عيد صعود المسيح كل عام من سفينته البوسنتورو وهو يردّد: "إنّا نتزوّجك أيّها البحر".

**أو سولوميّو**

قلت لي يا صاحب الديوان الشرقيّ: لقد دون في صحائفي على كتاب القدر أن تكون الساعة الخامسة من عصر الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1786 هو موعد رؤيتي البندقية. وها أنذا، يا صديقي، أدون الساعة الخامسة من التاسع والعشرين من ديسمبر موعد رؤيتك البندقية. كما أخبرتني أنه لم تعد البندقية – حمدا للعلي القدير – محض اسم يرن في أذنك، اسم فارغ، أو محض حالة ذهنية غالبا ما أفزعتك أنت العدو اللدود للكلمات المجردة. ها هي عروس الأدرياتيك تتجلّى للعيان. وكما حياك أول جندول بقيدومه المصفح، تراه كصديق قديم حياني أنا كذلك، وراح يشق القنوات المائية لهذه المدينة في نزهة قصيرة. دهشت لمهارة الملاحين في دفع القوارب عبر أزقة ضيقة دون اصطدام أو تماس وسمعت خطابهم، فسألت الملاح قائلا: أهذه هي اللهجة المحكية؟ فأجابني: نعم، هذه هي لهجة البنادقة. ومر عندئذ جندول يقل سياحا آسيويين، وقد جلس شيخ يغني لهم على آلة الأكرديون أغنية كاروزو الذائعة الصيت "أو سولوميّو" فسألت الملاح عن ذلك، فقال: من يريد مغنيا فعليه دفع مبلغ إضافي! فقلت: لم أسألك عن المغنّي وأجرته ولكنني أتساءل لم يغني لهم هذه الأغنية النابولية في البندقية؟ باغته قولي، فسألته عن تاسو وأريتسو اللذين شغف بهما صديق مر من هنا منذ قرون، شغف بسماع أشعارهما يرددها غناء الملاحين وسائقي القوارب! بهت الملاح واعترف: بأنه لا يلمّ بشعر هذين الشاعرين!

تذّكرت داد[[3]](#footnote-3) في زيارتي للفجيرة، فعندما سألنا أهالي الحلاة في سفح الجبل عن خولة وطرفة بن العبد، أجابوا: بأن لا عهد لهم بهؤلاء القوم.

**لغة الرمل ولغة الماء**

حللتُ في قصر باور، والاسم يعود إلى أسرة عريقة تتحدّر أصولها من ألمانيا، تواجهني وأنا أدلف إلى فنائه الداخليّ ساحة، وفي جانب منه طريقٌ معبّدٌ بالماء.

نجوز الساحة إلى قصر يُطل على القنال الكبرى، هي ذاتها التي سبح فيها بايرون.

صحوتُ بعد قيلولة هانئة على حداء ملاحي قوارب القناة، كان أقرب إلى حداء العيس منه إلى حداء ملاحي الجندول، بل يمكنني القول أنه أقرب إلى حداء ملاحي الصحارى منه إلى ملاحي الماء.

 ولقد شقّ عليّ أن أدرك بعد خطفةِ إصغاءٍ أن الراكب لا يدرك حداء الحادي وشعره ولا الحادي يدرك لغة الراكب. كان الأمر شبيها بحوار «المتنبي» مع بائع البطاطيخ.

 وأنا في غمرة حداء لا ينتمي إلى نفسه تذكرت حكاية سردها صديق استقلّ للمرة الأولى طائرة وكان يجلس إلى جانبه رجل يراه لأول مرّة. استدار الرجل ببعض جذعه ناحية صاحبي وسأله: من أين الأخ؟ فأجابه: من «الإمارات»، ثم سأل صاحبي الرجل باقتضاب: وأنت؟ فأجابه وقد فغر فاه دهشة: أنا؟ ألا تعرفني؟

 فأسقط في يد صاحبي وقال: إن سؤال الرجل أحرجني، فأنا أعرف الرجال في بلدي من الخرّان إلى السلع، أما هذا الرجل الذي تضاعف حجمه وعدّل من جلسته مرات بانتظار أن أنطق بمعجزة أسمه جعلني أعود بذاكرتي وأنبشها بقسوة: يا تُرى من هذا الرجل؟..، فقلت في نفسي لعلّه أحد الموظفين الإداريين في المنطقة الغربية ولم أنتبه لوجوده بشكل يجعلني قادراً على معرفته بمجرد النظر إليه، أو ربما أحد العاملين بمحطة بترول أدنوك، ولابد أننا كنا نتبادل مجاملات سريعة عندما أتوقف في المحطة لملء خزان الوقود، ثم استقرّ رأيي على ذلك وأردت أن أخبره بالأمر.. فبادرني الرجل قائلاً وهو يحتفظ على سحنته بمزيج من الرجاء والإحباط: أنا «وديع الصافي». يقول صديقي: وما أن نطق اسمه حتى شعرت بخجل مضاعف فأنا لم اسمع بوديع الصافي من قبل أبدا.

تذكرت هذا كلّه، وأنا أستيقظ على حداء ملّاحي الجنادل في البندقية، فلقد هجروا قواربهم منذ أن بلغ بايرون الجهة الأخرى من القناة، ومنذ أن أصغى غوته إليهم وهم يردّدون أشعار تاسو بحداء الماء الذي يشبه النحيب. لقد هجروا كل شيء وتركوا خلفهم مادة غيابهم ليشغلها الغرباء بلغة الرمل وحداء العيس.

لقد كان غوته آخر من قبض على جمرة حداء جنادلة البندقية وأصغى إلى نحيب أرواحهم وضربات مجاديفهم في الماء، ومع كل ضربة كانوا يقطّرون أرواحهم غناءً. ولقد وصفهم في رحلته وصفا جميلا. أما الآن فأفواج السيّاح من من كل حدب وصوب لا يميّزون بين أغنية (يشلها) أحمد الكندي وبين أخرى يرسلها المغني ديميس روسس. لم يعد في وسع القوم التفريق بين عرس البندقية العظيم وبين ما آلت إليه أحوال هذه المدينة.

يذكرني هذا بالإشكالية التي نواجهها يوميا مع أفواج السياح ممن يختزلون الصحراء وثقافتها وعمقها وحيواتها بالجَمَل وحده، وهم لا يميّزون بين الناقة والبعير، ولا بين أنواع الإبل، فيكون اختزالهم للفكرة مخلا أيضا. فكلّ ما يريدون أن يخرجوا به من سياحتهم هذه هي تلك الصورة النمطية البائسة التي تجمعهم بالناقة وجمّالها الآسيويّ والذي لا يقلّ عنهم في الغالب جهالة.

 في هذه الأيام، لم يعد الحداة من البنادقة، ولم يعد هناك من سمع منهم بتاسو وشعره، ولو عاد غوته اليوم لأحزنه ما آل إليه الحداة وما آلت إليه أغاني الشاعر؟

 لقد ذكر أنه طلب من حادي الجندول أن يغنّي له شيئا من تاسو، فماذا لو قمت أنا بالأمر ذاته وسألت حادي الجندول أن يغني شيئا لتاسو وأريتسو؟

 قال غوته: جلست على مقعدي في الجندول وكان القمر قد بزغ، وطفق مغنيان، أحدهما يجلس عند القيدوم والآخر عند الدفة، يترنمان بالقصيد تلو القصيد تناوباً. وان النغم الذي نعرفه من روسو يقع وسطا بين حوار المغنى وتراتيل الكورس، ويمضي دوماً بإيقاعات زمنية واحدة دون ضربات محددة. وان انتقالات المقام هي من الصنف ذاته، ويغير المغنون طبقة الصوت تبعاً لمحتوى الشعر في نوع من الترنيم. لن أخوض في مسألة نشوء وتطور هذا الضرب من الأنغام. حسبي القول إنه المثال الملائم لشخص يغني خالي البال مع نفسه، مكيفاً النغم مع القصائد التي يحفظها عن ظهر قلب.

قلت، ولكن الغالب على ملاحي اليوم يجعلني أفكر بملاحي العالم السفلي في حضارات العالم القديم، فليس هناك من علاقة بين الجندول وحاديه، فلقد انقطعت وولى زمانها وهو أمر يبعث على الحزن، وهؤلاء عالة على ثقافة البلاد، أما السيّاح فهم يغذّون بسطحيتهم الجهل بالجهل حتى يصبح مركبا أما السيّاح فهم يغذّون بسطحيتهم الجهل بالجهل حتى يصبح مركّبا فتضيع ملامح الحالة الأولى، أو الحالة الأصلية التي كانت تبعث تاسو من موته في كل مرة تسيل حناجر الحداة بأشعاره، إنهم بتعبير آخر يفرّغون الجسد من روحه ويتركونه جثة هامدة.

 السياحة هنا تُعدّ عامرة، ولكن في الغالب يكون الجسم الأكبر من السياح من المعسرين ممن يزدردون من الطعام ما يقيم أودهم وليس ما يحملهم على سبر أغوار المطبخ الحقيقي لهذه المنطقة، هكذا اشتكى لي أحد البنادقة، وكان هذا سبباً في فرض ذائقتهم على أرقى مطاعم البلد.

أما الضالعين بالبندقية فهم من القلة، والبندقية في هذا الأمر أقرب إلى الأوبرا وتراثها منها إلى أي شيء آخر، فقليلون هم من يمتلكون الدراية اللازمة لتفكيك عناصر هذا العالم وتحويلها إلى جمال مطلق.

**العجوز الذي لا يكاد يبصر**

سألت الدليلة الفينيسيّة سيلفيا أن تدّلنا على قصر الدوج دندولو، فراحت إلى المكان الذي آوى هذه الشخصيّة الداهية في تاريخ العصر الوسيط. وعندما استعرضت معها ملامح من سيرته، وجدتها تدرك تماما تلك الفصول العظيمة في حياته مفصحة عن أنها من أحفاده. فعندما وصلت الحملة الصليبيّة الرابعة إلى البندقية، واحتاج الصليبيون السفن والمدد، حينئذ عرض إنريكو دندولو الدوج الأعشى الذي تجاوز التسعين عاماً بكل ما أمدته به سنونه من تقى وقداسة، أن يلبي الحملة إذا ما ساعد الصليبيون مدينة البندقية على فتح مدينة زارا، وكانت هذه المدينة وقتئذ أهم ثغور البحر الأدرياتي بعد البندقية نفسها. ووصف البابا إنوسنت الثالث هذا الاقتراح بأنه اقتراح دنيء، وأنذر كل من يشترك فيه بالحرمان. غير أن أعظم البابوات شأناً وأقواهم سلطاناً لم يستطع على حد تعبير وول ديورانت أن يجعل صوته أعلى من رنين الذهب. هاجم الأسطولان زارا، واستوليا عليها بعد خمسة أيام، وقسم الفاتحون الغنائم فيما بينهم؛ ثم أرسل الصليبيون بعثة إلى البابا يرجون منه المغفرة، فغفر لهم، ولكنه طلب إليهم أن يردوا الغنيمة؛ فشكروا له غفران الخطيئة، واحتفظوا بالغنيمة؛ وتجاهل البنادقة أمر الحرمان، وخطوا الخطوة التالية لتنفيذ القسم الثاني من مشروعهم وهو الاستيلاء على القسطنطينية.

بلغنا باسيليكا سان ماركوس المدهشة، وشاهدنا الأحصنة البرونزيّة المسروقة ذائعة الصيت التي تزّينها، والتى نهبت في تلك الحملة من القسطنطينيّة. كل هذا تعرفه سيلفيا، ولكن ما لم تكن تعرفه أن العرب كانوا على الأرجح هم من قدم الرشوة إلى هذا الجدّ العظيم، ليدفع عنهم شر الحملة الصليبية الرابعة وبلاءها، فكان من أمره ما كان.

**الفصول الأربعة**

يسألونك عن موسيقى الفصول، قل هي من صنع الله، لا من وحي ذلك البائس البندقيّ. فالله تعالى المفتون بما خلق ومن خلق، والمسكون بفصوله الأربعة التي جعلها زينة للعيون، شاء أن ينظمها لحنا يكون زينة للأسماع، فاصطفى فيفالدي الفتى العليل الأصهب من مدينة البندقيّة آلة يوقع عليها ألحانه. وما إن فرغ من عمله واطمأن إلى أنّه بلغ فيه الغاية، حتّى اهتّز طربا بما صنع، وفي ذروة نشوته حطّم الآلة.

دسّت يد خفيّة رسالة من تحت باب غرفتي في الفندق حملت إلي دعوة من البيرتي روسو لحضور حفل موسيقي نهار غد في ساحة سان ماركو. في صباح اليوم التالي، خرجت وصاحبي لتلبية الدعوة. كان ارتيابنا كبيرا فالطرق خالية من المّارة، والصمت يرين على المكان، وبينا نحن نغذّ السير صوب السّاحة، إذا بشاب أصهب يقدّم نفسه بإسم البيرتي روسو، وراح يقودنا إلى ساحة سان ماركو الخالية، أخرج من جيبه حفنة من تراب متوّهج وراح ينثره على أرض السّاحة حتّى زلزلت، وأخرجت أثقالها، فرقة من العازفين تولد من رحم الأرض، ونحن في هلع، بلغت فيه قلوبنا الحناجر، ستّة عشر عازفا ممّا تعدّون، أحدهم جلس إلى بيانو ضخم، وإثنان احتضن كلّ منهما شيللّو عملاقاً، وآخر وقف إزاء الباص العظيم والبقيّة يحملون الكمنجات.

تقدّم إلينا جوليانو كارمينولا قائد الفرقة وانحنى مرحبّا، وما أن صفّق الأصهب حتّى بدأت الفرقة بعزف الحركة الثالثة السريعة –البيستو- من فصل الشتاء، بدأ هزيم الرعد، وعصف الريح ترسله تلك الآلات السحريّة، وانبعثت الحمائم والبلابل من تلك الأوتار، ثلاث دقائق فقط، ثمّ صفّق الأصهب فغابت الفرقة والقائد في جوف الأرض بلمح البصر، ألهبت الموسيقى سّاحة القدّيس، التي بُعث بها الناس من جديد، وعلا ضجيجهم، سرنا نبحث عن روسو بين الجموع، فلم نعثر له على أثر، سوى تلك البطاقة العتيقة (الدّعوة) التي حملت توقيعه.

**كازانوفا**

أي شعور ينتاب المرء وهو يعبر جسر التنهدات؟ من غرفة تفضي إلى هذا الممر الضيّق عبر الجسر فوق قناة مائية. كان القاضي يطلق حكمه على الجناة، فيعبر الجاني على جسر الآهات إلى سجن البندقية الذائع الصيت. لم ينجُ من غرفه المسقوفة بالرصاص إلا شخص واحد، كان ذلك عام 1757، إنه حَمَلُ البندقية النزق كازانوفا الذي يُلزمنا أن نكون على حذر من شطط خياله. بادرني قائلا: جاء في صحيفتي أنني ولدت في البندقية عام 1725، ومنزلي ما زال قائما على القناة إلى اليوم، وهو قبلة الزائرين. تخرّجت من جامعة بادوا بدرجة الدكتوراه ولي من العمر ست عشرة سنة. ولقد رويت في تاريخ حياتي أحداثا شيّقة ومغامرات جمّة، وبعد علاقات حميمة ربطتني بأميرات وممثلات ومغنيات، انتهى بي المطاف إلى العمل أمينا لمكتبة في بوهيميا. ولقد انحدر بي الحال عند الكونت صاحب المكتبة إلى أن صرت في عداد الخدم وأتناول طعامي في القاعة الخاصة بهم.

وكان أحب شيء إليَّ، من هذه الحياة الخاملة في بوهيميا، أن أعود إلى النوم في تلك الغرفة المسقوفة بألواح الرصاص في وطني، وإن كان يستحيل عليّ أن أغمض عينيّ في ذلك السجن لأسباب ثلاثة: الفئران والبراغيث والطنين الرهيب لساعة كاتدرائية القديس مرقس التي كانت تدق وكأنها في غرفتي.

لطالما شغلني السؤال عن الفرق بين كازانوفا السيرة التاريخية وكازانوفا المخيلة وليكن مثلنا من عالم السينما. فما الذي فعلته بكازانوفا مخيلة العبقري فيليني.

الفيلم الذي أخرجه فيليني عن كازانوفا شاهدته للمرة الأولى في مطلع شبابي خلال سني دراستي في لوس أنجلوس، وبقدر ما أثارني أن يكون فيليني الإيطالي هو من يقدم لنا ابن بلده إلا أنني لم أجد في الكندي دونالد ساترلاند ضالتي في كازانوفا الذي عهدته وقرأت عنه. والشيء الآخر الذي ظل يحيرني هو السبب الذي جعل فيليني يؤطر كازانوفا في تلك الصورة النمطية عن شخص خاو من أي طموح آخر له سوى الإنشغال بالنساء وبصورته عندهن، مع أن سيرة كازانوفا بقلمه تكشف لنا عن شخصية ارتبطت بعلاقات مع ملوك كلويس الخامس عشر والبابا كليمنت الثامن، وفريدرك ملك بروسيا، ومفكرين كفولتير وجان جاك روسو.

عندما انتهى أحد المعجبين بشخصية كازاناوفا من مشاهدة الفيلم كتب ساخراً: أراد فيلليني تدمير كازانوفا لكنه لم ينجح إلا في تدمير نفسه!

**كلير كليرمونت: الضلع الثالث**

خلال إحدى جولاتي في البندقية رحت أتفكر بحياة بايرون الذي أقام فيها فترة فاشترى قصر موشينيغو المشرف على القناة الكبرى وحشد فيه عشرات الخدم والحشم وبنات الهوى فضلا عن قردين وكلب حراسة ضخم. في سنة 1816 التقاه ستاندال في ميلانو ووصفه بإعجاب كبير: فوجئت بعينيه لم أر في حياتي ما هو أجمل ولا أكثر تعبيرا. حتى أنني إذا ما فكرت في التعبير الذي يتوجب على الرسام أن يسبغه على العبقرية لم اجد امامي إلا هذا الراس السامق لن انسى ابداً التعبير القدسي على وجهه فهو بجلال يعكس شعور القوة والعبقرية.

سألت دليلتي: أحقاً كان للشاعر بايرون في فينيسيا، كما ادعى مرة في إحدى رسائله، علاقات بمائتي امرأة من نساء المدينة، وأنه كان في استطاعته أن ينفذ إلى مخدع كل امرأة؟

هنا أجابت دليلتي بشيء غير قليل من الازدراء: نعم، مع الساقطات منهن! كان اللورد بايرون ثرياً وفي وسع الثري شراء ما يشترى! ولعل ذلك الافراط منه في الفحش كان سببا في اعتلال صحته.

كانت دليلتي على حق، فبعد عامين فقط من لقائه باستاندال، زاره في فينيسيا صديقه الحميم شلي، وصدم لمرآه فقد تردت حالته الصحية، إلى درجة أنه أصبح بعيدا جداً عن تلك الصورة الرائعة التي رسمها له ستاندال. أمسى سميناً، ومال شعره الفاحم على اللون الرمادي، وبدا أكبر من سنه، وكان ما يزال في الثلاثين من عمره.

خلال زيارتي تلك الزيارة إلى فينيسيا عثر على مدونة لكلير كليرمونت شقيقة زوجة شيلي، في بعض سطور تلك المدونة شكوى مريرة مما آلت إليه أحوالها في الكبر. وبالعودة إلى بعض وقائع حياتها المبكرة نعرف أن الشاعرين بايرون وشيلي قد أقاما علاقات جنسية مفتوحة مع الشقيقتين، ولم تكن كلير قد تجاوزت السادسة عشرة، ولما حملت من بايرون بابنته أليغرا رفض استقبالهما. قبل ذلك كانت كلير واختها ماري عشيقة شيلي ومن ثم زوجته قد سافرتا مع الشاعرين في جولات أوروبية. وكانت الفتاة هذه على قدر كبير من الثقافة وذات طموح اكبر من موهبتها، فقد فشل مثلا كتابها الأول الأحمق. عن علاقتها ببايرون تقول: "علاقتي ببايرون لم تمنحني سوى بضع دقائق من المتعة لكنني عانيت طوال حياتي من المتاعب جراء تلك العلاقة." وكانت كلير اضطرت، في ظل رفض بايرون لها، على الابتعاد عن ابنتها لقاء تسليمها لأبيها ليرعاها في قصره في فينيسيا.

خلاصة ما سجلته كلير في مذكراتها يظهرها متعاطفة مع شيللي في نظريته عن الحب الحر، والعيش الجماعي، وحق المرأة في اختيار عشاقها، والاتصال الجنسي قبل الزواج، بدت كلير وكأنها تصور الحب على أنه مثلث وثلاثي وهي التي استمتعت بكونها الضلع الثالث، وهو ما يبدو جريئا بخروجه المتطرف على أخلاق المجتمع الفيكتوري.

**أنثى العنكبوت في الغرفة رقم 10**

هل يمكنك أن تزور البندقية ولا تلمّ به؟ إنّه قصر الدوج الذي تقاسم مع ابن خلدون طرفيِ المتوسط، عاشا في العصر ذاته، وشهدا معا صعود العثمانيين وسطوع نجم تيمور ودخوله الشام.

 وإذا كان ابن خلدون قد فاوض المغول بعد أن أنزلوه من أعلى السور في قفّة ليستقبله تيمور في خيمة، فإن دوق فينيسيا "إنريكو دَنْدُولو" الجدّ كما أسلفنا هو الذي رسم للحملة الصليبيّة الرابعة خارطة طريق للقسطنطينيّة بدل القدس، وكفى المسلمين شرّ دهماء أوروبا.

ها هو الحفيد يشيّد من ذاك المجد التليد قصرا، ليكون لائقا لتكريم وفادة ضيوفه من البابوات والملوك ومبعوثيهم والكرادلة.

 فكرتُ في ما سيكون عليه حال ابن خلدون لو استقبله الدوج في قصره، لعلّه لن يتردد أن يعرض عليه خارطته أيضاً لفتح إفريقيا عرفاناً، كما فعل مع المغوليّ.

بعد نحو خمسة قرون من هذا التاريخ، ستسقط البندقية وسيتم ترسيم جديد للحدود، تخضع فيه البندقية للنمسا، ثم يلغي "نابليون" منصب الدوجيّة، فيصبح العصر الذهبي للبندقية أثراً بعد عين، وطال البلى بعد ذلك كثير من شواهد المدينة العظيمة، وكان قصر الدوج من بينها.  بحلول عام 1822 كان القصر قد هُجر، وتثلّمت جدرانه وصار آيلا للسقوط. في الوقت ذاته وقف بايرون في الضفّة الأخرى من إيطاليا يراقب فزعا جثة صديقه الشاعر شيلي وهي تحترق، قبل أن يقفل عائداً إلى البندقية ليعزّي النفس قليلا بالتسّلل عبر نوافذ البيوت ومشربيّاتها، فالشاعر يقسم أنّه قادر على النفاذ إلى مخدع أي امرأة فينيسيّة، ولو كانت حفيدة الدوج نفسه.

ولمّا اشترى جوزيبِّهْ دانييل، الرجل الموسر المعروف باسم دانييلي، المبنى في عام 1822، حوّله إلى فندق أطلق عليه اسم فندق دانييل وراقه أن يضيف مفردة الملكيّ ليكون الاسم: فندق دانييللي الملكي.

واجتهد الرجل، كما فعل الدوج من قبل، في تزيينه وجعله قبلة أنظار الملوك والأمراء، فقصده "وليم" ملك بروسيا و"تشارلز ديكنز" و"بلزاك" و"بروست" و"جورج صاند" و"ألفريد دي موسيه".

فبين جنبات هذا القصر، جمعت أنثى العنكبوت "جورج ساند" قصة حب بضحيّتها المسرحي والروائي الفرنسي "ألفريد دي موسيه"، وكان حينها في الثانية والعشرين من عمره، حدث ذلك في الغرفة رقم 10، التي ما برحت مأوًى محبّباً لكلّ طائفة العناكب.

 كتبت "ساند" من هذه الغرفة مجموعة من رسائلها التي تعدّ ظاهرة فريدة في دنيا الأدب، ولمّا انتابت "دي موسيه" وعكة صحيّة، طلبت "ساند" لحبيبها طبيباً، وما إن بدأ يتعافي حتى اكتشف أن العنكبوت قد تحوّلت عنه إلى طبيبه، فاستسلم الشاعر الشاب للأمر الواقع، وعاد بعدها حزيناً إلى باريس.  وإمعانا في النكاية به، تبعته مع طبيبها إلى عاصمة الأنوار.

ولمّا سحرها أنف "شوبان" الذي كان يستخدمه لأغراض عدّة، أقلّها إصبعاً إضافيّاً للعزف على أصابع البيانو، دفعت بالطبيب البندقيّ من النافذة، فعاد من حيث أتى يضمّد جراحه.

 فكرتُ بهذا كلّه، وأنا أتملّى بهو قصر الدوق بمقوّساته ومقرنصاته وأعمدته المنقوشة وبلاطاته اللامعة وسقفه المرتفع، والحيوات التي ملأ عَبَقها تاريخ القصر وغرفه الفخمة، والتي فات الشيخ ابن خلدون أن يظفر، ولو بليلة واحدة من لياليها الحمر.

**جسور فينيسيا بين التاريخ والاسطورة**

ترتبط جسور فلورنسا بحكايات ووقائع بين التاريخ والأسطورة، أحدها جسر التنهّدات الذي خلّده الشاعر الإنجليزي بايرون في قصيدة له، واسمه بالإيطالية: بونتِهْ دِيْ سوسبيري (Ponte dei Sospiri) يقع على مسافة قريبة من ميدان بياتسا دي سان ماركو، ويصل بين قصر البندقية وسجن سابق لمحاكم التفتيش، عابراً نهر ريو دي بلازو، جاءت تسميته من تنهدات المساجين الذين يعبرونه من دار العدالة بعد محاكمتهم إلى السجن، فتكون في الغالب هذه الأمتار الأخيرة المسافة القصيرة آخر عهدهم بالحرية، وربما بالبحر والسماء والحياة أيضا، لأن هناك ممرا آخر في الجسر ذاته للمحكومين بالإعدام.

وهناك جسر "دِيْ بونيِيْ"، أو جسر القبضات، وهو مسمّى لتقليد قديم في البندقية هجر قبل قرون وكان يعرف بحرب القبضات، التي كانت تدور بين فصيلين متعارضين من سكان المدينة. كان الطرفان يتقابلان "بقبضات اليد" على الجزء العلوي من الجسر، من شهر أيلول/ سبتمبر إلى عيد الميلاد في شهر كانون الأول/ديسمبر. والخلاف بين الفصيلين له أصول قديمة جدًا وربما ترجع إلى النزاعات التي كانت تدور بين سكان ييزولو وسكان إيراكليا، مع انتقال أناس إلى تلك الأطراف من المدينة، شكلوابابتسامة مشرقة مُجْتَمَعَيْنِ مُنْفَصِلَيْنِ. وكان الهدف من "اللعبة" رمي الخصوم في مجرى الماء، ويفوز الفريق الذي ينجح في إبقاء رجاله على الجسر.

وجسر "بيلا دونّا أونستا" وهو جسر لا يُعرف أصله، ولفظ أونستا يرى البعض أنه مأخوذ عن "أونست" أي صادق. وقال البعض الآخر أن اللفظ منسوب إلى سيدة عابثة.   
وهناك من يرى أن التسمية مرتبطة بحكاية عن امرأة فقيرة انتحرت بعدما سُلبت شرفها، وقال خصوم لها، بل كانت بائعة هوى واتّخذت الاسم لتضليل الشرطة عنها. هناك تقليد شائع مفاده أنه ذات يوم عبر رجلان هذا الجسر، يتجادلان حول صدق المرأة، أحدهما، الذي كان يشك كثيراً في هذا الأمر، قال للآخر في استهزاء، "هل تعرف من هي الصادقة بين كل النساء؟ إنها تلك التي تراها هناك!"، وأشار إلى رأس امرأة، منحوت في الحجر، وبسببه سمّي فيما بعد "جسر المرأة الشريفة".

ومن ثمّ جسر ديللي تتّي أي جسر النهود، وقد اكتسب تسميته من النساء اللواتي يستعرضن عليه نهودهن إغراء للرجال.

وتقول الرواية التاريخية أن مرسوما صدر عن حكومة فينيسيا هدف إلى تشجيع النساء على كشف صدورهن وعرض أنفسهن على الجسر وفي النوافذ المحيطة به، تحفيزا للرغبات الجنسية الطبيعية عند الرجال للإقبال على النساء، على سبيل كبح المثلية الجنسية التي شاع انتشارها، وذلك رغبة في زيادة عدد سكان الجمهورية.

وهناك رواية رومانسية حديثة تزعم أن العشاق الذين يتبادلون القبل في الجندول تحت الجسر إياه أثناء غروب الشمسس سيمنحون الحب الأبدي.

**البَطّولة البندقيّة**

ترى، هل حمل مركب شراعيّ يقوده حفيد لقطريّ بن الفجاءة، البَطّوله (البرقع الذي تتقنع به النساء القطريّات) إلى موانئ البندقية، حتّى آلت إلى تحفة الجزيرة الرائعة؟ أو أنّ ماركو بولو حلّ ضيفا في خيمة جد لهم، ونسي بطّولته هناك؟ من يدر، لعلّ ذلك ما حدث، فقد ظلّ الخليج قرونا يزيّن أعناق البندقيّات باللؤلؤ والدّان الذي قلّ نظيره، ولكّنني أعلم يقينا أن المقنّع الكندي كان يتقنّع في القرن الأول من الهجرة، لأنه متى سفر لفع (أي أصيب بالعين)، وكان وضّاح اليمن يتبرقع مخافة العين أيضا، وكان سلامة اليحصبيّ ممدوح الأعشى يخرج للناس مبرقعا مرّة كلّ عام، وأن الخرساني عطاء الأعور كان يلبس قناعا من الذهب، ويقول: أنا الله، فلّما حوصر، وقبل أن يتجرّع السمّ، قال وقد جمع نساءه: أنا صاعد إلى السماء.

قال الشاعر:

**ألج العجاج إلى المقنّع حاسرا وأزورها خوف الوشاة مقنّعا**

كان الشاعر العربي الذي يلقى الفوارس المدجّجين بالسلاح حاسرا (عاريا)، يتبرقع عند زيارة حبيبته، لا خوفا من الموت، ولكن خشية أن تعرف هويّته، أيكون الحب أصعب من الموت؟ وكذلك اهل البندقيّة الذين كان التبرقع ديدنهم، يحتفلون بالمهرجان الذي يلبسون فيه البرقع ستّة شهور في العام، قبل أن يلغي نابليون هذه التظاهرة. فقبل وصول الإمبراطور الفاتح، كان الكوديجا (حملة المصابيح الصبيان) ينتشرون في الدروب والأزقّة يقودون الرجال والنساء المبرقعين في طرقات البندقيّة ليلا لقضاء مآربهم، فالقدّيس ماركو كان يبتسم لإيروس ولم يفرض المحاذير على الشهوات، ولم يكن الرجال الإيطاليون في ذلك العصر يأنفون من أن تتّخذ زوجاتهم عشيقا، لكّن على أن لا يجهرن بالمعصية، ولمّا جاهرت جويديتّا بالفحشاء مع الموسيقار بللّيني على مرأى من الناس ومسمع في جنوه وميلانو، هبّ تاجر الحرير النابوليتاني القذر الأكمام وانقضّ عليها، واستردّها، وفرّ الموسيقار مذعورا إلى باريس، من يجرؤ على الوقوف في وجه ابناء نابولي حتّى اليوم؟

قال لي صاحبي: هناك مجتمعات يحكمها الخجل كالعرب، والأسيويّين، واللاّتين، وأخرى يحكمها الذنب كالأنجلو ساكسون والجرمان والأسكندنافيين. فإذا ما تعثّرت امرأة تتحدّر من ثقافة خجولة فغاية همّها هو أن لا يراها أحد. أما إن تعثّرت امرأة من ثقافة يحكمها الذنب، فغايتها السؤال عمّن هو المذنب الذي كان سبب تعثّرها.

وروى لي حكاية رجل أميركيّ قاضى محلا لبيع الكعك بمبلغ كبير من المال، لأنه انزلق على رخامه الذي كان قد نُظّف لتوّه، وربح القضية لأن صاحب المحلّ لم يضع علامة لتحذير زبائنه.

كانت العمّة دوناتا قد أعدّت مأدبة عامرة في الحفل الذي جمعها وأحفادها وحفيداتها وما أن انتهى الحضور من تناول وجباتهم، حتى قدّمت الحلوى التي ما برحت الأيدي تتخاطفها حتّى لم يبق في الطبق سوى قطعة واحدة، حدّقت العمة دوناتا في قطعة الحلوى وفي العيون المتلصصة والأيدي المتربّصة والنفوس الشرهة التي لا يمنعها من الإنقضاض سوى طبيعتها الخجولة. فما كان منها إلاّ أن نهضت إلى مدخل غرفة الطعام وأطفات المصباح.

**فينيسيا في السينما**

كما ارتبطت فلورنسا بفيلم "غرفة ذات إطلالة" ترتبط البندقية بدورها بعدد من الأفلام العظيمة أذكر منها أربعاً:

"أجنحة الحمامة" للمخرج إين سوفتلي، عن رواية "هنري جيمس" بالاسم نفسه. والفيلم يروي قصة فتاة اسمها كيتي ورثت عن والدتها ثروة ضخمة لكنها في الوقت نفسه ضحية مرض عضال. يتقرب إليها العديد من الرجال بعضهم يدفعه النبل وآخرون بدافع الطمع والجشع. رشح الفيلم لعدد من جوائز الأوسكار ونال جائزتين في البافتا منها التصوير.

الفيلم الثاني "موت في البندقية" الماخوذ عن رواية توماس مان وهو من إخراج فيسكونتي، والفيلم يروي قصة موسيقار يصل على البندقية في رحلة راحة واستجمام، لكنه لا يجد السلام هناك إذ يقع أسير جمال استثنائي لفتى صغير يدعى تازيو، وتتحول إقامته في البندقية إلى إقامة عصيبة. رشح الفيلم على سبع جوائز بافتا وحصد أربعا منها.

الفيلم الثالث هو "جمال خطر" لمخرجه مارشال هيرسكوفيتز، تدور أحداثه في حقبة من القرون الوسطى لم يكن أمام الفتاة الفقيرة مهما كانت جميلة سوى أحد خيارين إما أن تسكن الدير أو أن تصبح محظية لرجل من علية القوم، وهو ما لجأت إليه بطلة الفيلم فيرونيكا الفتاة الفينيسية الجميلة التي راحت تشق طريقها إلى المجد من خلال دور سياسي أتاح لها إدارة الحياة السياسية في جمهورية البندقية.

الفيلم الرابع هو "قليل من الرومانسية" للمخرج جورج روي هل، وبطولة لورنس أوليفييه، والفيلم يروي حكاية صبي فرنسي هو دانييل وفتاة أميركية هي لورين، يلتقيان في مدرسة وتنشأ بينهما قصة حب مراهق ثم يتعرفان على شيخ هو يوليوس الذي سحرهما بقصص الحب. ولضمان نجاح قصة حبهما إلى الابد يقوم العاشقان برعاية الشيخ برحلة إلى البندقية للعبور بالجندول تحت الجسر والفوز بقبلة الحب الأبدي.

**الوصول إلى الدولومايت**

كان المطعم يبعدُ قرابة نِصف الساعة عن مقر إقامتنا، فآثرنا أنْ نستقلّ سيارةً من الفندق، وكان السائق شاباً في مقتبل العمر، يجيد اللغة الإنجليزية، فسألته كيف تعلّمها بمثل هذه السنّ المبكرة وفي بلد يشحّ فيه المتحدثون بها؟! فقال إن والده يملك مطعماً وحانة (Bar)، فأتقنها بفعل تواصله مع رواد المكان.

ثم سألناه عن المطعم الذي نريد، فقال إنّه لم يقصده من قبل، فالمنطقة بعيدة عن "ميلانو" والذهاب إليها يكون غالبا بقصد ارتياد المطعم، فمطعم تحصّل على (ثلاث نجوم) له ما للمدينة من ثقل وتأثير، يقصده الرواد كما لو أنهم في رحلة إلى مدينة عامرة.

عندما دخلنا مطعم "دا فيتوريو" في منطقة "بروزابورتو" التي تقع في الأطراف القصية شرق "ميلانو" وجدناه يعجّ بالعوائل الأرستقراطية، ورأينا -رأي العين- صحون الذهب والفضة مثيلة تلك التي كانت تُرمى في نهر "آرنو" من فيللا "ايتشيجي"، أما أعداد الطهاة والنُدُل فيكاد يفوق أعداد روّاده.

فعلت نجوم ميشيلن الثلاث فعلها، فلقد كانت وجبة عامرة لا تُنسى. قُدّم إلينا أول الأمر(الكانيديرلي) وهو ضرب من الخبز مع الفطر، ثم أُتبع بطبق بياض البيض مخفوقا بالخبز والصفار كمقبّلات، ومن ثمّ "البولنتا" مع "الباكالاه". أما الطبق الرئيس فكان "باستا الباكِّري مع الطماطم" وهو من الطيّبات، ويُعدّ أمام ناظريك، وكأنك شريك في هذا المختبر الميلاني، فتمتلئ عينيك وحواسك بسحره حتى تشعر أنك في لحظة مّا أصبحت شريكاً في النجوم الثلاث أيضاّ.

ومن ثم الأسماك المقلية ولحم الروستو، ومصدره أبقار "بيامونتي" التي ترعى في جبال الألب.

واختتموا المأدبة بتقديم "الكانولّي" بالقشدة، حيث ناولنا النادل قطعة من الخبز ثم عصر فيها القشدة، وقال بصوت احتفالي: خذوا الكانولي.. وكان ألذ من أي كانولي تناولناه من قبل بما فيه ذلك الذي يعدّه المطبخ الصقلّي الذي لا يُذكر إلا وذكر الكانولّي معه. وألحقوا ذلك كله بحلوى شعر البنات، وكعك البرتقال العجيب، كتحية وداع.

وبعد أن ختمنا فصل العشاء

قضيت بقية المساء أستمع إلى ماريا كلاس وهي تؤدي أوبرا "لوشيا دي لامرمور" المستوحاة من رواية والتر سكوت "عروس لامرمور" للموسيقار دونيزيتي. في الأوبرا هذه مشهد يهيم به محبو الأوبرا وأعني به مشهد "الجنون" ولا تحسن أداءه سوى من وهبها أبولو حنجرة من ذهب. وهذه الأوبرا الخالدة التي شارف عمرها على القرنين، ماتزال كقول أبي الطيب "فتاة" لم تبارحها نضارة الشباب.

**صوته العذب يشجيني**

**آه، إنه يأخذ بمجامع القلب**

ها قد بلغت مدينتك يا دونيزيتي وكم يسعدني أن أقدم لك وأنا على أعتاب مرقدك ماريا كلاس لتنشد لك بحنجرتها الشجية أغنيتك الخالدة.

كان المطر ينهمر في الخارج انهمار سيلٍ من علٍ، والثواني في تلك الليلة تندلق كطيب، لعل تعامد ستة كواكب في السماء في برج الحوت المائي.

في الصباح التالي، وبعد فطور خفيف، انطلقنا إلى جبال "الدولومايت" وإلى بلدة "كورتينا" تحديداً، وبعد نحو أربع ساعات وقد اكتملت الظهيرة، بزغت "كورتينا" في سعد سعودها.

أخيراً. ها قد اكتحلت العيون بـعروس "الدولومايت".

**إطلالة على ذهب الدولومايت**

وصلنا كورتينا دا أمبتزو، وتوّجهنا إلى فندق كريستالو، المشهد من النافذة يطلّ عل جبال توفاني، ما خدمت عيني قلبي كاليوم، يا له من مشهد ساحر. هذه هي منطقة جبال الدولومايت الذهبيّة، إنّها كتلة عجيبة من الصخور في الجانب الشرقيّ من جبال الألب تشكّلت قبل 60 مليون سنة نتيجة الحراك القاري بين قارتي أوروبا وأفريقيا، واسمها مشتّق من اسم عالم المعادن دي ديلومي من أواخر القرن الثامن عشر وهو أوّل من اهتدى إلى أن الكربون هو ما يمنح هذه الجبال لونها الذهبيّ.

مونت (جبل) اليشي، ومونتي كريستالو، وفوريالو، وسورابيس، ولاجاتسوي، ومونت نفوزو الذي لقي فيه ستّة من المتزلّجين حتفهم إثر انهيارٍ ثلجيّ قبل أيّام من حلولنا هنا. قلت لصاحبي ستّة من الكواكب كانت تتعامد في الحوت نذيرة بوجوب الابتعاد عن الماء.

كان الطقس صحوا ودافئا، فأخذنا جولة في المدينة وعدنا استعدادا لوجبة العشاء في مطعم تيفولي الحائز على نجمة ميشلين، وفي التاسعة كنّا ضيوف الشيف برازيانو برست، قدّم لنا طبق تارتار السمك، والتونة الحمراء بثلاثة ألوان، وباستا البيكوري مع اللحم بالهندباء البريّة، ولحم العجل بثلاثة ألوان، قام الشيف بجولة لتحيّة ضيوفه، والاطمئنان على نظافة أطباقهم، كانت الموسيقى الخفيفة من أغاني الخمسينات الرائعة تضفي جوّاً رومانسيّا على المكان.

في صباح اليوم التالي، وبعد وجبة الفطور توجّهنا إلى ميزورينا وشاهدنا بحيرتها المتجمّدة، وتحت جبل تري سيمي دي لافاريدو ذي الرؤوس المدببة الثلاثة أقلّتنا عربة الثلج إلى مالجا (مطعم) رن بيانكو، ذكّرتني الطريق غير المعبّدة بتلك الرمال التي عبرتها في طفولتي من أبوظبي إلى العين، ولكنّها هنا بيضاء تسرّ الناظرين، في المطعم، شعرت بجوع مباغت، فتقاسمت وصاحبي طبقي الباستا باللحم، ولحم البقر المشوي، برودة الطقس أضفت على الوجبة لذة مضاعفة. عدنا بعد ذلك إلى العربة لنتابع الطريق إلى لاجو دي لاندرو، ثمّ إلى دوبياكو، فقال السائق رينزو إن أهالي هذه القرى (منطقة جنوب تيرول) يأنفون من التحدّث بالإيطاليّة ويؤثرون الكلام بالألمانيّة، وممّا لفت أنظارنا أنّ أسماء الجبال والقرى هنا مكتوبة باللغتين الإيطاليّة والألمانيّة، قالت صديقة لي على سبيل المزاح إنّ شعب هذه المنطقة شعب مهجّن، فلا هو ألماني قحّ ولا إيطالي، لقد قضمت إيطاليا في نهاية الحرب العالميّة الأولى هذه القطعة من النمسا، فصار السكّان بهوّيتين ولكنّ التأثير الألماني جلي فلقد عهدنا الطليان بأنهم شعب نبيذ وأمّا طليان تيرول فدأبهم عبّ البيرة، ثمّ اتجهنا إلى كانديدو، وتناولنا القهوة في مقهى سنفتر إس كافي بيسترو، ومكثنا فيه بعض الوقت لندفأ، وكنت بصدد مقال عن زيارتنا إلى بيرجامو فبحثت في مصادر لعمليّ دونيزيتّي إكسير الحياة، ولوشيّا من لمارمور، وفي طريق عودتنا عبرنا وادي بوستاريّا وهو وادٍ مهيب، على جانب منه جبال الألب يقابلها قمم جبال الدولومايت الحادّة، ولمّا وصلنا كربونين سلك رينزو طريقا مررنا فيه على أوسبيتالي وشاهدنا الطرف الآخر من جبال كريستالو وصولا إلى فندقنا الذي يحمل الإسم نفسه.

**مغامرة في الدولومايت**

لا أعتقد أنّ إدواردو أقلّ ركّابا من قبل، لعلّها أول تجربة له في نقل الركّاب، فما أن صرنا في عربة المرسيدس حّتى أخرج كرّاسا كالذي يستخدمه سائقو شاحنات البريد المسجّل، وكتب فيه الإسم ورقم الغرفة وانطلق بالعربة في طرقات متعرّجة، قلت لرفيقتي وقد انتابني شعور قلق تثبّتي، فنحن نسير بسرعة مقلقة، تركت العربة أضواء المدينة خلفنا، شاقّة طريقاً جبليا شديد الوعورة معتماً تكسوه الثلوج، اجتهدت العربة في ارتقائه إلى أن عجزت وتوقفت تماماً. عبثا حاول إدواردو معاودة الصعود، وعندما يئس من العودة راحت عجلات العربة تدور في مكانها، بدا إدواردو مربكاً، ومضطربا، وراح يعتذر وقد نالت منه الحيرة: لا أستطيع الحركة، العربة لا تتحرك! أسقط في أيدينا، وأجرينا اتصّالات متكررة مع الفندق وبعض الأصدقاء، حينها أدركنا أن السائق ضل الطريق، وأن المطعم بات وراءنا في أسفل الجبل، ها قد علقنا في خاصرة جبل في ليل حالك البياض. هرع جوجو والد إدواردو بعربته لإنقاذنا وحفظ ماء وجه ابنه ووجه إدارة الفندق، وحتى لا يصيبه ما اصابنا فضل أن يوقف عربته في منتصف المسافة بين موقعنا وأسفل الجبل. هنا بدأ فصل جديد من الحكاية. كانت رفيقتي تنتعل حذاء بكعب عال، ومن المستحيل عليها أن تخطو خارج العربة خطوة واحدة دون أن تغوص في الثلج، وجدنا الحل في أن انتقل إلى عربة الأب أولا، ثم أنزع حذائي وأرسله لها مع السائق. بدت الفكرة معقولة رغم أن حذائي لم يكن مناسبا أبداً لظروف كهذه.

والواقع أن هذه الفكرة لم تكن فكرتي ولكنها فكرة صديقي جوليانو بطل سباقات الثلج الإنجليزي الذي كان يتابع الموقف من لندن عبر الهاتف. من حيث المبدأ بعد مشقّة وعناء من الخوض في كتل الثلج المتراكم نجحت الفكرة وتمكنا من الانتقال إلى سيّارة جوجو الأب. هنا بدأ الفصل الثالث من الحكاية. فما أن همّ جوجو بالرجوع بعربته حتّى دارت العجلات في الفراغ، لتعلق هذه المرة عربة الاب أيضا.

ذهبت محاولات الأب والإبن لتحرير العربة من قبضة الثلج هباء، في هذه المعمة التي دارت في ليل دامس وإخفاق تلو إخفاق، فكرت أن المعضلة لم تعد في تفويت العشاء، وقد تجاوزت التاسعة، بل الكابوس أن نقضي ما تبقى من الليل هنا. علماً أن صاحب المطعم اتصل مراراً ليطمئن علينا، قائلا: "سأبقى في انتظاركما مهما تأخر الوقت".

هنا وصل سائق ثالث هو فرانشسكو أرسلته إدارة الفندق، لإنقاذ الموقف، لكن فرانشيسكو وقف بعربته أسفل الجبل، مفضلاً أن ننزل نحن إليه، خشية أن يعلق هو الآخر وهكذا وجدنا أنفسنا نكرر العمليّة المروّعة نفسها. ويا له من عناء أن نعيد الكرة ثانية منحدرين في طريق ثلجيّ مظلم وأن نتقاسم حذاء ًواحداً لبلوغ عربة تنتظرنا في أسفل الجبل. وبعد لأي بلغنا عربة فرانسيس البائسة وواحدنا بين مصدق ومكذب لهذا الذي جرى. إذ ذاك سألت رفيقتي مشفقاً: إلى الفندق أم إلى المطعم؟

على الفور ومن دون تردد أجابت: بل إلى المطعم.

يقينا لم يكن هناك خيار أفضل من وجبة شهية وركن دافيء لنسيان ماجرى.

وصلنا إلى المطعم متأخرين أكثر ساعتين، بثياب مبللة ووجوه مرهقة. هشّ السيّد فالتر صاحب مطعم نيرو دي سيبا للقائنا، التمسنا فيه وفي مطعمه الدفء، هيأ لنا طاولة في جوار مدفأة عبقت براحة خشب البلوط وارسلت في مفاصلنا الدفء وما أن التقطنا أنفاسنا، حتى تملكّتنا هستيريا ضحك، ثمّ صمتٍ، تلاه ضحك، وهكذا.

علمنا أن فالتر من كانارجّو في فينيتو، قدّم لنا تارتار التونا، ومعكرونة بالقواقع ساخنة وشهيّة لاسيما بعد فصل لا ينسى من الليلة، واختتمنا تلاها طبق من مشاوي الأسماك، ومع انتهاء الوجبة جاء جوفاني من خدمة عملاء الفندق معتذرا أشدّ الإعتذار، وعاد بنا إلى الفندق.

في صباح اليوم التالي نزلنا لتناول الإفطار في قاعة تطل على مشهد ساحرٍ للجبل، عندما أقبل جوفّاني ليخبرنا أنّ ادواردو وأباه ظلّا عالقين في الجبل حتّى الثالثة فجرا، وأنّهما طلبا صباح اليوم نجدة الإطفاء لانتشال سيّاراتيهما العالقتين في الثلج. وفي يوم مغادرتنا الفندق قال لي مدير خدمة النزلاء عند وداعنا: سرّحنا جوجو وإبنه، لم يرق لنا ذلك واتّصلنا بصديقتنا لإبلاغ إداررة الفندق بأننا يؤلمنا أن نكون سبباً في صرف أحد من الناس من عمله، فعلمت من إدارة الفندق أنّهما لم يصرفا من العمل، ولكن أسند لهما عمل آخر في البندقيّة، لعدم درايتهما في التعامل مع الثلج، قالت لنا ذلك، وأضافت: قلت للإدارة ممازحة أرجو أن تكون لهم هناك الخبرة الكافية للتعامل مع الماء.

**رحلة إلى جبل مارمولادا**

عقدنا العزم على اكتشاف الناحية الغربيّة من كورتينا دا امبتزو وزيارة أعلى جبل في الدولومايت إنّه جبل مارمولادا. نزلنا للقاء رنزو السائق الذي قال أنّه رهن إشارتنا فتوّجهنا صاعدين معه إلى باسو جيو القريبة وهي على ارتفاع 2236 مترا، فقال صاحبي أتعرف ما هو برج رنزو فقلت الحوت فكان كذلك، فقال لقد أوحى لي وجهه بأنه من مواليد الحمل، ولله درّ ليندا جودمان وما كتبته في فصل أشكال الوجوه وارتباطها بالأبراج، ثمّ توقّفنا عند مطعم أوريليو الذي انتبذ مكانا قصيّا عن صخب البلدة وربض كراهب يتعبّد الطبيعة على ارتفاع 2300 متر، وأية طبيعة أجمل من تلك الإطلالة على جبال معمّمة بالثلج وسهول كساها البياض تحفّ بها من كلّ جانب، استقبلتنا انّا ليزا النادلة بابتسامة مشرقة على محيّاها، فكان لقاؤنا إيّاها كما يقول المتصوّفة لقاء أرواح سبق وإن تلاقت. طلبنا وجبة خفيفة، ففوجئنا بالمستوى الفاخر لأطباق الشيف لويجي (جيجي) دارِز، فأثنى صاحبي على طبق باستا مكارونشيني ببستو زهور الجبل المقطوفة في الصيف، وهي عندهم أنفس من الحبق الليغوري، والباستا مع جبنة ستراشاتيلاّ، وطلبت بدوري صحن رقائق اللازانيا المخبوزة بالفرن مع الحبّار والخرشوف فقلت لصاحبي سأمنح لويجي صوتي لمنحه نجمة ميشلين بدون تردّد، كان في جوارنا رواد شغلوا بضع طاولات في وجبة الغداء. خرج الشيف لويجي ببدلة الطاهي الأنيقة لتحيّتنا، وعزم علينا بأطباق من الحلوى، فلم نردّ طلبه، قدّم لنا بوظة الباشن فروت تهيئة للمقبّلات، وهو طبق لا يضاهى، ثمّ جيء بالشوكولاتا باردة وساخنة، وامّا الكريم بروليه الذي قدّم لي فقد كان استثنائياً ومبتكرا فقد غطّيت البروليه الطريّة بطبقة أسمك من السكر المحروق قليلا، فإذا ما لمستها عليك كسر هذه الطبقة بالملعقة برقّة، تندلق كريما لها نكهة حلوة مشبعة بالكراميل وهذا المزيج مكون من صفار البيض والقشدة والفانيلا الناعمة كالحرير. وبعد الانتهاء من وجبة الغداء توجّهنا إلى كولّي (تلّ) سان لوشيّا، ونزلنا لمشاهدة جبل شيفيتّا الذهبي المهيب في الجنوب، وعدنا لمواصلة المشوار إلى جبل مارمولادا فانحدرنا إلى كابريللي وهي على ارتفاع 1017 مترا، قال رنزو: يقوم السكّان في هذه المناطق بحبس أبقارهم في البيوت التي يسكنونها في حظائر لحمايتها من البرد، وفي الربيع يطلقونها للرعي في السهوب. قبل عامين كان الشتاء استثنائيا فقد نزلت ثلوج بارتفاع ثمانية أمتار وتسبّبت في قطع التيّار الكهربائي أياماً كابد أهل الدولومايت خلالها الأمرّين. عبرت بنا السيّارة مناظر ساحرة للطبيعة التي لم يكّدرها مكدّر، جبال برائحة الصنوبر والأرز، حتّى بلغنا روكّا بيتوري، فقال رينزو هنا يقام سباق الدرّاجات العالمي، وسبق أن نظمت هنا بطولة الأولمبياد عام 1956، قلت لنفسي ليت الدراجة قد ضلت سبيلها عن هذا المكان وتركت الطبيعة في سلامها الأزلي ثمّ مررنا على مالجا كيابيلاّ فلاح جبل مارمولادا العملاق، وشاهدنا زرافات المتزلّجين بدروعهم الشتائية وقد اختلفوا في ذهاب وإياب، علمت من رنزو أنّ أقرب محطة كبرى تربط الشمال الإيطالي بالدولومايت هي بلّونو على مسافة 75 كم من كورتينا، وهناك محطّة أصغر في كالازيو، ولمّا سألناه عن ظاهرة الأبراج المنتشرة هنا وهناك، قال إنها مقابر جنود الحرب العالميّة الأولى من الطرفين الإيطالي والنمساوي، ففي أسّاريو مثلا مقبرة للطليان، ثمّ سرنا إلى أن بلغنا الجبل ، ثمّ عدنا مرورا بروكّا بيتوري، اقتنينا ملابس وأحذية للثلج فقد كان درساً قاسيا زيارة الدولومايت بملابس لا تليق بجبالها الذهبيّة المعمّمة بالثلوج، وهكذا انطلقنا عائدين إلى كورتينا.

في المساء هبطت درجة الحرارة للصفر فقرّرنا اختبار مواقد تيفولي وقصدنا مطعماً أتحفنا بطبق كبد البطّ الطريّ منه والصلب، ولحمة الضأن المعدّة على طريقتين مشويّة ومقليّة، وتارتار التونا، والربيان المقلي بصلصة الطماطم، وختاما باستا الكابيلاتّي مع مرقة دجاج الكابون.

**قمم غير موطوءة وأودية غير مطروقة**

باغتني طيف غوته وهو يتأمل هامة جبل مكللة بالثلج تطل على فولشنزي القريبة من موقعي في كورتينا. في رحلته الإيطالية في سبتمبر 1786، يصف غوته عبوره إيطاليا قادما من ميونخ. هناك استجاب الشاعر لرغبة عازف قيثار جوال في أن يصطحب الشاعر ابنته الصغيرة في عربته مسافة من الطريق، فأسعده تجاذبه معها أطراف الحديث وقال عنها: إنها حلوة المعشر ذات عينين عسليتين واسعتين وجبهة شامخة. وامتدح فطنتها وذكاءها وطلاقتها في الحديث. ويصف غوته وقته ذاك بكونه مغامرة عظيمة.

ولما بلغ غوته إنزبروك حيث حنت الشمس عليه حنوّ المرضعة على الفطيم، وجازها إلى معبر برينر لمح أول شجرة صنوبر في رحلته، ولما بلغ ترنتو التي وصلها ليلا سارع لأخذ قسط من النوم. في الصباح واصل سيره وبلغ توربول شمال بحيرة جاردا حيث تغيرت اللغة بغتة. قلت لصاحبي: كان غوته خير من وصف طبيعة الشمال الإيطالي بحنكة جمعت بين الجيولوجي واللغوي وعالم الطبيعة والأرصاد الجويّة فضلا على علو كعبه في الشعر والمسرح وسائر الفنون.

من شرفة جناحنا في فندق كريستالو يطل جبل توفانا الذهبيّ المهيب المكلّل بالثلج حيثما ولّيت وجهك تراه، نزلنا فور وصولنا للقيام بجولة في البلدة، وبعد دفء كوبين من القهوة وعبقهما، دلفنا إلى مكتبة لنتزوّد بدليل لكورتينا وجبال الدولومايت، وقع صاحبي على كتاب لإميليا إدواردز بعنوان "قمم غير موطوءة وأودية غير مطروقة" فكان فرحي بهذه اللقية كبيرا. كان أول من وطأت قدماه هامة توفانا عام 1863 هو النمساوي بول جرومان مصحوباً ببعض الأدلاء في الحقبة الذهبية لتسلق الجبال. ولم يمض عقد من الزمن حتّى بلغت سفحه الإنكليزية إيميليا إدواردز وصاحبتها وعشيقتها لوسي رينشو التي كتمت هويتها عندما دوّنت رحلتها في الكتاب الذي صار بين أيدينا، والذي دفعت به فيما بعد إلى الترجمة.

قامت إدواردز ولوسي رينشو برحلتهما الرائعة من كورتينا إلى بولزانو في عام 1872 ، في زمن نادراً ما سافرت فيه النساء عبر التضاريس الوعرة. كلتاهما كانتا على جانب من الثراء. وإدواردز التي تتميز لغتها بالأدبية عرفت أيضا كروائية، وبعد رحلتها إلى الدلومايت بسنة واحدة قامت برحلة أخرى إلى مصر هرباً هذه المرة من أمطار فرنسا، ونشرت يوميات تلك الرحلة تحت عنوان "ألف ميل إلى أعالي النيل".

في ربيع عام 1872 وقبل شروعهما في الرحلة الإيطالية اجتمعت الرفيقتان في نابولي ومن هناك انطلقتا إلى سويسرا هرباً من حرارة صيف إيطاليا في ذلك العام. كانت إدواردز مفتونًة من سنوات بعيدة بقمم الدولوميت الغريبة وذلك من خلال الرسوم والصور. وذات ليلة تخلت الصديقتان عن خططهما السويسرية وشرعتا في رحلة الـ 500 كم عبر الدولوميت.

لدى عودتنا إلى الفندق استقبلنا مديره وطاف بنا في جولة للتعرف على أجنحته وقاعاته وشرفاته ومعالمه الأخرى المميزة مستعرضاً معنا تاريخه منذ أن شيد في عام 1901، وهو التاريخ نفسه الذي شيد فيه كل من ريتز لندن وريتز باريس.

يخبرنا المدير بأن الفندق عرف تاريخاً مجيداً. فكان من بين المترددين على الفندق ملك مصر فؤاد الأول وملوك كل من ميلان وصربيا وبلجيكا مصحوبين بنسائهم وعقيلاتهم وضيوفهم، ومن الكتاب أقام فيه فلاديمير نابوكوف الذي كان يقضي ساعات في متنزه الفندق، والآن أتخيل أن نابوكوف لمح الفراشة لوليتا صحبة أمها في ممرات هذا الفندق الذي طالما غص بالسياح القادمين من أميركا، فاصطادها بشبكته واختلى بها في روايته الخالدة.

خلال الجولة لم يتوقف المدير المبتهج بتاريخ فندقه عن ذكر الشخصيات التي تركت أسماءها وتواقيعها في السجل الذهبي للفندق، من بينها كلاوس كنسكي، وشيرلي باسي، وبريجيت باردو. وفي 1962 حجز فرانك سيناترا الفندق لنفسه شهر سيبتمبر كاملا. وفي العام 1959 صور فيتوريو دي سيكا في الفندق فيلمه "عطلة الشتاء"، وفي سنة 1963 صور بليك أدواردز فيه فيلمه "النمر الوردي" الذي أسند فيه دور البطولة إلى بيتر سيلر، والفيلم سرعان ما تحول إلى سلسلة ذاع صيتها، ومازال إلى وقتنا الراهن.

في ردهات هذا الفندق، تتناهى إلى سمعك أصوات محادثات ووشوشات أولئك الزوار وقرع كؤوسهم في الأماسي.

لابد أن أشير أخيرا قبل أن أختم حديثي عن كورتينا، أن هذه البلدة التي يحتضنها الدولومايت هي أول منتجع جبلي إيطالي يستضيف الألعاب الأولمبية عام 1956، ومذ ذاك صارت قبلة النخبة العالمية في السياحة.

**الفصل الثاني:**

**ميلانو**

**حارس ميلانو**

**في عاصمة الأمير**

الطريق إلى إيطاليا طويلة، ونحن في عوز إلى الوقوف على جزء مهم من الإرث الحضاري المرتبط بالرحلة المأمولة، فليس ما نتوق إليه هو تراب إيطاليا وطبيعتها الفاتنة وعمائرها وحسب، ولكن إلى روائع فنونها التي لا حصر لثرائها، وبعضها موزع على متاحف أوروبا وعلى رأسها اللوفر في باريس. فعصر النهضة الذي بدأ في إيطاليا انتقل إلى فرنسا التي رحّبت بأنواره، واستقبلت مبدعيه وكبيرهم الفنان العالم ليوناردو دافنشي الذي انتقل إلى فرنسا، ولقي وجه ربه في شاتو دو كلو، مخلفا وراءه للملك الفرنسيّ واسطة عقد اللوفر وتاجه: الموناليزا، والتي يبدأ بها الذكر الجميل ويختم.

استجاب هيرمس لنجوى رق لها قلبه، فأعارنا صنادله المجنـّحة، بعد إقامة في باريس تشاكلت لياليها فبدت طوالا كليل العاشقين، انتعلنا الصنادل المقدسة في نهار شتائي ميممين شطر الأسطورة وفنونها وأبطالها الخالدين، وفي توقنا أن يكون أول من يخرج لنا باريس بطل طروادة ابن الملك بريام الذي قضى للربة فينوس بأنها الأجمل لقاء مكافأته بأجمل امرأة في الدنيا، مما أحنق هيرا وأثينا فعاد الأمير بهيلينا الإسبارطية لتملأ مخدعه في طروادة، وبالحرب التي جلبت على وطنه الويل والدمار والتي دارت رحاها عشر سنين. قصدنا اللوفر، وذهبنا لتحيّة الأمير الطروادي الذي خرج من رأس دافيد، وكذلك الإمبراطور المتوّج – نابليون - الذي كان له الفضل في تحويل إيطاليا من مجرّد لفظ إلى أمّة؟ وعرجنا على روائع الأعمال للتزوّد بأكسجين الفنون ونواصل رحلتنا إلى كعبة النهضة حيث تختطف الأبصار.

ها هي إيطاليا تنادينا، أن تعالوا وادخلوا بيت الجمال الذي لا يفنى، وبالصنادل المجنحة نفسها انتقلنا في غمضة عين من عاصمة الأنوار لنهبط في متحف فنون أوروبا، ويا لها من أعطيات شائقة، ولحظات تبهر الأنفاس: ليوناردو حارس ميلانو ينتظرنا عند باب حجرة طعام دير القديسة ماريا ديلي غراتسي ليكشف لنا عن بعض أسرار لوحة "العشاء الأخير"، وفيفالدي يقف أمام كاتدرائية سان ماركوس يستعد وفرقته لعزف بعض فصوله الأربعة، وجولييت ستقص علينا من خبر روميو شيئا فوق شرفتها في فيرونا، وراعوث أم النبي؟ تمسح رؤوسنا في قدس أقداس متحف الفنون المعاصرة في بولونا، والسيّدة مونتاجو تحضّر لنا القهوة الإسبرسّو على الطريقة الجنويّة، وبايرون يعدّ سفينته البوليفار ليأخذنا في رحلة عبر خليج الشعراء برفقة شيللي، وليس أخيرا كاروزو الذي وعدنا أن يغنّي لأجلنا ثانية في مدينته نابولي: "أو سالا ميو".

**عِقْدُ «الفلورنسيّة» وأصابع أجدادي**

من متاحف «ميلانو» الرائعة متحف «بولدي بيتزولي»، وهو قصرٌ لجامعِ تحفٍ ثري اسمه «جان جاكومو بولدي بيتزولي» أوصى أن تقدّم تركته من اللوحات إلى أكاديمية «بريرا»، أمّا المبنى فلقد تضرر كثيراً أثناء الحرب العالمية الثانية، وهو مشيّد وفق الطراز الكلاسيكي الحديث، وافتتح في عام 1951. ويشتمل على العديد من القطع الفنية الرائعة لِطَيفٍ من الفنانين.

فهل تتجوّل في «بولدي بيتزولي» من دون أن يعبر إليك «بوتشيللي» بعمله الرائع: "نحيب على المسيح الميت مع القديس"؟ أو عمله الآخر "مادونا والكتاب"؟ أما «مادونا» التي جعلها ساندرو بوتّيشيللي تنهض ببهاءٍ وتحدِّق فيمن يتطلّع نحوها، فلفظ اسمها يتألف من مقطعين أولهما (ما) بمعنى أداة التملك لي، وثانيهما (دونا) بمعنى السيدة. وهناك لوحة «ساحة في بادوفا» لكاناليتّو، أما تشيما كونيليانو، فله «زفاف باخوس وأريانّا». ومن الأعمال التي يفخر المتحف باقتنائها تمثال «لورينزو بارتوليني»، ويمثّل مراهقة عارية تتعبّد.

والعري في هذا العمل تمثيلٌ للروحِ البشريةِ التي تضع ثقتها في المولى. وبالطبع، لا يخفى على المشاهد ما في هذا العمل من أيروسية. ولقد أثنى النقاد كثيراً على هذا العمل وحاز على إعجابهم. ولبارتوليني تمثال آخر لا يبتعد كثيراً عن هذا التمثال، سبق لنا رؤيته في متحف اللوفر، اسمه «الحورية والعقرب».

لا يقتصر المتحف على الأعمال الفنية، ففيه مجموعة نادرة من أنواع الساعات، والأسلحة، إضافة إلى بعض المقتنيات المتحفية الأخرى.

وبالرغم من توفّره على هذه المجموعة الواسعة والفريدة من الأعمال والمقتنيات، إلا أنّ ما ظل يناديني ورفيقة دربي لنتردد عليه مرارا كلما زرنا المدينة هو صوت تلك السيدة المجهولة

التي ابتدعتها ريشة فنان معاصر لدافنشي «أنطونيو دِلْ بولّايولوPollaiolo Antonio del ، وعاش بين عامي (1498-1431). وتأخذني الريبة في كون السيّدة المجهولة كانت حقاً بخيلة عندما لم تسدّد ثمن اللوحة لأنطونيو فظلّت في عالم المجهول.

بت على يقين أن هذا المتحف إنما تمّ تقطيره في لوحة واحدة، وأنّ الجمال جرى تكثيفه، ليسكن لوحة "السيدة المجهولة".

كلما رمقت عقد اللؤللؤ الذي ازدانت به ضفائر سيدة اللوحة وجيدها، كلما استجمعت الحسرة أطرافها في صدري قبل أن أطلقها زفيراً طويلاً، فأقول ربما كان لأسلافي يدٌ فيه، بل لعلها اليد الطولى، ولعلهم انتخبوا لهذه السيّدة الفلورنسيّة الغامضة حبات عقدها من خليجهم الأزرق: شهورٌ من الكدح الذي يجعل الأجساد خيطيّة ضامرة، يستيقظون فجراً، ولا ينقطعون عن معانقة الماء حتى غروب الشمس، ويتعللون من الطعام بأقله، فلا تدخل جوفهم سوى حباتٍ قليلة من التمر وبعض القهوة، كل هذا في سبيل أنْ يجمعوا حبات ذلك العقد.

آه كم كابدَ أجدادنا من أجل تزيين هذا الجِيد الفلورنسي، وكم شغلت أصابع في ثقب هذه الحبّات لتبعث البهجة في نفس هذه الفلورنسية البخيلة، فقضوا ولم يَفز أحدٌ منهم ولو بنظرةٍ منها.

**دافنشي الشجرة الراسخة الجذور**

يقف نصب «ليوناردو دافنتشي» بشموخ قبالة مبنى دار أوبرا أسكالا في ميلانو. أشاهد المعلّم وتلاميذه. كان جوفانّي أنطونيو بولترافيو Giovanni Antonio Boltraffio» النبيل تلميذ «ليوناردو» أكثر تلاميذ الأستاذ المعلم موهبة. أمّا «ماركو دي أوجّونو Marco d'Oggiono» فقد كان له الفضل في بقاء لوحة العشاء الأخير حيّة، لا لشئ إلاّ لأنه نسخها مراراً، بينما راحت ألوان الجداريّة تتفسّخ في دير القديسة ماريا ديللا جراتسي، أي مريم الرحيمة، أثناء حياة «ليوناردو» نفسه.

والآخر «تشيزارِهْ دا سيستو Sesto Cesare da كان يحاول عبثاً محاكاة الأستاذ. وأخيراً أندريا سالايينو Salaino Andrea الذي يقول عنه ليوناردو: الشيطان، والولد الوسخ، لأنه عمل لدى ليوناردو منذ كان في العاشرة، أي منذ نعومة أظافره، ولقد صوّره «ليوناردو» عارياً في لوحة «باخوس»، كما يزعم بعض الخبراء أنّه هو «الموناليزا» ذاتها. وحده «ملزي» الذي غاب عن هذا الجمع؛ أتساءل لماذا غاب «فرنشيسكو ملزي» الذي أوصى له «ليوناردو» بلوحة الموناليزا وباقي أعماله الفنيّة، وبكل دفاتره، ومخطوطاته، ومختبره العلمي كذلك.

أقف أمام التمثال المتواضع الصنع لـ«ليوناردو دافنتشي» الذي أنجزه «بييترو ماني» عام 1872 في ساحة الـ«ديللا سكالا» وأقول: كان الأجدر أن تعكف عليك أنامل «مايكل أنجلو» (لو لم يكن خصمك) أو أنامل «بلليني».

في غرفة «ديلِلهْ أسِّهْ» في الجناح الشمالي من قلعة «سفورتسيسكو» الشامخة في «ميلانو»، كما في مطبخ الرهبان في دير القديسة «ماريا ديللا غراتسيا» تشعر بحضور طاغ لروح الفنّان «ليوناردو دافنتشي».

ففي هذه الغرفة عكف «ليوناردو» على رسم ثماني عشرة شجرة "موروس" (التوت الأسود)، تلك التي جذرها في الأرض وفرعها في السماء، والتي تحاكي أصل الأمير «لودوفيكو إل مورو» وسلالته.

ففي 21 ابريل 1498 أخليت هذه الغرفة ليشرع الفنان في إنجاز مشروعه الجديد على أن يتمّه في خمسة أشهر، وهكذا كان، ولكن ما إن حلّ إبريل 1500 حتى كانت دولة آل سفورتسا أثراً بعد عين.

فلقد وافت المنيّة الأميرة «بياترس» وهي في فترة مخاضها في 3 يناير 1497، أما الأمير لودوفيكو إل مورو فقد نفي إلى فرنسا، مروراً بأستي وسوزا وليون، حيث وصل في 2 مايو/ أيار. لويس الثاني عشر ملك فرنسا، على الرغم من إصرار الإمبراطور ماكسيميليان على إطلاق سراح لويدوفيكو، رفض الامتثال لهذه الطلبات بل وأهان الدوق السابق، ورفض استقباله رسميًا، مع الاستمرار في معاملته كسجين خاص، مما سمح له بالذهاب إلى الصيد ولاستقبال الأصدقاء. في الشتاء التالي، عندما مرض لودوفيكو، أرسل ملك فرنسا طبيبه الخاص لعلاجه، مع قزم البلاط للترفيه عنه.

تم حبسه لأول مرة في قلعة بيير- سكايز، ونُقل إلى قلعة سان جورج بالقرب من بورجيه، فقلعة لوش في عام 1504، حيث كان لا يزال يتمتع بمزيد من الحرية حتى محاولته الهروب في عام 1508، عندما شعر ملك فرنسا بالإهانة من مبادرة سجينه الخاص، أمر أن يُحبس في برج القلعة وحرمانه من جميع امتيازاته. هنا توفي لودوفيكو في 27 مايو 1508.

أقف في قلب غرفة ديلِلهْ أسِّهْ ويداي تتقرّيان جدار الغرفة بلمس، هنا عاش المايسترو خمسة شهور متواصلة، هنا وضع مخططات الرسم، هنا صب الألوان، هنا رسم، هنا كان يبني جسراً للزمان بينه وبين من سيزور هذه الغرفة لمئات من السنين المقبلة.

**مدونات ليوناردو كودكس أتلانتك**

لا القلعة التاريخيّة مقر ملك آل سفورتزا، ولا كنيسة سانتا ماريا ديللي جريسي ولوحة العشاء الأخير التي لا ينقطع عنها الحجيج، ولا متحف بولدي بتزولي وما ضمّ من لوحات عظيمة وجواهر نادرة، ولا مبنى لاسكالا (دار الأوبرا)، ولا حتّى الدومو (كاتدرائية ميلانو) يضاهي الكنز القابع ببيناكوتيكا (معرض الفنون) إمبروزيانا، سميّت باسم إمبروزي مطران ميلانو في القرن الرابع وراعي فنّها، إنّه الكودكس أتلانتك، سمّي كذلك لأنّه مجلّد كبير على هيئة أطلس جمع 1119 ورقه من رسوم ليوناردو دافنشي وكتاباته.

في نهار ربيعي مشرق زرت المعرض، وطفت على لوحات تيشان، كلوحة تعظيم المجوس، وهي لوحة تظهر ملوك الفرس الثلاثة وقد حفّوا بالمسيح مباركين، ولوحة مريم المجدليّة الشهيرة، ولوحة المسيح يودع في القبر، ولوحة رجل في درع، وكذلك بعض أعمال برناردينو لوينا، تلميذ ليوناردو، كلوحة العائلة المباركة مع القدّيسة آن والقدّيس يوحنّا، ولوحة بركة المسيح، ولوحة الطفل عيسى والحمل، وشاهدت كذلك مخطط مدرسة أثينا بالرّصاص لرافائيل، وصولاً إلى لوحة سلّة الفاكهة لكارافاجيو، وما أن انتهيت إلى المكتبة التي تضمّ بعض نماذج من مخطوطات ليوناردو حتّى شعرت بفرح غامر، تأملت الرسوم التخطيطيّة والهوامش للحفّارة الميكانيكيّة، ولماكنة البناء، ومضخّة الماء بمسمار أرخميدس، والجناح الميكانيكيّ، والفرن، والرجل الطائر في قمرة للحماية، وخريطة إقليم رومارانتن، وخريطة أوروبا، ورسوم الحفارة العملاقة. لقد فرغ ليونادرو من وضع تصاميمه التي لم تفعّل إلاّ بعد مضي قرنين من الزمن، وشروق شمس الثورة الصناعيّة، ولكنّ هذه التخطيطات والتعليقات فعّلت اليوم في أقراص من الدي في دي اقتنيتها على الفور وخرجت جذلا كمن فاز بصيد ثمين.

**ليوناردو في بلاط الأمير**

**رسالة دافنشي إلى الأمير لودفيكو سفوتزا**

كتب ليوناردو إلى أمير ميلانو لودفيكو سفورتزا رسالته الذائعة الصيت في عام 1482، عن استعداده العمل لديه، حيث يمكنه وضع تصميمات للقناطر خفيفة، قوية تصلح للانتقال بسهولة من ضفّة لضفّة، وصنع المدافع التي تحمل بسهولة، وتصميم السفن التي تستطيع مقاومة النيران، ومكائن حفر الكهوف والطرق السريّة الملتوية دون ضجيج ولو استلزم ذلك المرور تحت الخنادق أو تحت نهر جار، ودبّابات (قبل ظهور الدبّابات)، بالإضافة إلى عمله وقت السلم في العمارة، والفن من نحت ورسم، بحيث لا يقل عمله فيه عن عمل أي إنسان آخر مهما يكن شأنه.

ولعلّ بداية شأنه في ميلانو أنّه فاز في مباراة موسيقية، وليس بسبب ما عرض في رسالته، وذلك بفضل صوته الموسيقيّ وحديثه الطليّ، وبالنغمات الحلوة التي كانت تنبعث من العود الذي صنعه بيده على شكل رأس حصان. ويبدو أن لدوفيكو حين قبله عنده لم ينزله المنزلة التي قدر هو بها نفسه، بل قبل به على أنه شاب نابه لم يكسب من التجارب ما يكفي لأن يعهد إليه بأعمال الهندسة العسكرية، ولكنه يستطيع أن يعد الحفلات التنكُّرية في البلاط، والمواكب في المدينة، ويزخرف ثياب الزوجة أو العشيقة أو الأميرة، وينقش الرسوم والصور الملوّنة على الجدران. ولم يكن ليوناردو قد تجاوز الثلاثين من عمره بعد.

لم يكن في الرسالة التي بعث بها ليوناردو وهو في سن الثلاثين إلى لدوفيكو نائب الملك في ميلانو شيء من التردد، أو الإحساس بضيق الوقت الذي لا يرحم، بل كل ما كانت تفصح عنه هو مطامح الشباب التي لا تقف عند حد، هي مطامح تغذيها قوى مطردة النماء. لقد نال كفايته من المقام في فلورنسا، واشتدت رغبته في رؤية أماكن ووجوه جديدة. وكان قد سمع أن لدوفيكو في حاجة إلى مهندس حربي ومعماري، ومثال، ومصور، وقال في نفسه إنه سيتقدم بهؤلاء جميعا مجتمعين في شخص واحد، ومن أجل هذا كتب رسالته ذائعة الصيت.

**سيدي الأجل الأفخم:**

*لقد اطلعت الآن اطلاعا كافيا على جميع البراهين التي يتقدم بها كل أولئك الذين يحسبون أنفسهم أساتذة في أدوات الحروب ومخترعيها، وأمعنت النظر فيها، فتبين لي أن اختراع هذه الآلات واستخدامها لا يختلفان في شيء عن الآلات والطرق التي تستخدم الآن. وقد جرأني هذا على أن أتصل بعظمتكم دون أن أبغي قط الإساءة إلى أحد غيري، لكي أكشف لكم عما عندي من الأسرار، وأنا على استعداد، أن أشرح لكم شرحا وافيا في الوقت الذي يناسبكم، جميع الأمور التي أوجزها في هذه الرسالة:*

*1- لدي تصميمات للقناطر خفيفة، قوية تصلح للانتقال بسهولة من ضفّة لضفّة   
2- إذا حوصر مكان ما، فإني أعرف كيف أقطع الماء عن الخنادق، وكيف أقيم عددا لا يحصى من السلالم لتسلق الجدران وغيرها من الآلات.*

*3- لدي طرق لصنع المدافع التي يسهل حملها، والتي يمكن بها إلقاء حجارة صغيرة بطريقة تضاهي نزول البرد.*

*4- وإذا اتفق أن كانت المعركة تدور في البحر، فإني أعرف كيف أصنع كثيرا من الآلات التي تصلح كل الصلاحية لأغراض الهجوم والدفاع، والسفن التي تستطيع مقاومة نيران أثقل المدافع، والبارود والدخان.*

*5- ولدي أيضاً وسائل أستطيع بها الوصول إلى أماكن معينة بحفر الكهوف والطرق السرية الملتوية، أحفرها دون ضجيج ولو استلزم ذلك المرور تحت الخنادق أو تحت نهر جار.   
6- وأستطيع أيضاً صنع عربات مغطاة آمنة لا يمكن الهجوم عليها، تستطيع الدخول بين صفوف العدو المتراصة المزودة بالمدفعية؛ وليس ثمة فرق من الجنود المسلحين مهما عظمت قوتها لا تستطيع هذه العربات تحطيمها. وتستطيع فرق المشاة أن تزحف خلف هذه العربات دون أن تصاب بأذى ودون أن يستطيع العدو مقاومتها.*

*7- كذلك أستطيع إذا دعت الحاجة أن أصنع المدافع، ومدافع الهاون، والمدافع الخفيفة، بأشكال غاية في الجمال والمنفعة، تختلف كل الاختلاف عما هو مستعمل منها الآن.   
8- وحيث يتعذر استخدام المدافع، أستطيع أن أمدكم بمجانيق، ومنغوليات، وقذافات وغيرها من الآلات ذات القوة العجيبة، وليست شائعة في الوقت الحاضر. وقصارى القول أني أستطيع أن أزودكم في مختلف الظروف التي تدعو إليها الحاجة بعدد لا يحصى من آلات الهجوم والدفاع المختلفة الأنواع.*

*9- وأعتقد أنني أستطيع في وقت السلم أن أرضيكم بقدر ما يرضيكم أي إنسان غيري في فن العمارة، وفي إنشاء المباني العامة والخاصة، وفي نقل الماء من مكان إلى مكان.   
10- أستطيع فوق ذلك أن أصنع التماثيل من الرخام أو الصلصال، كما أستطيع التصوير بحيث لا يقل عملي فيه عن عمل أي فنان آخر مهما يكن شأنه.*

*وسأقوم فضلا عن هذا بعمل الحصان البرنزي الذي سيضفي مجدا خالدا وشرفا أبديا على الذكرى الطيبة للأمير والدكم وعلى بيت اسفوردسا العظيم.*

*وإذا ما بدا لأي إنسان أن أحد الأشياء السابقة مستحيل أو غير عملي، فإني أعرض استعدادي لتجربته في حديقتكم أو في أي مكان ترون عظمتكم أن أجربه فيه، وأتقدم لكم بأعظم آيات الخضوع والولاء.*

*التوقيع*

*ليوناردو دافنشي*

**السيدة والسمور**

بانتقاله إلى بلاط أمير ميلانو، نفذ دافينشي إلى عالم من الرفاهية والامتيازات، وظهرت عليه النعمة، وهو ما حير أنداده من الفنانين وعلى رأسهم مايكل أنجلو الذي طالما تساءلك من أين يأتي هذا الرجل بالمال؟!

حال دافينشي تشبه حال سيسيليا غاليراني التي خلدها في لوحته "السيدة والسمور". فكلاهما أصبح جزءا من نسيج هذا القصر، وحاشية ذلك الأمير، ودليلنا على ذلك المزرعة التي أهديت إليه من الأمير، وتقع مقابل كنيسة سانتا ماريا ديلا غراتسي التي رسم فيها لوحة العشاء الأخير. تلك المزرعة التي طالما ترددت عليها وتناولت القهوة في مقهى صغير فيها، أهداها ليوناردو في وصيته إلى سالاي أحد تلاميذه المخلصين.

يسعفني هنا في وصف تلك الفترة من حياة دافينشي ما دونه تشارلز نيكول في كتابه "رحلات العقل":

*لم تكن أولى مهمات ليوناردو المعروفة الموكلة إليه من لودوفيكو إل مورو (أمير ميلانو) في مجال الهندسة ولا المعمار، بل كانت رسم عشيقته الشابة الفاتنة، سيسيليا غاليراني. كان هذا الأمير يميل إلى اعتبار طرائده من الإناث، مثل إناث الوعول السارحة في أراضي صيده الخاصة، مباحة له مهما كان شعورها حيال المسألة، فأي شابة تقع عليها عيناه تعرف أنّ هذا الصائد مدخلها إلى عالم العطايا والنعيم لها ولعائلتها. ولدت سيسيليا في أوائل عام 1473، وكان والدها فازو موظفاً حكومياً عمل سفيراً لكلٍ من فلورنسا ولوكا، وأمها مارغريتا بوستي، كانت ابنة لدكتور مجاز في القانون. فهي من أسرة ميسورة الحال، ولكنها ليست على درجة كبيرة من الثراء، توفي والدها وهي في السابعة من العمر، ولها ستة أخوة يكبرونها، كانت طفلة مرفهة نسبياً.*

*في الرابعة عشر من العمر بدت ذكية، ومثقفة، وستصبح مستقبلا راعية لعدد من الكُتَّاب من بينهم الروائي ماتيو بانديللو. ويستشف من القصائد والرسائل التي كتبت عنها، أنّها كانت على قدر رائع من الجمال، ولكن لم يعد لكل تلك الإهداءات ضرورة، فقد أغنى عنها وجودها في لوحة رسمها لها ليوناردو- ونستعير هنا تعبير دافينشي نفسه، فهي تعرف باسم اللوحة "السيدة والسمور".*

*ندين للشاعر برناردو بيللينشيوني بأولى الإشارات إلى لوحة ليوناردو، في رسالة شعرية، بلهجته الممجدة للطبيعة:*

**أيتها الطبيعة، كم أنت غيورة**

**من فينشي الذي صور نجمة من نجومك،**

**الحسناء سيسليا، التي يستحيل نور الشمس**

**أمام عينيها الساحرتين ظلاً كالح السواد**

**وهب أنّك، بقدر جمالها وما في قلبها من حياة،**

**ستنالين من المجد على مر العصور**

**ومن أجل ذلك قدِّمي آيات شكرك للودوفيكو**

**ولعبقرية ليوناردو وأنامله..**

**فكلاهما شاء أن تراها الأجيال القادمة.**

*وصورة سيسيليا ذات طابع إيروسي، فاليد التي تداعب الحيوان المكسو بالفراء ذات إيماءة إيروسية، وزينة ردائها- عصابة الرأس الذهبية، والرباط الأسود، والوشاح المعقود، والعقد- كلها تشير إلى القيود، حالة الأسر المترف التي ترفل بها المحظية.*

*استحضرت فقرة في الأطروحة حول الألوان، حيث كان ليوناردو يبرهن على أنّ الرسام يمتلك القوة ذاتها التي يتمتع بها الشاعر "لإشعال جذوة الحبِّ في الرجال"- كان يجعلهم "يقعون في حب لوحة ما".*

**إسبريسّو في الربع الخالي**

 ما همّ إيطاليا، إذا كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي هو أول من راح يقدّم القهوة على طريقته، أو ذاك الراعي الذي كان يراقب أغنامه التي دبّ بها النشاط وهي تأتي على الحبوب الحمراء المتساقطة من تلك الشجرة المباركة، إنمّا المّهم أنه ما إن قبض " لويجي بيتسيرا" على حفنة من ذلك الزمرّد حتّى ألقاه في آلته البخاريّة الحديثة الصنع عام 1903، لابتكار أوّل فنجان "إسبريسّو" في ميلانو. ثلاث رشفات أو أربع لا أكثر، هكذا أرادها الإيطاليّون، الذين يقولون: "أريد قهوة" ويعنون بها الاسبريسّو.

ثمّ طوّروا "الكابتشينو" فيما بعد، وهي قهوة مع الحليب، فـ"الكافي لاتيه"، وهي تتكون أساسًا من القهوة والحليب، فـ"الكورّيتّو" أي الممزوجة بالبراندي أو الغرابّا، فـ"الكوفي فريدّو" أي القهوة الباردة، فالكافّيه "لوُنغو"، أي الإسبريسّو المخفّفة، فـ"الماكياتو" أي مع الحليب المسخّن بالبخار، فـ"الريستريتّو" وهي الإسبريسّو الثقيلة. وأظنّهم عازمون على المضّي في إبداع قائمة لا نهاية لها من الأسماء.

في مقهى "زوُكّا" الذي وقفنا فيه وقفة البدّوي على الأطلال، فانبعث طيفا "فيردي" و"توسكانيني" يحتسيان الكامباري أو الكامبارينو، الشراب التي اشتهر به المكان، وددت لو دعوتهما إلى زيارتي على رأس عرقوب في محاضر "ليوا" في الإمارات في ليلة شتاء لأضيفهم فنجان قهوة مزاجها الهيل، نشعل الغضا لها حطبا على الطريقة السديريّة:

**يا بجـاد شـب النـار وادن الدلالـي واحمس لنا يا بجاد ما يقعـد الـراس**

**ودقّه بنجـرن يـا ظريـف العيالـي يجذب لنا ربعن على اكـوار جـلاّس**

**وزلّـه ليا منـه رقـد كـل سـالـي وخلّـه يفـوح وقنـّن الهيـل بقيـاس**

ما الذي كان سيحدثه فنجاننا ذاك على موسيقى الهاون والرشاد يعزفها نشميّ هذّبته البادية، نشأ على حلوة رعيٍ واحتلابي[[4]](#footnote-4)، في روح الموسيقار، لو عادت بنا عجلة الزمان مئة عام إلى الوراء.

آلات الإسبريسّو القديمة المنتشرة في بعض مقاهي "ميلانو" تحمل اسم "لا بافوني"، فرحت أسأل: أين ذهب "لويجي" (لويجي بيتسيرا) صاحب الآلة؟

 فعلمت بعد لأي وعناء، أن التاجر "بافوني" كان أول من جرّب فنجان الإسبريسّو في دار المخترع، فاشترى براءة الاختراع عام 1905، وسرق عصا الساحر التي راحت تقدّم فناجين القهوة، كلّما حرّكتها يد القابض إلى يومنا هذا.

**شقيق المسيح وأضاحي روما**

أقلّنا سائق تاكسي كان مشدودا إلى متابعة مباراة في كرة القدم عبر الراديو بين فريقي ميلانو ولاتسيو. كان بوسعنا أن نرى النتيجة على محيّاه، ويبدو أن رياح المباراة لم تجر كما تشتهي سفن لويجي، فلقد انتهت بتعادلهما بهدف لكل منهما بالرغم من أنها كانت جارية على ملعب السان سيرو الميلاني العريق. أراد السائق أن يبدّد توتره بالحديث معنا فبادر إلى سؤالنا: هل تتابعون المباريات؟ فقلنا له: لدينا أمور أخرى تشغلنا. ثم قلت له: أي الفرق تشجّع؟ فقال: أنا مع برلسكوني، وأي فريق يملكه برلسكوني سأحبه واشجّعه، لا أعرف ماذا يريدون من الرجل، يقولون عنه أنه زير نساء، ما العيب في ذلك، ويقولون أنه أصلع، ويمكنني أن أؤكد لك أنني أحب الصلع، بل وعلى استعداد لأن أهبه ضفائري، يارجل، وأضاف أقسم بالله أن برلسكوني هو شقيق المسيح نفسه، فلا تصدّقوا ما يثار حوله، وها أنا أتابع المباراة حبا بشقيق الرب.

\*\*\*

ذكرتني المحادثة السالفة بمحادثة في روما عندما سألنا سائق تاكسي يقلّنا إلى وجهتنا: ما رأيك ببرلسكوني؟ أجاب على الفور وكأنه كان يتحرّق لسماع هذا الإسم: أنا من محبيه، وكان برلسكوني قد تعرض قبل أيَام إلى اعتداء بالضرب في حادثة مشهورة، فقلنا له: وما تقول في شأن اللكمة التي سدّدها أحدهم فأسقط بعض أسنانه، فقال وكانت تبدو عليه بعض الحماسة: ليتني كنت أنا من سدّد له تلك اللكمة! فانتابتنا الدهشة لجوابه. وقبل أن نستوضح قصده أردف مسرعاً: كنت سأحظى بشرف تسديد لكمة إلى ذلك الصدغ المبجّل.

\*\*\*

تداعت أحداث هذه الحكاية إليّ ونحن نستقلّ السيارة مع باتريتسيا كورادو عارضة الأزياء الميلانيّة التي ذاعت شهرتها في الثمانينات، كان صاحبي يقتعد الكرسي الخلفي مع باتريشيا، فسألت عن المدة التي يستغرقها السياسي في دورة انتخابية واحدة في إيطاليا، فأجابت السيدتان إنها خمس سنوات، وقد تتضاعف عشر مرات حتى تبلغ الخمسين عاما، يكون السياسي خلالها قد أكل الأخضر واليابس، فالسياسيون يتستّرون على بعضهم في منظومة محكمة، مثل عصابة تسعى أول الأمر إلى تأمين مصالحها ومصالح عوائلها، أما الشعب فلا يطال سوى غبار صولاتهم .

توقفنا على الطريق لتناول كوب قهوة، قالت الميلانية على مقربة من هنا تقع إربا وهي بلدة خاملة إلى تحولت في ضحى ليلة ليلاء إلى اسم يتصدر صحف إيطاليا والعالم، ففي العام 2006 إلقي القبض على أولاندو رومانو وزوجه بتهمة ارتكاب أربع جرائم قتل ضحية إحداها طفل في الرابعة من العمر. ومما نشرته الصحافة أن الزوجين كانا يدفنان الضحايا في حديقة البيت. فأي أذى نال سكان هذه البلدة من هذين الزوجين، وأي بؤس أن يلوث مكان بجريمة كهذه. وأردفت ليتها ظلت خاملة الذكر.

تابعنا سيرنا وسألت عارضة الأزياء الميلانية عن بعض الشخصيات السينمائية الإيطالية التتي أضاءت سماء طفولتنا، فكانت نجومنا المحبوبة، ترنس هيل، وبود سبنسر، ولاندو بوزانكا وجوليانو جيما، وآخرين غيرهم، فقالت: كانوا نجوما في سمائنا أيضا، والجماهير تقبل بشغف على أفلامهم، والسينما الإيطالية منتشرة وفتية، لكن هذه الصناعة باتت تشكو الكساد، ونجوم ماضيها ودعت سماءها وانطفأت. علمت في ما بعد أن ترانس هيل قضى في حادث سير سنة سنة 1990، عن 84 عاما، ومثله جوليانو جيما الذي قضى في حادث سيارة على مقربة من روما عن 75 عاما. لاندو بوزانكا عاش طويلا ولكنه عانى في أواخر حياته من الاكتئاب بسبب وفاة زوجته، ثم تردت صحته ومات على إثر عثرة عن 87 عاماً. أما بود سبنسر فتوفي بسلام سنة 2016 عن 86 سنة.

هنا قالت العارضة الميلانية، سالتني عن النجوم، وماذا عن الممثلات الإيطاليات من هن النجمات اللواتي شعفت بهن في ذلك العهد؟

قلت: على رأس الهرم صوفيا لورين، فكلوديا كاردينالي، فلورا انتونيللي، وجينيا لولو برجيدا، وأورنيلا موتي. صوفيا لورين مازالت تتربع مازالت تتمتع بحضور لافت وصحة جيدة. وكذلك كلوديا كارديناللي التي بلغت الثمانين، ولورا أنتوتيللي التي تألقت في السبعينات والثمانينات، وجينا لولو برجيدا التي امتد بها العمر فتجاوزت التسعين، وأورنيلا موتي التي تنعم اليوم بصحبة فلاديمير بوتين وصداقته.

كنا في طريقنا إلى كوربيتّا القريبة من ميلانو للقاء الفنّان «جوليانو جريتّيني» وكانت باتريسيا تسير بسرعة تزيد على 160 كلم، وكادت مرارا أن تفقد السيطرة على سيّارتها الصغيرة في طريق تسلكه الشاحنات، فقلت لصاحبي أن يسألهما إن كانتا تؤمنان بفكرة تقديم الأضاحي. فقالتا أي نوع من الأضاحي؟ فقلت لهم: تلك التي يدفع بها الإنسان عن نفسه شرّ البلاء، كالذبائح، فقالت باتريشيا: كنّا نفعل ذلك فيما مضى، ولكنّها عادة لم يعد معمولا بها، ووافقت باتريسيا وقد انعطفت بالسيارة تفاديا من صدم سيّارة أبطأت قليلا، قائلة: نحن نؤمن بها ولكن لا نذبح حيوانا، بل يمكننا أن ندفع مالا.

التفت صاحبي نحوي وهو يحتفظ بابتسامة تتخللها بعض الحيرة: لماذا سألت مثل هذا السؤال؟ فقلت وأنا أحاول أن أكتم ضحكتي: لقد نذرت في سرّي أن أضحّي بأضحية إذا عدنا من هذه الرحلة سالمين.

**سندريللا والرأس القوقازي**

قصدنا مساء يوم رائق باليه "سندريللا" التي ألّف موسيقاها الروسي سيرجي بروكوفييف (1891- 1953)، أو "الصبي المتمرد" كما أطلقوا عليه بسبب أن النقاد في تلك الفترة تعاملوا مع مؤلفاته باعتبارها جديدة متقدمة على عصرها، وأطلق على باليه "سندريللا" السمفونية السادسة. كتب سيناريو العرض نيكوليا فولكوف، وتُعدّ الباليه من أشهر مؤلفات بروكوفييف الذي احتفت به روسيا فجعلت من 2016 عام موسيقاه. لما له من حضور قوي في الجسم الموسيقي في روسيا والعالم.   
و"سندريللا" كما هو معروف إحدى أشهر المؤلفات الموسيقية التي ألهمت العديد من مصممي الرقصات منذ أن عرضت للمرة الأولى عام 1945 في مسرح "البولشوي".

ومن أبرز شخصيات الباليه سندريللا"، وهي بطلة حكاية مشهورة جدًا ذات أصل شعبي حيث يتم الإساءة إلى فتاة ظلماً من قبل زوجة أبيها وشقيقاتها، التي تلتقي بمساعدة جنية بأمير في حفلة في البلاط، فيقع في حبها ويتزوجها. أدت دور "سندريللا" اليساندرا فاسالو، أما الأمير، فلقد لعب دوره ماركو أدوسينينو. ثم يأتي بعد ذلك ضلع الباليه الثالث المتمثل بالأم وابنتيها، وهو دور فيه ضرب من السخرية المحببة والناعمة.

ولعلّ استبدال الحذاء بالقميص في الباليه جعل من سندريللا وكأنها تعبر قوس ذاكرتها وتدفعنا إلى إعادة تركيب الأحداث في داخلنا، واستبدال الحذاء البلوري الذي استمدت الحكاية تسميتها منه إلى قميص أحمر، جعل مكابدات الأم في إلزام ابنتيها على ارتدائه تبدو، على رغم مشقتها، مضحكة، وفيها جانب من السخرية المرة، لكنها شفافة في آن معاً، فلا تجد في نفسك ميلاً إلى بغض أحد من هذا المثلث (الأم وابنتاها).

فالأم المتسلطة كان عليها أن تذعن أخيراً وتقرّ أن القميص لا يناسب إلا ابنة زوجها "سندريللا".

لم ينغّص عليّ العرض سوى رأس قوقازيّ انتصب على كتفين شاهقتين، وكان يتمايل يميناً وشمالاً، مثل بندول بشري عملاق. لذا، يصحّ القول إنني لم أشاهد إلا نصف الباليه، ونصف القميص ونصف مؤامرات زوجة الأب لصرف أنظار الأمير عن صاحبة القميص.

في صباح اليوم التالي ابتهجت لسماع أغنية "كتلاني" من أوبرا "لاوالي" "إذن فلأرحل بعيداً". كان العرض الأول لهذه الأوبرا الخالدة في المبنى ذاته لاسكالا في العشرين من شهر يناير 1802.

لكم انت كريمة يا ميلانو فحيثما وليت وجهك ثمة جمال ينعش الروح ويبهج الحواس.

**في جنّة فيردي**

لم يكن عالم الأوبرا قبل فيردي يعرف إلا البطل والبطلة وهما قطبا رحى العمل الأوبرالي، وكما ذكر ذات مرة صديقنا محسن سليمان: كان الأمر مقتصرا على بضع أغانٍ تشتهر بها الأوبرا، ربما واحدة أو اثنتان، يؤديهما البطل أو البطلة أو يشتركان معا في غنائها، أما الخاتمة فكانت لا تخرج عن أمرين، فإما فراق أو انتحار.

ولكن كان لظهور فيردي في ظرف تاريخي استثنائي وفي مرحلة شكّلت انعطافة في بنية العمل الموسيقي، بل وفي بنية ومسار الفنون بعامة، الأثر في جعله يستقرئ تاريخ الأوبرا ويتوصّل إلى ثيمة جديدة تتقاطع مع ذاكرة الأعمال السابقة، بأن جعل الكورال بطلا، والكورال يشتمل على مجموعة كبيرة من المؤدين قد تصل أحيانا إلى المئات.

كان الكورال في أوبرا نبوخد يمثّل شعب إيطاليا وإنْ ألقى مجموع جوقته على أجسادهم أسمال اليهود المنفيين إلى بابل، كانت مرثية إرميا وسفر فجيعته تتلامح في أصواتهم. كانوا يصلّون في هذا الكورال الباذخ من أجل حريتهم وحنينهم إلى الوطن الذي جعله نبوخد نصر خرابا. إنه شبيه بالفردوس المفقود، وكانوا يغنون أنشودة حنين إلى الوطن تقطر أسى.

الجمهور ذاته يغني مع الكورال، وهو الأمر الذي جعل فيردي بين ليلة وضحاها معبود إيطاليا. لأنه عبّر عن اعتزازهم وفخرهم بوطنهم الممزق، فلقد أشعر الإيطاليين بروح التآزر والإنسجام بعد الحقبة النابليونية وما تلاها من تمزق في الروح والجغرافيا التي تنازعتها مجموعة من الأسر والحكومات المحلية.

حطّمت أوبرا نبوخد في سنتها الأولى الأرقام والتوقّعات، فقد تقاطر المنتجون من كل حدبٍ وصوب للتعاقد مع الموسيقار، وكان في تلك الفترة جيوفاني ريكوردي إمبراطورية نشر صاعدة في أفق الموسيقى تحلّق بجناحٍ عملاق، ففاز بالعقد وأبرم اتفاقا مع فيردي. لم تكن علاقة جيوفاني بفيردي ذات دوافع تجارية محضة، بل كان فيردي بالنسبة له أستاذا وملهما.

ولو كان الأوركسترال قيثارة فحسب، فلقد كان في وسع فيردي تحريك جميع أوتارها في الوقت ذاته وكأنه يستنهض الكامن من روح الأوتار. هذه عظمة فيردي الذي ولد في عام 1813 في قرية لارونيلي (Laronele) في إيميليا رومانيا، وكانت إيطاليا في ذلك الحين من الدهر تحت حكم فرنسا النابليونية، ومن الشمال كانت في مواجهةٍ مع النمسا وبروسيا.

في كنيسة لجأ إليها زهّاد فرنسيون خشية القتل بعد أن لاحقتهم كتيبة بروسية، اهتدت في تلك البرهة السيدة لويجا أم فيردي إلى طريقة لتجنيب ابنها القتل فوضعته في حجرة برج ناقوس الكنيسة. في ذلك اليوم لم ينج من القتل كل من وقع فريسة لحراب الجنود في بهو الصلاة، فأنقذت لويجا بهذه الومضة التي برقت في رأسها وقادتها إلى أعلى البرج ليس صغيرها فيردي فحسب، بل ونبوخد وعايدة وكل التراث الذي منحه فيردي للعالم.

لا ريب أن هذه الحكاية شكّلت وعي فيردي ودفعت عقل الصغير للتفكّر والسؤال. وكان للاضطراب السياسي أثره البالغ على فيردي، فلقد جعله منذ اللحظة الأولى في مواجهة الشد والجذب والقلق الوجودي المحدق به من كل جانب.

كان بيتهوفن لايزال حيا، وكذلك غوته وروسيني وبيلليني، وكانت روح إيطاليا الممزقة تهتف فيها بين برهة وأخرى صيحة من هنا وهناك فتوقظها، ولا ريب أن ما كتبه غوته في رحلته الإيطالية أعاد بعضا من هذه الروح التي تناوشتها حراب البروس والفرنسيين وأعداء الشمال، وكان روسيني في أوج مجده لدرجة أنه كاد أن يدفع ببيتهوفن إلى الظلّ، قبل أن يكتفي بعد ذلك بسنوات قليلة إلى ما سبق له تحقيقه ويقضي ما تبقى من حياته يستمد المجد من نجاحاته السابقة.

كان والد فيردي رجلا ريفيا غير متعلم ولكن فيه ككل إيطاليّ خريطة جينية معقدة تدفع جانبا من كيانه لينحاز إلى الموسيقى، وعندما عثر في نقطة ما من نفس ابنه الذي لم يكن قد بلغ السابعة بعد على مساحة تتحرك فيها الموسيقى سارع إلى اقتناء بيانو صغير له.

كان فيردي يطيل الوقوف أمام مصادر الموسيقى، سواء تلك التي تنبعث من متجر وحانة أبيه أو تلك التي كان يصغي إليها كلما قصد مع والده مدينة بوسيتو المجاورة ليتبضّعا للدكان، فلقد كانت تخرج على أجنحة ذهبية موسيقى من بيت السيد باريسي رئيس الجمعية الفيلهارمونية في المدينة، فيطيل المكث عند الباب مصغيا بشغف، وذات يوم كانت سوناتا "ضوء القمر" تتسلل من بيت السيد باريسي إلى أذنيّ الصبي الذي أنصت مشدوها، وصادف أن السيد باريسي كان متخذا مجلسه قرب النافذة فشاهد الريفيّ الصغير، وكان قد لحظه عدة مرات من قبل، فخرج وسأل الصبي عن سرّ اهتمامه بالموسيقى، فأجابه الصبي بأنه يحب الموسيقى ويعزف على البيانو، فقاده إلى داخل المنزل وقدمه إلى ابنته الصغيرة التي كان ضوء القمر لا يزال عالقا بثيابها، ثم أرسل فيردي إلى مدرسة في بوسيتو لمدة سنتين، وبعد ذلك وظّفه عنده ككاتب، ثم صار يتلقى دروسا مجانية من عازف الأرغن في الكنيسة، وأخذ يتقدم على نحو حثيث في عمله وموسيقاه حتى بلغ السابعة عشر من عمره، فترك بوسيتو وقصد ميلانو التي كانت تُعد أحد أكبر المراكز الموسيقية في إيطاليا وأوربا، فقدّم مؤلفاته إلى معهد الكونسيرفاتوار. فطالبته اللجنة المشرفة بالعزف على آلتي البيانو والأورغن، فلم يحز على رضاهم، كما أن سنّه عند التقديم كانت قد تجاوزت الحد المقبول بثلاث سنوات، فأصيب على أثرها بخيبة أمل، ولكنه من جانب آخر مكث ممسكا بحظوظه بقوة فشرع بدراسة الهارموني على يد معلم خاص لمدة سنتين وهو يكابد شظف العيش.

بعدها عاد إلى بوسيتو ليشغل وظيفة قائد الجمعية الفيلهارمونية فيها، وكان من مهامه القيام بتأليف المارشات للفرقة العسكرية الخاصة بالمدينة.

وعندما بلغ الثالثة والعشرين من عمره تزوج مارغريتا ابنة السيد باريسي والتي لم تكن قد نفضت عن ثيابها ضوء القمر بعد، وبعد سنوات قليلة انتقل بعائلته الصغيرة إلى ميلانو، ولكن فاجعة موت صغيريه وأعقبهما بفترة وجيزة وفاة زوجته أصابه بحالة من الحزن الشديد، ولم يتمكن إلا بعد عشر سنوات كاملة من الزواج ثانية من مدام ستريبوني، التي كانت تُغنّي أوبراته.

في فترة فجيعته بفقد عائلته لحّن أوبرا وتعرّضتْ لفشل ذريع، ولم يكن قد خرج من حزنه بعد عندما دفع إليه متعهد بإنتاج الأوبرات نصّاً غنائياً لأوبرا بعنوان نبوخد، راجيا منه أن يعكف على تلحينها، وكان نصا تراجيديا تاريخيا يتناول قصة أحد ملوك الدولة البابلية الحديثة نبو خدنصر الذي قضى على مملكة يهوذا وهدم الهيكل وسبى سكانها ونقلهم إلى بابل في عام 587 قبل الميلادـ حسب الوثائق التاريخية.

طيلة ثلاثة شهور، انصرف فيردي المكلوم الفؤاد إلى تلحينها وشعر أنها معادل موضوعي لأحزانه التي بدأت تجد طريقها إلى مراثي اليهود وأسمالهم في بابل. فنجحت نجاحا منقطع النظير في كل مرة عرضت فيها.

لقد شكّل رفضه من معهد الكونسيرفاتوار في ميلانو غصّة وآل على نفسه أن تكون أعماله انتصارا للغرباء والمقموعين، وبعد أن سطع نجمه وأعاد لإيطاليا مجدا قديما كافأته بدورها بأن أطلقت اسمه على المعهد الذي رفض انضمامه.

تأثر فيردي في صباه بأعمال روسيني وبلليني التي كانت في جوهرها امتدادا للمدرسة الإيطالية التي تعتمد على ما كان يُطلق عليه "البلكانتي" أي الأغنيات الجميلة التي تختزل النصّ الغنائي فلا تُستعاد الأوبرا إلا من خلال البلكانتي، فلقد كان للأبطال في تلك الحقبة تأثير كبير في بنية النصّ الدرامي ووصوله للناس، كما هو الشأن مع أغنية "الجنون" لدونيزيني، والتي هزّت مغنيتها في اوبرا لوتيشيا دي لامورمور قلب فيردي حتى تساقط شغفا، وغفر لها قتلها لزوجها في ليلة عرسها، وكانت الأغنية استعراضا باذخا للصوت طيلة خمسة عشر دقيقة كاملة.

أما أوبرا نبوخد التي أطلقت فيردي فلقد كانت انقلابا على ذاكرة الأوبرا كما عرفها الإيطاليون، بل وذاكرة فيردي ذاته، الذي لم يتمكن من الخروج على المدرسة الروسينية طيلة أول 16 عملا من أوبراته، حيث كانت تمثّل أصوات المغنين ما عدا أوبرا إيرناني، التي تمدد فيها خارج الإرث الروسيني قليلا.

كانت مأساة اليهود في نبوخد محاكاة عميقة لمأساة الطليان في ذلك الوقت، فلقد عادت البلاد مقسّمة بعد خروج نابليون منها، وهو الأمر الذي حدا بوول ديورانت إلى التأكيد على أن نابليون كان موحّد إيطاليا، فأخذت مجموعة من القوى الخارجية تمدّ أصابعها في النسيج الإيطالي وتحكمه.

لمس فيردي بحساسيته البالغة أوجه الشبه بين المأساتين ومنحها عذابه الشخصي، فكانت فريدته التي ما زال يُنظر إليها على أنها من بين الصفوة من أعماله بالرغم من الذرى العديدة التي بلغها في أوبراته اللاحقة كعايدة وريغوليتو، والصلوات المسائية الصقلية، ودون كارلوس، وعطيل، إلا أن هناك اتفاقاً على أن أغنية الكورال (فا بانسيرو) يُنظر إليها كأعظم ما تفتّقت عنه عبقرية فيردي، وهو كورال يتناول اليهود والعبيد.

حين شعر فيردي بقرب منيته أوصى بأن لا يخرج في جنازته سوى قسّ وشمعة، وما أن لفظ أنفاسه في الغرفة 106 التي أتردد عليها منذ سنوات في فندق كراند هوتيل دي ميلانو، حتى اجتمع الناس بشموع لا تُحصى وتبع جنازته 200 ألف إيطالي ذوّب فيردي في قلوبهم فجيعة كانوا يردّدونها بصوت واحد وقد ضاقت بهم طرقات ميلانو:

**حلقي يا خواطري بأجنحة ذهبية**

**سافري واهبطي على السفوح والتلال**

**حيث الدفء واللين والعبير**

**يوشي أنسام بلادنا الجميلة**

**حيي ضفاف الأردن وأبراج جبل صهيون**

**آه، يا بلادي كم أنت جميلة ومفتقدة**

**وكم أنت غالية، وإن لم تكوني سعيدة**

**آه، يا قيثارة العرافين النبويين،**

**لماذا تتدلين صامتة من أشجار الصفصاف؟**

**أشعلي الذكريات في قلوبنا من جديد**

**حدثينا عن الأيام الخوالي،**

**شيئا شبيها بقدر سليمان،**

**هبينا نواح الأسى**

**وليلهمنا الله ألحانا هادئة**

**لعلها تعيننا على احتمال الآلام.**

**في غرفة فيردي**

كلما قصدت ميلانو آليت على نفسي أن أقيم في غرفة فيردي في الجناح 106 حيث قضى الموسيقار نحبه وودع دنيانا. وما أن أتّخذ مجلسي فيها حتى أستخرج من حقيبة اسطوانات مدمجة لأوبرات فيردي التي قادها المايسترو العملاق توسكنيني، فترسلُ أنغامها في فضاء الجناح، وتتسلّل في أرجاء الفندق مع ضوء القمر، فينبعث الرجل من مرقده صحبة محسن سليمان الذي كنت أسمع صدى صوته يردّد مع الكورال:

**حلّقي يا خواطري بأجنحة ذهبية..**

فنحلّق معا حتى نبلغ جنّة فيردي.

\*\*\*

تذكرت محسن سليمان وأنا أهمّ بسماع أغنية «فابنسييرو" لــ «فيردي» فلهذه الأغنية ذكرى خاصة عندي، ففي النّهارات الرائعة في غنتوت، دخل محسن وقد شرع الكورال في الغناء.. فسألته: «لمن هذه الموسيقى»؟ فأجابني على الفور: «أليسوا محظوظين من كتب لهم فيردي هذه الأغنية الرائعة؟!»

ثمّ فتح حقيبة الذكريات عن الأوبرا الإيطاليّة وعن «فيردي» تحديداً. عندما غنّى الكورال، استعدت قوله: لم تكن المسألة الدينية جوهر ما يهم فيردي في اوبرا «نبوخذ»، ما كان يهمه هو أن تلك الحكاية نصف التاريخية، نصف الأسطورية أتاحت له أن يقدم موضوعاً ميلودرامياً يُزينه بموسيقى كانت من أروع ما كتب.  ولكن هل كان حقاً في إمكان أحد أنْ يتناول مثل هذا الموضوع في تلك الحقبة، وأن يظل في منأى من الأيديولوجيا؟

مهما يكن من أمر، فإنّ ما أثار الإعجاب يوم قُدِّمَتْ «نبوخذ» في التاسع من آذار/ مارس 1842 في دار أوبرا «لا سكالا ميلانو» للمرة الأولى، كانت الموسيقى هي الحاضرة، وليس الطابع الفكري - التاريخي للنص.

لقد كانت الموسيقى من القوة والتجديد حيث قيل دائماً إنّها هي البداية الحقيقية لمسار «فيردي» الموسيقي، حتى وإن كان كتب الكثير قبلها. أما من الناحية السياسية، فإنها قرنت لاحقاً بكونها دعوة إلى توحيد إيطاليا تحت راية «فيكتور عمانوئيل»، أكثر من أي شيء آخر.

كم من مساءات قضيتها استمع إلى أغاني فيردي الخالدة. ومن تلك الأغنيات الرائعة "النساء المتقلبات"، من أوبرا "ريغوليتو" مطلعها:

**"امرأة طائشة  
مثل ريشة في مهب الريح"،**

**ومن الأوبرا نفسها:**

**"هذه الفتاة أو تلك سواء عندي**

**كما الاخريات من حولي   
ولن أتنازل عن قلبي   
لا لهذه الجميلة ولا لتلك.**

وأغنية "وداعاً أيها الماضي" من أوبرا لا ترافياتا.

**وداعا أيها الماضي، يا أحلام الأيام الغاربة  
ورود وجنتي أدركها الذبول  
حتى محبة ألفرد لا تواسيني ولا تمسح عن روحي التعب  
آه، لو تواسيني وتنعش روحا مرهقة،  
وعسى أن يغفر الله لها ويشملها برحمته.**

**يا للحسرة، كل شيء محكوم بالزوال  
الأفراح والأحزان تتلاشى في الحال  
ويوارى الثرى جميع بني البشر.**

**لن يحظى قبري بدموع أو أزهار،  
ولن يُنقش اسمي على صليب فوق رفاتي.**

**آه لو تواسيني وتنعش روحا مرهقة  
عسى أن يغفر الله لها ويشملها برحمته.  
يا للحسرة، كل شيء مصيره الزوال.**

**زيارة الدومو**

في الصباح صحونا على قرع ناقوس الكاتدرائية، كما صحا الشاعر إزرا باوند ذات صباح في حيّ كينزنجتون الشهير في لندن بصداع نصفيّ، وقال متململا: "حتّى من النافذة، يتسلّل اليّ الدين".

بعد وجبة فطور خفيفة قصدنا الدومو، تأملت البناء الضخم للكنيسة القوطيّة المعمار، وتساءلت كيف فات ليوناردو دافنشي أن يترك بصمة أو أثرا أو لوحة في هذا المعلم الكبير وهو الذي قضى زهرة شبابه في ضيافة أمير هذه المدينة الأسمر (المورو) لودفيكو سفورتزا، أو كيف فات الأمير نفسه أن يقنع الفنان بترك أثر هناك، قلت لنفسي: لقد شغل الأمير ليوناردو –دأب الأمراء والحكّام في كلّ زمان- بتصميم أزياء بياتريس زوجتة، فساتينها، ملابسها الداخليّة، سراويلها، أحذيتها، إكسسواراتها وكذلك حمّامها الفخم في جناح القلعة الشمّاء، القصر الكبير، إن جلّ ما تركه هذا الساحر في المدينة هي لوحة يؤمها الحجّاج من كلّ فجّ عميق اسمها "العشاء الأخير" في سانتا ماريّا ديللي جراتزي أو بشكل أدقّ ما تبّقى من لوحة العشاء الأخير، فالأصل قد تلف في زمن الفنّان نفسه، لأمرين، رطوبة المكان لكونه قاعة طعام الرهبان الذين لا يكلّون عن ازدراد الطعام، وخلطة الأصباغ التي جرّبها في رسم اللوحة، أضف الى ذلك أن الرهبان النهمون أنفسهم فتحوا بابا في جدار اللوحة ذهب بقدمي المسيح ونعله. خلاصة القول أن اللوحة الذائعة الصّيت ما هي الاّ ظلّ باهت للأصل.

تلقيت دعوة من عمدة ميلانو لزيارة القاعة وذلك بعد ياس من تدبير تذكريتي دخول لي ولرفيقتي. فالانتظار يتطلب شهوراً ولابد من طريقة ماـ أو يد مخلصة تقودني إلى حضرة تلك اللوحة. يدخل إلى الزوار لمشاهدة اللوحة أفواجاً ويمنحون زمنا محدداً. قال لي رسول العمدة امكثا في القاعة ما شئتما من وقت فأنتما في ضيافة العمدة.

وفي ما أنا في حضرة اللوحة ربتت على كتفي يد فالتفت، فإذا بشخص أربعيني يبادرني القول: من أي البلاد أنت؟ أجبته، فقال ما الذي دعاك إلى زيارتنا، قلت إنني بصدد كتاب عن رحلتي في إيطاليا. فقال متى تنهي الكتاب؟ قلت ربما بعد عام، فقال: لا يكفي عام، خذ وقتك ليوناردو لم يفرغ من عشائه الأخير الذي تقف أمامه إلا بعد ثلاثة أعوام من العمل. ثم استدار ومضى.

قلت لرفيقتي، ترى من يكون هذا الرجل الذي لم يفصح عن شخصه؟ فهزت كتفيها قائلة: من أين لي أن أعرف؟ قلت إنه ليوناردو.

**سيدتي العزيزة.. إليك فهرس الأسماء**

الطفل الأشقر الصغير في المقعد المحاذي لنا راح ينشر فيروساته على المسافرين في كل اتجاه بمسدس أنف لا يتوقف عن العطس، قلت لصاحبي: كان علينا ان نتزوّد ببعض كبسولات من فيتامين سي. خصلات شعره الأشقر المصقولة كان لي مثلها فيما مضى من الزمان ولكن سوداء.

ساعتان وهبطت بنا الطائرة في مطار ميلانو المتواضع بسلالمه القديمة وأوتوبيسه الحوت، الذي سرعان ما ابتلع ركّاب الطائرة لدقائق ثمّ لفظهم على البوّابة الخروج. بعد جمع الأمتعة أقلّنا سائق المرسيدس الذي كان ينتظر وصولنا بصبر واستقبلنا بلطف. فور وصولنا غسلت عني فيروسات الصبي الأشقر بحمام دافيء استعداداً للعشاء. وجبة عشاء في دون كارلوس تعني عشاء بمعيّة الصديق محسن سليمان ورفاقه الكبار فيردي، فاجنر، فليتا، تترازيني على الطاولة رقم واحد التي أعدّها محسن سلفا لاستقبالنا.

"دون كارلوس" أحد أروع المطاعم الإيطاليّة واحبّها إليّ، قال صاحبي. كانت موسيقى فابانسييرو "**أيتها الأفكار الشاردة**" تندلق في أسماعنا كعطر فواح قديم، يكاد كورال الصور التي تزيّن جدران المطعم أن يردد وراء كل مقطع: الله الله.

وفي رنين الكؤوس تناهت إلى الأسماع أغنية الشراب في لا ترافياتا

**فلنرتشف كؤوس الراح المبهجة**

**ما دام الجمال مزهرا.**

**ولنجعل الساعة الهاربة سكرى كما تشاء**

**فلنشرب عند تلك الكنانات العذبة**

**التي يريش سهامها الحب.**

النادل سيموني الذي استقبلنا أول العام عرفنا هذه المرة على الفور، "كنتَ قد وعدتنا بزيارة دبي" سأله صاحبي، بينا راح هذا يقدّم إلينا كأسين من البريسّيكو، "لم يكن طفلي ذو الأربعة شهور يطيق السفر "أجاب سيموني، "الآن وقد تجاوز العام، صرت أتطلع لفرصة السفر إلى بلدكم".

محسن سليمان يدير قرص الجرامافون ليحيّينا باغنية الشامبانيا لموزارت من أوبرا دون جيوفاني الشهيرة. قال محسن: "لو طرق بابي شخص وفتحت له الباب وكان بيتهوفن سانحني رافعا له القبعة. إنما لو كان الطارق موزارت لوقعت مغشيّا عليّ". آه يا محسن، كان عليّ أن اشقى سنينا لأعرف انّ علّة تلك الوقعة او الغشية التي انتابتك ما كانت الاّ لأن بيتهوفن لم يكتب في حياته المديدة إلاّ اوبرا واحدة هي فيديليو، بينا راحت مخيلة موزارت، على قصر عمره، تغدق تسعا وثلاثين أوبرا تحتلّ خمس منها مرتبة أكثر الأوبرات عرضا في العالم، لقد استلّ ملك الموت روح الموسيقار وهو لم يناهز السادسة والثلاثين من العمر. وكان وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة يهذي قائلا: "الهدوء الهدوء لقد حان دور ملكة الليل لتؤدي أغنيتها".

سأل صاحبي عن طبق الديك المشوي اللذيذ الذي تناولناه أول هذا العام ولا يظهر في قائمة الطعام الليلة، فرد سيموني أنّ بإمكانه ترتيب ذلك مع الشف (الطبّاخ) في الغد بشكل خاص، فطلبنا منه حجز الطاولة رقم واحد لعشاء الليلة القادمة مع الرفاق.

محسن يقلب قرص الجرامافون ويصرّ على إسماعنا أغنية "سيّدت

ي العزيزة إليك فهرس الأسماء" من أوبرا دون جيوفاني. عدنا بعد سهرة طيّبة إلى جناح واليس سبنسر دوقة وندسور لتقصّ علينا أنباء إدوارد الثامن، وما الذي دعى هذا العاشق الذي ما كاد أن يتوّج ملكا على بريطانيا في 20 يناير 1936 حتّى راح يضع التاج عند أخمص قدميها ويتنّحى عن الحكم في 11 ديسمبر من العام نفسه.

**ثقافة المائدة**

**عشاء في لوجو دي إيمو إي ناديا**

لا تكتمل لوحة إيطاليا على خارطة السائح من دون الخوض في الحديث عن المائدة، إنها ثقافة شديدة التميز، وتدخل فكرة المواسم وما تجود به الأرض من خضار وفواكه وعطريات في هذه الجهة أو تلك من البلاد في تشكيل تلك اللوحة الثرية. لكل مدينة حصتها في إثراء المائدة، ولا يغيب عن الذواقة ذلك التنافس في ما بين العائلات التي تدير المطاعم في ابتكار الأطباق، ووضع اللمسات المميزة الخاصة بها.

لوجو تعني بالإيطالية منزل أو بيت، وإيمو وناديا هو اسم مالك المطعم وزوجته، وهو مطعم لا يزال يدار من قبل هذه العائلة منذ نحو خمسين سنة ويقع في غرب ميلانو.

يراهن المطعم على كونه دارة ثقافية، فعندما تقصده تجد نفسك في مواجهة إرث ثقافيّ لعائلة فتحت بيتها على جمهور يكون في الغالب نخبويا. أو لنقل بعبارة أخرى أنك عندما تدلف إلى المكان تجد نفسك قصدت مطعما نهضت في أرجائه روح البيت حتى تعانقاً معا. تحفل جدرانه بأعمال تشكيلية معاصرة، وتتفق إدارته في بعض الأحيان مع فرق مسرحية محلية لتقديم عروضها في الدارة. أما وجباته فهي مستمدة من المائدة الإيطالية، وتحديدا الميلانيّة منها بأطباقها الموسمية بطريقة يمتزج فيها التراث بالحداثة، والتقليد بالابتكار.

بعد سنوات من العمل، لم يعد في وسع السيد إيمو أن يعمل في المطبخ، لكنه بين الفينة والأخرى يحيّي رواد المكان ويؤكد لهم أن كل شيء على طاولاتهم انتخب على عينه.

استقبلتنا ستيفانيا بترحاب حار وهي تشير إلى الفريق الذي يعمل في الدارة بدءا بكبير طهاتها اليساندرو ومعاونيه، فابيو ونيكولا، وماريو وفدريتا ودومنيكو. هذه الأسرة الصغيرة بتقاليد بيتها الميلانيّ العامر لا يسبقها أحد إلى مجد الصدارة في ايطاليا.

سبق لستيفانيا أن زارت أبو ظبي للمشاركة في فعالية للتعريف بمطابخ العالم، والطريف أنها وصلت وهي تحمل معها قرابة 20 كيلو من الجزر، وهو الأمر الذي أثار استغراب القائمين على الفعالية. فما تنتخبه من مواد تدخل في إعداد وجباتها يجب أن يكون مختاراً من جغرافيا محددة ومن باكورة موسمها، الذي قد لا يمتدّ لأكثر من أيام، أو أسابيع قليلة في غالب الأحيان.

دار حديث بيننا وبين ستيفانيا التي تعمل طيلة اليوم بلا كلل، أخبرتنا، أن طائفة من النقاد الشباب الذواقة انتخبت المطعم كأحد أفضل المطاعم في ايطاليا، وتوصل هؤلاء إلى هذا الرأي لحرص إدارة المطعم في إعداد الوجبات على اختيار أجود المواد من لحوم وأسماك وخضار ونباتات موسمية.

لم تتمكن ستيفانيا من أن تخفي تبرّمها وشعورها بالضيق لكونهم لم يتحدّثوا عن تلك الطاقة السحرية غير المرئية، وعنت بها الروح التي يبذلها ويذوّبها الطاهي في أطباقه. لأن قوام الطبخ، كما عبّرت، يكون في "النَفس" ووحده الطاهي يعرف كيف يقبض عليه ويبثّه في طبقه.

فالعائلة التي تدير المطعم تشعر باعتزاز وفخر بما تنتجه الأرض الإيطالية التي تزخر بتنوّع بيئي وثقافي جعل وول ديورانت يصفها بقوله "إن هذه الجبال التي تمتد من شمال ايطاليا إلى جنوبها ببراكينها التي أزهقت أرواحا عديدة، منحتها أخصب تربة، وهو ما انعكس على صنوف الأطعمة والأشربة من الشمال إلى الجنوب".

حاولت ستيفانيا العمل على تلطيف التقرير الذي أعدّه النقاد الشباب دون ان تثير حساسيتهم بالرغم من ضيقها وتبرمها الداخلي، فالدارة فيها خليط متجانس على نحو كبير من الاحترام والحب والشعر، وكلّ ذلك يُحاك في نسيج واحد.

ما عليك إلا أن تلقي نظرة على قائمة الطعام ولن يرتد بصرك حسيرا، بل ستجد مدوّنا فيها وجاهزا للتقديم أفخر ما يميّز المائدة الإيطالية من أطاييب وأنبذة اختيرت بعناية فائقة.

زيارتك دارة إيمو ناديا ستجعل الروح الإيطالية تنبض على مائدتك، وتحملها معك اينما حللت، فهل من مزيدٍ على ذلك؟

**والآن إليك ما انتخبته ستيفانيا لرواد مطعمها في ذلك المساء:**

الروبيان "الأرجواني" من سانريمو نيء/مطبوخ، مع الخرشوف وخبز التارالو الطري.

الحساء "الإتروريّ" بخضروات الموسم، والبقوليات، وحبوب قمح الفارو التوسكاني الكاملة، والأعشاب العطرية، وزهور الشمر البري المجففة.

تلك هي الرافيولو! محار طازج مقرمش من البحر الأدرياتيكي، مع مارملاد الليمون.

جبن السكارموزا المدخَّن، وغرانيتا الشمندر.

مكرونة اسباجيتوني المصنوعة من سامولينا الحنطة الصلبة (كافاليري) مع خلاصة الأنشوجة التي تشتهر بها مدينة سيتار عليها طبقة من اللفت والبندق البيدمونتي، وكريم الترافل الأبيض.

تورتيلي محشو بالعظم الغني بالنخاع، من العجول البيدمونتية، ونخاعه مع التخفيف من تركيزه بنكهة الزعفران السارديني والبارميزان.

طبق لحم متن العجل في بانيه كمبوت البابونج والبصل الأحمر الخفيف.

جزر من بوليغنانو مع جبن التاليغو.

الحمُّص المطحون من بوليا، والهندباء البرية، وخلاصة التين، وبصيلات اللامباشيوني مطبوخة في العسل، وزيتون نولشي وبسكوت موستاشولي.

سمك البوري الأحمر المطهو بالبخار وصغار سمك الحبّار يقدم مع عصير اليوسفي، وسلطة الهندباء مع تتبيلة خل عسل الروزماري.

سباجيتي من سيمولينا الحنطة الجافة (كافاليري) مع البصل الأخضر وصلصة الفلفل الحار، وزيت الزيتون والريحان من ليوريا.

حلوى "تيراميسو" الجنوبية. الزبادي وكريمة الماسكربوني، وبسكويت القهوة بنكهة الريكوتا مع البرجموت والكبر الصقلي الملبس في العسل.

**مطعم جاكومو أرِنْكاريو**

كل وقت أقضيه في التعرف على ألوان جديدة من المائدة الإيطالية، يعيد إلي ذكرى وقت أسبق لي معها وخبرة استجدت، وهو ما يجعلني أستعيد الآن مساء شتائيا في ميلانو عندما حملتني وأضيافي سياط برد يناير ولسعات زمهرير الشَّوْلَة على اللجوء إلى مبنى متحف الـ 900 بواجهاته الزجاجية العملاقة، وقد أطلقنا العنان لأقدامنا في صعود لولبيّ على درج مطعم «جاكومو أرنكاريو»، واخترنا طاولة تطلّ على ساحة «دومو» في ميلانو. وميلانو عاصمة إقليم لامبارديا تتمتع بواحدة من الغرائب التي لا يمكن أن تصادفك في مكان آخر، فهي على الرغم من وقوعها في قلب وادي بو، في وسط الطريق إلى نهر بو جنوباً والبحيرات وجبال الألب شمالاً، إلا أنها تُعدّ أكبر سوق لتجارة السمك في إيطاليا، فيؤتى إليها به من كلّ بحرٍ، قبل أن يوزّع على المدن الإيطالية الأخرى.

وأنت في ميلانو، لا يفوتنّك العجل الميلاني المسمّن برفاهية، والمهدى إليهم من النمسا، أو الرز بالزعفران، وهو ضرب منه لا يشاركها فيه أحد، يُزرع في بيَمونتي ومانطوفا، ويساوي وزنه ذهباً، وهو الأمر الذي يتمدّد خارج المجاز اللغوي، عندما يُقدّم إليك متوّجاً بشريحة من الذهب.

هاهي الحياة تدب في ساحة دومو بوجل يليق ببرد يناير الذي يعرف طريقه إلى مسالك الجسد، فيهزّه هزًّا عنيفاً وكأنه يُذوِّب بعضاً من جسمه فيه، أو يوزّع جسمه في جسوم كثيرة تشكّل ماراثون البرد الميلانيّ.

في هذا المطعم طلبنا طبق التونة ترتار، وسلطة القباب والأفوكاتو ولحمة فيسوني، وهو عجل عرفت الرفاهية طريقها إلى لحمه فصار لا يحتاج إلا لثلث ما تحتاجه اللحوم الأخرى من وقت لينضج.

تبادلنا حديثاً مع نادل طاولتنا دانييل، كان يقدم ساقاً ويؤخر أخرى ويداه تصفّ الأطباق عندما حانت لحظة قال فيها: إنه من برج الميزان، ثمّ عدّل طبقاً آخر على الطاولة قبل أن يسحب يده ويردف قائلاً: إنه برج الباشوات. وصمت لبرهة قبل أن تنفجر إحدى الجالسات معنا بضحكة مدويّة لم تتمكن من حبسها، ولم تتوقف حتى أرسلت عيناها الدموع. رغبت أن أتبيّن السبب في هذا الضحك الذي لا يبدو أنها ستكفّ عنه، خصوصاً عندما بدأت كلماتها تصلنا مقطّعة الأوصال، تطوعت زميلتها بالشرح: إنها تقول: إذا كنت يا دانييل من برج الباشوات حقاً، فما عليك إلا أن تثبت ذلك بعمل خصم على فاتورة الحساب.

عمل دانييل في بقاع وجغرافيات تتوزّع مشارق الأرض ومغاربها، ولم يبقَ له من باشويته سوى الميزان، فقلت: لعلّ الجوزاء كانت تسكن قبة السماء حينما وُلد، فانحرف عنه المجد.

قال أحد الجلساء لدانييل: صديقتنا الضاحكة تسألك إن كنت مستعداً لتخصم من فاتورة الحساب على ما درجت عادة الباشوات؟ عندها رمقنا دانييل بنظرة حانقة، وتنقّل ببصره هنا وهناك، ثم أدار لنا ظهره من دون أن ينبس بكلمة، وخاصمنا خصاماً عتيداً كخصام الباشوات. أسوق ما جرى بوصفه من طرائف التواصل مع الندل الذين يعاني بعضهم من هواجس كونهم في غير أمكنتهم، فكان يمكن أن يكونوا من ذوي الشأن، وهذا لا ينفي أبداً أن البعض الآخر منهم لطالما كانوا لطفاء وقانعين بأدوارهم في الحياة.

**في ضيافة الملك**

لم يستقبلنا النادل سيموني في دون كارلوس فقط، بل ديكان توسكانيّان على طبق شهيّ، هزّ الطرب جمهور الوجوه المعلقة على جدران المطعم لقرع الكؤوس، همس أحدهم وقد هيأنا الشوكة والسكين: "بون ابتيت". كان وجه الموسيقار بوتشيني الذي قضى شابا في أوج مجده يطل من الحائط بينما راحت موسيقاه تملأ فضاء المكان بأغنية شجية من أوبرا "توسكا":

**النجوم تتلألأ**

**والأرض تفوح عطرها**

**البوابة تهمس بصريرها،**

**وآثار خطى خفيفة على الرمل**

**ها هي تطل مفعمة بالطيب،**

**وترتمي بين ذراعي**

عدنا لقضاء ما تبقّى من الليل مع السيّدة الجوزاء واليس سبنسر التي قضت في 24 ابريل عام 1986، بصمت لا يليق بضوضاء الثالث من يونيو عام 1937 يوم كتب عقد قرانها على إدوارد الثامن الذي تخلّى لأجلها عن تاج الإمبراطوريّة وكانت آنذاك – لا تغيب عنها الشمس -، عندما كسر صاحبي الكأس تلك الليلة همست واليس: لا بأس، فأنتم في ضيافة الملك.

**ميلانو بلد ركلّ وأكل**

لم يكن مطعم فون في ميلانو الحائز على نجمة ميشيلين ذو جوّ استثنائي، خصوصاً لمّا تتحوّل الطاولة المحاذية لعروس وعريسها إلى إذن صاغية، ولكن حسب المطعم أنّ النجمة الوحيدة أتت بالعجب العجاب. الشيف أندريا أبريا من نابولي قدّم لنا كانبي عجينة القواقع وشطيرة الزيتون بالبرتقال، وجبنة الستاشينو بالبابريكا، كما قدّم صحن الطماطم بالموزيريللا مفككة كعقد انفرطت لآلئه، فما على حلمات لسانك سوى إعادة نظمه، وجبنة الموزيريللا بيضاء كيد موسى، بسمفونيّة الطماطم والخبز مع البستو وقليل من الأنشوفي الذي يضعك أمام لغز يصعب فكّ شيفرته. وكذلك طبق الفيتوشيني مع البيض والترافل مشفوعاً بسمك التيربوت، وطبق الحبّار ديافولا ستايل أي بطريقة الشيطان وذلك لأنه مشبّع بالبهار.

كانت الموسيقى التي انبعثت من سمّاعة الهاتف لمّا قال لي موظف الاستقبال في فندق جراند هوتيل إتدي ميلان لحظة من فضلك، رائعة بحقّ، وراح يرتّب حجزا في مطعم سيتا القريب، إنّها آرية غلوك الرائعة، الناقوس من اوبرا لاكميه، أمّا مطعم سيتا فقد استقبلنا فيه الشيف أنتونيو جويدو بكل ودّ وترحاب، وهو أجمل ما تجود به ميلانو من جوّ يليق بمطعم، كما أنّه منح نجمة ميشيلين قبل أن يكمل افتتاحه عامه الأول، قال صاحبي: سيظفر بنجمة ثانية قريبا، وكان نجم ذلك العشاء همبرت بطل رواية لوليتا الذي انتقل مع دولوريس من طاولة في ناحية مكتظّة إلى طاولة تقابلنا في الخلوة التي أعدّت لنا، وظلّ يختلس القبل مع فتاة الإثني عشر ربيعا، في لعبة "ما طعم هذه الملعقة"؟

كانت جولي النادلة إبنة الأسد كريمة كلبؤة، وكذلك طالعها الأسد، لا تكفّ عن تلبية طلباتنا، ولمّا قرأنا طالعا وجدنا تقاطعا في النحوس بين الزهرة والمريخ، فنصحناها أن تطوّل بالها مع من تحب، ووعدتها في نهاية الوجبة أن أرسل لها تقريرا عن خارطة الميلاد في صباح الغد، وهكذا فعلت. أدارت دولوريس كامل جسمها وظلّت تتابع حديثي مع جولي، ولعلّها أرادت هي الأخرى من يقرأ طالعها، قدّم أنتونيو أطباقا أضافت إلى روعة الجوّ لذة الطعام. وفي مطعم تيراتزا جاليّا في فندق إكسلسيور جاليّا، هبّ سيموني مرحبّا وهو النادل الطيّب الذي كان يعمل في مطعم دون كارلوس، وقال: مكانكما محفوظ في القلب، فقلت:

**وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنّان كلّ الظنّ أن لا تلاقيا**

قال سيموني: يشرف على مطعمنا فيتّوريو نفسه، وكان فيتّوريو على طاولة قريبة فأقبل يحّيينا، وقدّم لصاحبي الرز بالجمبري.

**كاتدرائية ميلانو**

**تمثال القدّيس نابليون**

يقف تمثال القدّيس نابليون في كاتدرائية ميلانو قبالة "القصر الملكي"، ويظهر شابا يرتدي ثيابا قديمة الطراز، برجلين أثقلتهما القيود، والقدّيس نابليون شخصيّة مبتكرة في الأزمنة الحديثة، وأصل الحكاية يعود إلى عام 1805 عندما أرغم نابليون الكورسيكي بعد فتحه المدينة الأساقفة بتتويجه أمام الكاتدرائية ملكا على فرنسا وإيطاليا، ولمّا اندحر الإمبراطور فيما بعد، قام الكاردينال كابرارا الذي كان قد حضر التتويج باختلاق قصّة شهيد عذّب في العصور القديمة يحمل الاسم ذاته نابليون، بعثه الله من جديد في صورة الكورسيكي المحتل واسمه ليتوّج ملكا، جزاء له على إيمانه وصبره.

**طقوس الصعود إلى المسمار**

يعتقد المسيحيّون أنّه لمّا أنزل جسد يسوع المسيح عن الصليب، خلعوا المسامير، وأنّ القديسة هيلانة جمعت المسامير، سواء من عند المؤمنات الفتيات اللواتي شهدن الصلب أو من ذويه، ويؤمنون أنّ أحد المسامير الحقيقية التي استعملت في الصليب محفوظ في كنيسة الصليب المقدس بروما، وآخر في كاتدرائية ميلانو وقد أعطي منها للملك فيليب الثاني كأثر ثمين.

ويزعمون أنّ الملكة التقية كانت في خطر الهلاك في البحر الأدرياتيكي بسبب زوبعة شديدة، فألقت أحد المسامير في البحر فهدأت الأمواج في الحال. ونقرأ عن القديس قسطنطين الكبير أنه وضع أحد المسامير في التاج الثمين الذي كان يلبسه في أيام المناسبات الرسمية، ولحمايته أثناء الحرب. (تبيّن لاحقاً أنّ تاجه كان من الفضّة). وتقام طقوس الصعود إلى المسمار في ميلانو كل أوّل سبت ما قبل 14 سبتمبر وهو يوم صيام الميلانيين، وتعود أصول هذا التقليد إلى أكثر من أربعة قرون.

أتذكر الآن ما كتبه امبيرتو إيكو: لو جمعنا كل قطعة من خشب الصليب الموزعة في كنائس إيطاليا لكان حريا بالمسيح أن يكون قد صلب على غابة.

**فوق سقف كاتدرائية ميلانو**

تصطف فوق سقف كاتدرئية ميلانو تماثيل لا شأن لها بالدين، ولا بالكاتدرائية، ولا بطقوسها، وهي لمشاهير من عشرينات القرن المنصرم. هناك ملاكمان، أحدهما "بريمو كارنيرا" وهو أول ملاكم إيطالي يظفر ببطولة الوزن الثقيل في الملاكمة، والثاني هو "إرمينيو سبالّا" وهو أول إيطالي يفوز ببطولة أوروبا في الملاكمة قبل أن يتحوّل إلى التمثيل؛ وهناك أيضا بعض الرؤوس المختلفة الأشكال، لعلّ الرأس ذا الشعر المجعّد هو رأس "موسوليني" في زهرة شبابه، ورأس يمثّل الموسيقار "أرتورو توسكانيني". ولا يمكن لمشروع فنّي في أيّ بقعة من إيطاليا أن يتم دون أن يكون للملك "فيتّوريو إيمانويل الثاني"، موحد إيطاليا، فيه نصيب.

وتشاهد أيضا مجسّمًا لخوذةٍ رومانيّة، ومضربين وكرة للتنس، وأخرى للركبي، وبعض أدوات تسلق الجبال، وكل ذلك محاولة لإسباغ عالم (إنسانيّ) على الكاتدرائية.

**مزولة الكاتدرائية**

تلاحظ عندما تدلف إلى الكاتدرائية من بابها الرئيسي عموداً نحاسياً منصوباً على الأرض، يمتد من الجنوب إلى الشمال، ثم يستمر مرتفعاً على الحائط لمسافة ثلاثة أمتار، لينتهي بلوحة تصور برج الجدي الفلكي.

في القرن الثامن عشر الميلادي، كانت مقاطعة لومبارديا جزءًا من الإمبراطورية النمساوية، وكان قد صدر مرسوم إمبراطوري يحدد أن، ابتداءاً من 1 ديسمبر 1786، يجب الامتثال لـ "توقيت عبر جبال الألب" (أو التوقيت الفرنسي)، استنادًا إلى "منتصف النهار الحقيقي". تم تكليف عالمين من علماء المرصد الفلكي في بريرا، جيوفاني أنجلو دي تشيزاريس (1749-1832) من لومبارديا، وغويدو فرانشيسكو ريجّو (1745-1804) من ليغوريا، بمهمة بناء مزولة شمسية داخل كاتدرائية ميلانو.

ما زالت المزولة تتمتع بدقة كبيرة، وهي توجد تحت قبة الجانب الأول من المعبد إلى أقصى اليمين (فوق نافذة جانبية) وهي النافذة التي يمر عبرها شعاع الضوء الذي يمثل عقرب الساعة.  ويرتفع حوالي 24 متراً فوق مستوى سطح الأرض، كما يمكن رؤية هذه الفتحة من الخارج عندما تصعد إلى السقف. وفي منتصف النهار يلمس الشعاع القادم عبر النافذة شريط النحاس الذي نحتت بجانبه أبراج الفلك على الرخام. والبرج الذي يتم فيه ذلك التوافق يعتمد على الوقت من السنة.

عندما تم تركيبها في البداية - أصرت السلطات الكنسية على هذا الموقع بالقرب من البوابة حتى لا يتداخل العمل مع الخدمات الدينية- وكان هنالك موظف مسؤول عن الخروج إلى فناء الكنيسة الأمامي والتلويح بعلم صغير حالما يرى قرص الضوء يمس شريط المزولة.

وهناك موظف آخر موقعه فوق برج ساعة "ميلانو" في قصر المستشارين القانونيين يقوم بالتلويح برايته حتى يتسنى للموجودين في قلعة سفورتزا رؤيته، حيث يقوم ثالث بإعطاء الإشارة لإطلاق قذيفة تعلن انتصاف النهار.

**اليساندرا لم تعد في اليساندرا**

في الطريق على كارارا

بعض أسماء المدن الإيطالية مضلّلة، فبعد وجبة غداء في مانويلي ذهبنا إلى كارارا، حيث جبال الرخام التي عكف عليها مايكل أنجلو، فلقد خرج من رحم كارارا وفيها كان بيته ومن أحجارها خرجت تماثيله ونُصُبه التي بهرّ بها العالم. كان عاشقا لرخامها وحصاها ولم يبغض طيلة حياته سوى حجر واحد. أُثر عنه قوله: على شغفي بالحصى والحجر فإنني أمقت حصاة كليتي. أردت أن أفاجئ صاحبي بكارارا وأحجارها وآثار الرجل الذي كانت أصابعه تجوس حياتها بأزاميله، وإذا بالمفاجأة تأخذني أكثر مما أخذت صاحبي، فمبنى موقف السيارات كان موحشا، وجدرانه تعجّ بخربشات الجرافيتي التي تمثّل في أحد وجوهها رسائل برقية تسعى إلى تدوين ما يجول في خواطر شبابها المتمرد.

تركنا أبصارنا تتنقّل بين السطور، وإذا بنا أمام مدينة يستبد بها الغضب ولا تنتصب على الرخام، بل كانت تنتصب على مرجل عملاق يغلي بها فتطفح حرائقه على السطح في هيئة كتابات جرافيتي.

لدى خروجنا من المكان، وجدنا أنفسنا أمام جمهرة من الوجوه التي تتفرس بنا بنهم وربما بغضب مذوّب، وإذا بساحة المدينة مقفرة من الناس والسياح

تجولنا في الأزقة وشعرت بانقباض لكأن الدنيا ضاقت بي على رحابتها، وكما ضاقت فيرار بغوتة ضاقت بي كارارا، شعرت أنني لا أريد أن أقضي وقتا أطول هنا. كأنها مدينة خرجت على ذاكرتها وتمددت بعيدا عن أصابع العلم الذي أهدتها لإيطاليا والعالم والذي راح يجوس حيوات أحجارها. إنها بلد طارد. وقلما انتابني مثل هذا الشعور في مدن إيطاليا.

ومع ذلك لابد أن أذكر هنا أن الصورة ليست كلها قاتمة فالعزاء أن أحد أوائل حاملي نوبل للآداب والذي حظي بها سنة 1906 هو الشاعر جوزيه كادوتشي ولد على مقربة من هنا، وشعره عاطفي ووطني، اشتهر بقصائده التي عكست توق الإيطاليين إلى الوحدة.

**آه يا أرض الآباء**

**آه يا إيطاليا العزيزة الخالدة**

**حيث الحياة هي حلم الشباب**

**والروح تصبو إلى السمو عبر الزمان المكان**

**والفن ينشر أشعته في السماء الصافية**

في اليوم التالي قررنا زيارة بيت التحف التي يُطلق عليه (مين آرت) في مدينة فيرجلو، قصدناها قادمين من ميلانو، عبوراً بحقول الرزّ في بيمونتي، مررنا على مدينة اليساندرا، وهناك فاح عبير الرز وبلغنا ضوعه الزكيّ، إنها الحقول التي تحتضن أفخر أنواعه، والرز فيها على أصناف عدة وزراعته عريقة في إيطاليا، فلقد استورده قدامى الرومان أول الأمر من الهند، ولكن استعمالاته اقتصرت على الطب، فكان يمثّل قيمة علاجية، أما الحصول عليه فكان دونه خرط القتاد لفرط مشقته.

لم تعرف إيطاليا الرز خارج العملية الطبية إلا بعد أن قام آل سفورتزا بالتشجيع على زراعته، ومع هذا مكث محدودا في كمياته وأنواعه حتى منتصف القرن التاسع عشر، ولم لم يكن معروفا من أصنافه على نحو واسع إلا نوعا واحدا اسمه نوسترالي.

وفي عام 1938 شاعت زراعته وتعددت أصنافه بعد قيام أحد القساوسة الجزويت واسمه كاليري باستقدام 43 صنفا فانتشرت زراعته في وادي (بو) وهي منطقة في شمال ايطاليا، حتى باتت تغطّي مساحاته المغروسة زهاء 400 ألف هكتار. ويفتخر الأيطاليون با لكارنورولي بوصفه افخر الأصناف هو النوع الذي تنتخبه مطاعم ميلانو لأطباقها الفخمة.

أما اليساندرا التي مررنا بها فهي البلدة التي شهدت ولادة عالم السميائيات والإشارات أمبرتو إيكو صاحب كتاب "اسم الوردة" الذائع الصيت، والمتوفى في 19 فبراير 2016.

قالت الصديقة باتريشيا وهي تنحدر من المنطقة ذاتها، لا تغرنّكم اليساندرا فهي اسم على غير مسمّى، فهناك مدن في ايطاليا تقبض على الذهب، وهناك مدن لا تقبض إلا على الغبار، واليساندرا من هذا الضرب من المدن حيث يعلو جرس اسمها على طبيعة الحياة فيها. ثم صمتت لبرهة قبل أن تخرج من ذاكرة المدينة إلى ذاكرة الرز، فقالت إنها تزكّي رز أسكوتو، وهي حاذقة في إعداده، ثم اردفت أنه يحتاج إلى 19 دقيقة لينضج.

عندما وصلنا المتحف استقبلنا المدير وراح يعرض علينا ما بحوزة الدار من نفائس، فاقتنيت مكتبا معشّقا وطقما للشاي من نوع تيفاني وسفينة صغيرة نادرة من الفضة، ثم اشتركنا عندهم لنكون من رواد المكان ولكي نتمكن من المزايدة على القطع الفنية التي تعرضها الدار.

كما زرنا الفنان توماسو رزكوني في منزله في بيرسي أليساندرا، وله تقنية خاصة في تنفيذ أعماله، اقتنيت عدة أعمال له من قبل، وهذه المرة قصدته تكليفه بانجاز مئة عمل تمثّل بوسترات لأفلام انتخبتها، وفي نيّتي أن أفتح متحفا بهذه المشاهد التي تشكّل تدوينا بصريا لمحطات هامة أثرت تاريخ السينما.

عندما بلغنا محترفه في المنطقة القصية التي يقطن فيها تمكنا من الوصول بلا مشقة فالبلدة ليس فيها سوى كنيسة وبيت واحد على حدّ قول باتريشيا، هو بيت توماسو دون غيره.

رحب بنا الفنان بحرارة وكانت برفقته زوجته وابنته. احتفى بزيارتنا كثيراً وأراد دعوتنا على العشاء في أحد المطاعم، وسأل باتريشيا عن الزيّ المناسب الذي سيخرج به للقائنا قائلا: هل يكون معطف الفنان مناسبا أم الملابس العادية تفي بالغرض. لم نمكث عنده كثيراً، برهة من الزمن كانت كافية لأقف مبهورا إزاء لوحة لفتاة في الماء، لم أتوان عن اقتنائها. ثم شاهدت عملا نفّذه لأورنيلا موتي في مشهد من فيلم "حكاية جنون عادي"، وكان بوستر هذا الفيلم أول الأعمال التي كلفته بانجازها.

بسبب ارتباطنا بموعد على العشاء ودّعناه وعدنا أدراجنا إلى ميلانو في طريق يُعدّ من أشقّ الطرق التي قدت فيها سيّارتي، لما فيه من تعرجات ولافتقاره إلى المصابيح، وقد راح يهبط بنا نزولا من أماكن مرتفعة وقد بدت خطرة، فكعادة إيطاليا كانت طريقاً تعجّ بالشاحنات العملاقة التي لا ترى ولا يسمع لها صوت. ولم نلقي عصا الرحلة إلا بشق النفس.

**أسرار ميلانو**

**(لُمع)**

أعمال مُصمّم تحف الحديد «أليسّاندرو ماتسوكوتيلليAlessandro Mazzucotelli» مخبوءة في مدينة ميلانو. ولد أليسّاندرو في (لودي) 30 ديسمبر 1865، وتوفي في ميلانو 29 يناير 1938. ألهم الله هذا الفنان بأن ألان له زبر الحديد، فصبّ تحفه في مدينة الفنون هذه، لتكون متعة للزائرين على مرّ الأجيال.

أيها الميمم شطر ميلانو لا يفوتنك أن تمتع النظر بما صنعت يدا هذا الفنان المبدع.

**جيوفاني باتيستا تيبولو**

في قصر "كليريشي" شاهدنا تحفة "جيوفاني باتيستا تيبولو"، رحلة الشمس عبر السماء الصافية التي يسكنها أرباب الأولمب تحفّ بهم مخلوقات الأرض وحيواناتها (1741)، ولوحة أخرى للفنان نفسه، يبدو فيها هيرمس ابن الإله زيوس (رسول الأرباب) يقود عربته شاقًّا كبد السماء.

إن مشاهدة هاتين التحفتين لتعتبر من تمام أركان الحج إلى ميلانو.

**ثور تورين**

عندما ولجنا جالاريّا معرض فيتوريو إيمانويل الثاني قلت لرفيقتي أتعرفين قصّة ثور تورين الذي يؤمه الناس في صحن المعرض أسفل القبّة الضخمة؟ فقالت، ما قصته؟ قلت يعتقد السياح في إيطاليا أن المرء إذا دعك خصية الثور بكعبه اليمنى ودار ثلاث مرات حول نفسه سيجلب لها الحظ والتوفيق! وأنا على يقين من أن روح مصمّم المعرض جوسييبي مانيوني الساخرة الذي مات إثر سقوطة عن السقف في الأيام الأخيرة من سنة 1877 تجد لها العزاء برؤية جمهور المهرّجين وهم يؤدون رقصاتهم المضحكة.

**الفصل الثالث**

**كومو**

**كومو[[5]](#footnote-5) والنبيل الروماني الكامل**

قصدنا فيلا «دي إستِهْ» الريفي في «تشيرنوبيو» على مقربة من ميلانو، لتناول وجبة الغداء، ودلفنا فيلا الكاردينال «أوتّافيو جاليوس» وصرنا في بهوها فتراءت لنا الساحة المطلّة على بحيرة «كومو».

وما إن بدت كومو تمتدّ أمامنا حتى شعرنا كما لو أننا في الفردوس، جبال مشكوكة خواصرها بمنازل تشرف عليها وتتخللها أشجار الصنوبر. كان كل شيء في كومو متلاحماً وكأنه اتخذ هيئة جسد واحد، أما الماء فكان يعكس صفحة السماء كمرآة، إنها كومو Lago di Como التي اشتق اسمها من اسم المدينة التي كان يطلق عليها الرومان (كوموم)، وهي بحيرة جليدية تبلغ مساحتها 146 كيلو مترا مربعا، مما يجعلها ثالث أكبر بحيرة في إيطاليا، أما عمقها فيزيد على 400 متر (1320 قدما)، وتُعدّ واحدة من أعمق البحيرات في أوروبا.

منذ العصور الرومانية وكومو مركز جذب خلّاب للأرستقراطيين والموسرين، وما زالت ضفافها تحفل بالعديد من الفلل والقصور التاريخية.   
تأخذ البحيرة هيئة حرف yy ويصبّ فيها نهر (أدا) الذي يدخل في البحيرة قرب كوليكو ويتدفق عبرها إلى ليكّو. هذا التشكل الجيولوجي يجعل فرع جنوب غرب البحيرة طريقا مسدودا عند كومو.

ولعلّ السيد الروماني الكامل «بليني» الأصغر كما أطلق عليه «ول ديورانت» هو أحد علاماتها ومواطنيها الذين لا تُذكر كومو إلا ويذكر معها.

عاش بليني الأصغر، المعروف أيضا باسم بلينيوس الأصغر، بين عامي (61 – 112م تقريبًا). ونشأ وتعلم على يدي عمه بلينيوس الأكبر. وشهدا معا ثورة بركان فيزوف في 24 أغسطس 79م.

عمل قاضيا في عهد تراجان، وكان رجلاً صادقًا ومعتدلاً، شغل العديد من المناصب المدنية والعسكرية. ولعلّ خطاباته التي حفظتها لنا مصادر عدة تعتبر أكثر تركاته أهمية، ولقد جُمعت في عشرة كتب، ومن خلالها يمكننا أن نتعرف على حياة وانشغالات الروماني المهذّب والكامل، منها ما تركه من سرد تفصيلي لبركان فيزوف، وكانت موجهة إلى صديقه المؤرخ تاسيتوس، وعرّج فيها على عمه بليني الأكبر الذي قضى في ثورة البركان.

كما تركت خطاباته التي وجهها إلى الإمبراطور تراجان وصفا وتعريفا للنصارى، ولم يكن قد سبقه أحد إلى ذلك.

كان بليني الأصغر لا يذمّ روما، ولكنّه كان أسعد حالاً في كومو. وقال في وصف منزله الريفيّ: إنه من السعة بالقدر الذي يستريح له، وإن نفقاته لا ترهقه؛ ولكنه بعد أن يستمر في وصفه يخيل إلينا أن في هذا الوصف شيئاً من التواضع، فهو يحدثنا فيه عن مدخل من فوقه نوافذ زجاجية وتعلوه طنف... وفيه حجرة جميلة للطعام تعانقها آخر أمواج البحر عناقاً خفيفاً، وتضيئها نوافذ واسعة تطل على البحر من ثلاث جهات فتحسبه ثلاثة أبحر مختلفة، وفيه ردهة كبرى "يمتد بصر من فيها إلى الغابات والجبال"، وحجرتا استقبال ومكتبة على شكل نصف دائرة تستقبل نوافذها الشمس طول النهار"، وحجرة للنوم. وهناك أيضا عدة حجرات للخدم.

وكان للبيت جناح منفصل عنه يحتوي "حجرة استقبال ظريفة"، وحجرة أخرى للطعام وأربع حجرات صغيرة، وحماماً وتوابعه وتشمل "حجرة جميلة لخلع الملابس"، وحماماً بارداً، وحماماً فاتراً فيه ثلاث برك مختلفة حرارتها، وحماماً ساخناً، تسخنها كلها أنابيب من الهواء الحار. وكان في خارج البيت بركة للسباحة، وساحة للعب الكرة، ومخزن، وحديقة متنوعة الغروس، وحجرة خاصة للمطالعة، وردهة للمآدب، وبرج للأرصاد يحتوي على شقتين وحجرة للطعام.

كما يُعدّ بليني من المبكرين الذين تركوا نصوصا عن (الأشباح) في الآداب الغربية الكلاسيكية، من خلال قصة سرد فيها أحداثا تدور في بيت مهجور في أثينا يقطنه شبح هزيل مقيّد بسلاسل ثقيلة، يعمل على تحريكها ليلا فيجلب الصخب والمرض لقاطني البيت، ثم همّ أحد الفلاسفة بشراء البيت متجاهلا كل ما سمع عنه، وفي أحد الايام يفلح بتعقّب الشبح وهو يجرّ سلاله حتى بلغ حديقة الدار واختفى، فأوصى الفيلسوف بحفر مكان اختفاء الشبح وعثروا على هيكل مقيد بالسلاس، فأعاد دفنه بطريقة لائقة وكريمة. ومنذ ذلك اليوم كفّ الشبح عن الظهور.

وهي بلا ريب قصة تشعر بها وكأنها هوليودية، ولطالما أنتجت السينما حكايات وموضوعات تناولت الأشباح بالصورة ذاتها التي كتبها النبيل بليني.

والآن يزورني شبح من الفيلم الإيطالي "إل بيكولو ديافولو" أو "الشيطان الصغير" الذي كتبه وأخرجه وأدى فيه دور البطولة روبيرتو بنيني وشاركه الممثل الأميركي والتر ماثاو. والفيلم يروي قصة قس يستدعى لطرد شيطان دخل امرأة بدينة سوداء، وعندما نجح القس في إخراج الشيطان من المرأة أخفق في رده إلى الجحيم، ابتلي برغبة الشيطان الصغير في ملازمة القس واكتشاف العالم بصحبته

يبدو أن الشيطان ما يزال إلى اليوم يحتل مكانة بارزة في المخيلة الإيطالية.

أما بليني الأكبر فلقد ولد في كومو وعاش بين عامي (23 - 79م). ووضع الكثير من الأعمال التاريخية والفنية التي لم يتبقَّ منها سوى 37 مجلدًا من التاريخ الطبيعي. ويُعد أهم المصادر التي تكشف عن المعرفة العلمية خلال فترة بليني، كما يعتبر بليني الأكبر أشهر مؤرخ روماني على الإطلاق. وقد اقتبس منه تاسيتوس، وسواه من المؤرخين المعاصرين له واللاحقين عليه. وكان هذا المرجع أحد العـُمد التي سار على على هديها سويتونيوس وپلوتارخ. ولقد فقدت جميع كتاباته وخصوصا تلك التي أوصى بنشرها بعد موته ولم يبق متداولا في عصرنا منها سوى كتابه "التاريخ الطبيعي".

 عمل بليني الأكبر محاميًا، وتولى مناصب حكومية هامة. كما كان أدميرالاً على الأسطول الذي كان بالقرب من پومپي عندما انفجر بركان جبل ڤيزوڤ في عام 79م ومات هناك وهو يحاول إنقاذ اللاجئين.   
 لقد تعاقب على كومو وبحيرتها حكام ودول عديدة، وبرغم هذا شهدت الاستقرار في جميع الأحقاب وباتت الآن (كما كانت دائما) مقصدا لكبار رجالات السياسة والمجتمع والموسرين.

فإذا أدركنا أنها كانت موطنا للبيلانيين: العم وابن الأخ، فلقد كانت أيضا تحت نفوذ آل سفورتزا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وعُرف عن سفورتزا أنه كان راعيا للفن والفنانين والمفكرين، فقرّبهم إليه وجعل ميلانو وتوابعها على أيامه في رخاء ورفاهية قلّ نظيرهما في العالم آنذاك.

قصدنا بعد ذلك حدائق القصر، ولا تحتاج إلى أكثر من أن ترسل نظرك في أرجائها لتدرك كم تمثّل هذه الجنان، قديما وحديثا، من القيمة والأهمية ليس على المستوى الجمالي فحسب، بل وترقى به لتكون رحما ولودا وحاضنة لأنواع من النباتات، بما فيها النباتات الاستوائية التي استفادت من المناخ المعتدل بسبب استقرار 22.5 كيلومتر مكعب من مياه البحيرة، والتي جعلت وجود هذا الضرب من النبات ممكنا.

وقديما يمكننا أن نعود إلى ما تركه بليني في وصف الحدائق، فقال إنه كان يقضي الساعات في كومو بالقراءة والتفرّس في حدائقها، وما زالت الحدائق نفسها موجودة تلعب الدور ذاته، وها أنا بعد ألفي عام أجدني في مطاردة الفرائس الخضراء نفسها التي سبق للنبيل الروماني الكامل أن طاردها.

أما حديقة فيلا دستي فلقد كانت تحف بها ألسنة وأذرع للماء، ذراع يتلوه آخر في مسالك وجادات تأخذك إلى تمثال هرقل الذي هو تمثيل لحكايته مع الخادم عندما لبس القميص المسموم للقنطور فسرى فيه السمّ، وشكّ في خادمه، والتمثال يجسد تلك اللحظة التي رفع هرقل خادمه مغضبا.   
 وبرغم ذلك كله، كان ثمة أمر محزن في شأن فيلات كومو وقصورها، فلقد تم تحويل الكثير منها إلى فنادق، بعد أن ابتليت بملّاك جدد هم أثرياء وصناديق دول وفدوا من شتى الأصقاع ، ففقدت «كومو» بمجيئهم ذاكرتها وصار شاقا التعرّف فيها على أصابع بليني وسفورتزا.

ومن التجارب الشبيهة بهذه، والتي تؤكد الفصام التاريخي بين المكان وملّاكه الجدد، ما سبق لنا أن خبرناه في فندق «سانت ريجس» في روما، حيث لم يتعرف العاملون فيه على الوجوه التي تتوسط سقف البهو الرئيس، الذي لما سألتهم عن هوية تلك الوجوه المرسومة في القبة لم تكن لديهم سوى إجابة واحدة، خاطئة: إنهم فلاسفة! وكنا نعلم علم اليقين كنه تلك الوجوه وهوية وأولئك الأشخاص.

في اليوم التالي قررنا العودة إلى بحيرة كومو، وقصدنا هذه المرة الكاتّو نيرو (أي مطعم القطة السوداء) المتسنم هامة جبل مطل على البحيرة والجبال المحيطة بها، لنتناول رفيقتي وأنا الغداء على مشهد من البحيرة قلّ نظيره، فصرنا إزاء ما أحاط بنا كمن يحاول القبض على الجمال بحواسه الخمس ليدّخر تلك الصور الخلابة في ذاكرته لمقبل الأعوام.

إن «كومو» جمال مكثّف، تحتاج إلى تفكيك عناصره عنصراً عنصراً، وبالتالي لا يمكن استيعابها بنظرة عجلى، أو زيارة سريعة، فعليك أن تتردد عليها مرارا لتتمكن من الظفر ببعض جمالها.   
 كان غوته يردّد كلما شاهد الكولسيوم أو البانثيون أن حجم هذه الأمكنة في الواقع كان يفاجئه دائما بالقياس إلى حجمها في مخيّلته. كذلك الحال في كومو، فكلّما حدست أنك أحطت بجمالها، وحضورها الطاغي فاجأتك بجمالٍ مضاعف.   
 زارها الشاعر الإنجليزي «ويليام ووردزوورث» مع صديق له سيراً على الأقدام، كما كان «هيتشكوك» يقصد كومو وتلذّ له الإقامة في فيلا دا أستِهْ.

إزاء هذا الجمال الأزلي الخالد تذاكرنا وجماعة من الأصدقاء في المصائر الأليمة النهايات المفجعة للملوك والأمراء الذين زاروا هذا الكوكب، كالموت الفاجع والمؤلم لسفورتزا، ولكننا لم نشأ أن نقفز على الميتة المأساوية لنابليون العظيم بمنفاه في جزيرة سانت هيلانة، وقد انتهى به المطاف في غرفة معتمة يقتسمها مع الفئران ولم يكن فقد تجاوز الواحدة والخمسين، والنهاية المأساوية للشاه بهلوي وأسرته، وللمعتمد بن عباد وعائلته، ولهتلر وموسوليني ولبعض المعاصرين هنا وهناك.

أما سفورتزا فلقد جاءت نهايته كنتيجة للحسابات الخاطئة والتحالفات غير المصيبة وخيانة المقربين منه، عندما انتهى أمره مقبوضا عليه من قبل الفرنسيين الذين احتلّوا «ميلانو»، وقد جر من شعره أمام الجموع التي احتشدت في مدينة «ليون»، ثم أودع تحت الإقامة الجبرية، وعندما حاول الهرب ضلّ سبيله في الغابات فأدركته الكلاب، وقُبض عليه ثانية وألقي في غيابة جب معتم، فمات رجل الأنوار ميتة مخزية لا تليق بسيرته العظيمة.   
وبعد نهارين مجييدن في كومو، عدنا إلى ميلانو.

**نم قرير العين يا حبّي العزيز**

في يوم أمس ونحن نشرع بمغادرة ميلانو صوب فلورنسا، قصدنا محل لويني لابتياع “بانزاروتو”، وهي شطيرة خبز بالجبن والطماطم، وقد استغرقنا الحصول عليها قرابة نصف ساعة وقوفا في صفّ مديد من الناس. والبانزاروتو تقدّم ساخنة وتؤكل وقوفا، أما اسمها فهو متأثر بثقافة الشمال ولقد اخترناها كوجبة غداء خفيفة تسبق السفر إلى فلورنسا لأننا كنا على موعد مع مطعم "إينوتيكا بنكيوري" الحاصل على ثلاث نجوم ميشيلن) والاسم مركّب من إينو بمعنى النبيذ، ولعلّ أقرب معنى للدلالة على الاسم في اللغة العربية هو لفظ خمّارة. وأما لفظ كيوري فيعود إلى جورجيو بنكيوري، صاحب المطعم.

ولقد استحقت هذه الوجبة اللذيذة الساعات الثلاث التي أمضيناها في الطريق إلى نعيم الإينوتيكا

أما الطريق بين المدينتين فلا ريب أنه محفوف بالمخاطر وليس بوسع أحد أن يتفادى الشاحنات التي تسلكه جيئة وذهابا إلا في يوم الأحد، إنها تغزو سواده الممتدّ عموديا وتبثّ الرعب حولها، وعلى السائق لكي يصيب أسباب النجاة أن يشحذ حواسه ولا يفرّط ولو برهة واحدة بتيقّظه، فالطريق يتّسع ويضيق وينعرج في أحيان أخرى على نحو خطر.

ومن المفاجآت التي تحدث فتزيد الأمر سوءا أن قطعة من حاجز بلاستيكي ضخم كانت تقلّه شاحنة كبيرة سقط، وأربك حركة السير، أما سائق الشاحنة فاستمر في طريقه دون أن يكترث لأصوات المنبّهات التي تكاثفت من حوله ولا للمصابيح التي كانت ترمّش من أجل تنبيهه.

تذكرنا ونحن لا نزال ننهب جسد الطريق حكاية حدثت قبل نحو 4 سنوات، فلقد لمحنا مصادفة مطعم "أوستيريا لا ريساشا" على طريق "ريجينا جيوفانا" وهو مطعم فاخر للأسماك في الجانب الشرقيّ من ميلانو، واستعدنا ما حدث في ذلك اليوم ونحن نجلس إلى طاولتنا، عندما دخلت سيدة شرقية حسناء بصحبة رجل، وجلسا إلى طاولة بجانبنا، وبدأت أسماء مجموعة من الشخصيات ممن نعرف تتداول في حديثهما.

بدت السيدة عربية الملامح، وبعد قليل انتبها إلينا وأدركا أننا بسحناتنا وهيئاتنا لا يمكن أن نبتعد عن جغرافية حديثهما، فسألت السيدة: من أين أنتم؟

قلنا: نحن عرب

\_ ومن أي البلاد العربية؟

\_ من دولة الإمارات.

فقالت وهي تقدّم زوجها: هذا زوجي أدريانو غالياني وهو نائب رئيس نادي ميلانو، ويسرّه أن يقدّم لكما تذكرتين في مقصورة كبار الشخصيات لحضور مباراة الليلة. فأخرج الرجل التذكرتين ووقّعهما وأكّد الدعوة بتهذيب.

كانت ميلانو تغلي بأخبار تلك المبارة التي يبدو من فرط أهميتها أنها كانت حديث الجميع من موظفي استقبال وخبازين وسائقين وندل مقاهٍ وصيارفة وخيّاطين وصادف في يوم غالياني ذاك، أننا حجزنا في الإسكالا لحضور عرض مسرحيّ، ولم نتردد كثيرا في ترجيح إسكالا على ملعب السانسيرو الميلانيّ العريق. بلغنا فندقنا في فلورنسا، واسترحنا لبعض الوقت قبل أن نستقلّ السيارة إلى مطعم الإينوتيكا الذي يقع في "فيا جبلينا" شرق المدينة.

عندما دلفنا إلى المطعم وقعت أبصارنا على رجل بثياب زاهية الألوان ارتدى طرطورا على رأسه، ولم أعرف أنه السيد جورجيو بلحمه ودمه إلا بعد أن جلسنا إلى الطاولة وشرعنا نطلب الطعام، وبعد قليل أتيحت فرصة للحديث أثناء تناول الوجبة، وبلغنا الدور فحيّتنا المالكة السيدة آني فيولدي، وكانت ترتدي ثوبا أخضر وقد صبغت شعرها بلون أشقر، فسألتها: هل أنت المالكة؟

فقالت نعم، ورحّبت بنا في مطعمها.

ثم دعتنا إلى نزهة في نعيم الإينوتيكا، وكانت لا تُضاهى ولا يضارعها في بهائها شيء، فلم أتناول في حياتي مثيلا لسباغيتي دلّا شيكارا مع الأسماك وفتيت الخبز والبطرخ، كان طبقا من النوع الذي يعرف كيف يجد طريقه إلى حواسك ويمكث فيها، إنه طبق أطبقت عليه ذاكرتي ولا يمكن أن أنساه أبدا. بدوره طلب صاحبي الرز مع زبدة جوز البندق والربيان الأحمر والترفل الأسود. أما الحَمام الذي نُضّج على مهلٍ في قدر، فلقد قُدّم بمشهد مسرحيّ، وكان لذيذا.

إن لآل بنشوري في مطبخهم فلسفة لا يحيدون عنها إلا إليها، فهو مختبر تتجسّد فيه الأفكار وتغزو مخيّلاتهم فتمتزج العناصر، كلّ بمقدار وزمن لا يخرج عنهما حتى تكتمل مقوّمات النزهة في نعيم الإينوتيكا.

في صباح اليوم التالي صحوت على هدير نهر آرنو الذي يعبق برائحة الزان، يا لهذه المدينة الساحرة، إنها فيض فردوسيّ حتى وإن لم يمكث فيها غوته سوى ساعات ثلاث، فعلى الرغم من أنه يوم مطير تعذّرت فيه جولتنا الصباحية المعتادة، إلا أن بهجة غامرة تجتاحك وأن تصحو على هدير أوركسترا آرنو الفخم.

عندما نزلنا لتناول الفطور إنسابت موسيقى عذبة وباذخة وكأنها ملتحمة بالمكان فيصلان إليك معا، جلال المكان وعذوبة الموسيقى. كانت النغمات تنسكب مثل عطر فتضمّخ الروح والمكان بجمالها، آه...... إنني أعرف هذه الأغنية، إنها أغنية أو هدهدة "نم قرير العين" من أوبرا "زايديه" لموزارت. وبهذه المناسبة الصباحية دعني أتساءل، ترى من يصدّق أن "زايديه" أوبرا لم تكتمل؟ فما أن أتمّ موزارت الفصل الثاني من العمل حتى هجره إلى عمل آخر، ومكث العمل مهجورا في غياهب النسيان، ولم ينتبه النقاد إلى هذا البهاء المهجور إلا بعد عقود على وفاة موزارت، فوجدوه منقوصا من المقدمة والفصل الثالث والخاتمة.

وبعد مرور قرن على ميلاد أماديوس المحبوب "موزارت" أكملوا العمل وسدّوا نقصه وعُرض للمرة الأولى، فتسلّق منذ ذلك الوقت سلّم الخلود، ولم تلمس قدماه الأرض من ذلك الحين.

أنشودتان، آرنو وموزارت وأنا بينهما. ياله من صباح سعيد، كل شيء من حولي يردّد هدهدة المحبوب: نم قرير العين يا حبي العزيز.

**تورتونا وياقوتها**

إذا أردنا اختبار المائدة الإيطالية في أكثر فاكهتها ترفاً، فما علينا إلا أن نشير إليها، إلى فراولة **تورتونا،** فموسمها لا يمكث أكثر من أسبوعين، من منتصف مايو حتى نهايته، وما إن يُشرع بقطفها حتى لا يعود ثمة مناصٌ من تناولها في مدة 48 ساعة، كما أنها لا تسافر خارج " **تورتونا** "، لأن في ترفها البالغ ما يجعلها لا تحتمل السفر حتى ولو إلى مدينة قريبة كـ"ميلانو" التي تقع على مرمى ساعة منها؛ فلو تعرّضت لضربة شمس لتلفت من ساعتها.

والغالب على أهل " **تورتونا** " أنهم يضنّون بها على غيرهم، فتجدهم يتلقّفونها تلقّف الماء في الهجير، ولا يكفون عن جعلها تلازم موائدهم حتى يطمئنوا إلى أن آخر نبتة فراولة نفضت آخر ثمرة من ثمارها الياقوتية في " **تورتونا** ".

ولهم طريقة في تناولها، حيث تُقدّم باردة بعد الوجبات، ويُرشّ عليها نثار السكر وعصير الليمون.

قررنا أن نصطحبها كالسرّ المكتوم في صناديق مبرّدة تُحمل باليد لتصونها عن الحرّ والضوء.

أعددنا رسولين ليحملا سرّ "كارتونا"، فحصرا مزارعها الخمس الصغيرة، واتفقا على ابتياع المنتوج مما تسمح بها الطائرة في يومين متعاقبين.

وبعد أن تمكنا من ابتياعه وحفظه في الصندوقين المثلجين حيث اشترى أول الرسولين ما قُطِف منها نهاراً، وعاد إلى "ميلانو" مستقلاً رحلة ليلية إلى أبو ظبي، على أن يبلغها قبل اشتداد حرارة شمسها اللافحة.

وكانت الفكرة أن في حال حدوث خللٍ ما مع المسافر الأول، فسنتوفّر على الوقت لنتمكن من استدراكه بالمسافر الثاني.

كنت أحدّث صاحبي بذلك وأقول له: لقد أدرنا المهمة من غرفة تحكّم كمن يضع قمراً صناعياً في مداره.

اختبرنا المهمة، وأوصلنا سرّ **تورتونا** إلى نفرٍ من الأصدقاء، الذين أثنوا عليها ثناءً بالغا.

كانت الفكرة هي في الكشف عن جانب غاية في الأهمية من جوانب فلسفة ‏المائدة الإيطالية، التي تعتمد وبشكل صارم على تحديد مكان المنتوج، وهذا يقود إلى ما يُعرف بالأكل المتريّث، الذي هو نقيض الوجبات السريعة.

فهم يعرفون مصدر كل منتوج. فعلى سبيل المثال، تجدهم يبتاعون اللحم وهم يدركون تماماً مكان رعي الأبقار أو الأغنام ونوعية الحشائش وأوقات الرعي.

والأمر ذاته ينطبق على الخضار، والفواكه، والأسماك، وزيت الزيتون، والحليب، ومشتقاته وسائر المنتوجات.

في نهاية الأمر، كان نجاحنا مضاعفاً بعد أن وصل المسافر الثاني إلى أبوظبي، وهو يحمل صندوقه وفي داخله يكمن سرّ **تورتونا،** كالصدف الذي يحمل اللؤلؤ في أحشائه.

وبذلك تمكنا من وضع (قمرين ياقوتيين) في المدار.

**الفصل الرابع:**

**فرانشا كورتا**

**بيت الغابة**

لا يمكن أن تكون في إيطاليا من دون أن تلاحظ وجود آلاف الكيلومترات من مزارع العنب، ولا تلك الوفرة الهائلة من هذه الفاكهة التي جعلت من الإيطاليين ثاني أهم الشعوب في صناعة النبيذ بعد الفرنسيين.

في صبيحة يوم ربيعي يممنا شطر فرانشا كورتا في لامبارديا وهي أرض مربعة تمتدّ أبعادها لـ 25 كم طولا ومثلها عرضا وتوصف بأنها مفخرة زراعة أعناب النبيذ الغازي العجيب. خرجنا من ميلانو مرورا ببيرجامو حتى بلغنا آربوسكو حيث استقبلتنا السيدة مونيكا دليلتنا. وبعد جولة في الجوار وجدت نفسي أخيراً أمام مجسّم يُظهر منطقة فرانشا كورتا ومزارعها وكانت المفاتيح على اللوح تتحكم بمعرفة مناطق استغراس أنواع الأعناب المختلفة وأماكن ومراحل الإنتاج، وكلما ضغطت على زر أضيئت أنوارُ ضرب من الأعناب كالبينونوار والشاردونيه، ثم تبدأ بتوضيح جغرافية النوع وسلالته وخريطته وما يُنتج منه وكيف يُعالج في فرانشا كورتا وصولا لتكثيف دموع العنب في الزجاجات.

ولأرض فرانشا كورتا قصة لا تخلو من العجب والطرافة، فهي في الأصل أرض صخرية شقّ على الفلاحين زراعتها، وفي القرون الوسطى هجرها سكانها فأقفرت. ولتشجيع الناس على العودة إليها والعدول عن مفارقتها صدر إعفاء ضريبي لكل من يقطن المكان ويستصلحه، ومنها اشتق اسم فرانشا كورتا.

قالت مونيكا وهي لا تزال تتعقب بأصابعها أزرار اللوح أمامها، إن ملاكا ومنتجين عديدين يتقاسمون المنطقة، وأكبرهم هو برلوكي ويملك فيها نحو 700 هكتار. أما السيد موريس زاييلا مالك الدلّا بوسكا فيستحوز على 180 هكتاراً. والدلّا بوسكا اسم دال على ماركة نوع من النبيذ الغازي تعني في العربية بيت الغابة. ذهبنا وشاهدنا بيت السيدة آنا ماريا كلمني، بعد ذلك انتقلنا إلى مغسلة الأعناب المقطوفة، وهي عبارة عن آلة هائلة يتم تجميع المحصول فيها في موسم الحصاد الذي يقع بين أوائل أغسطس وحتى منتصف سبتمبر، وتحرّم الأسمدة الكيماويّة والكيماويّات عموما، وللقطف شرط لابدّ من توفّره وهو أن يكون يدويا، ويستمر الغسيل أربع دقائق، وتُستعمل الآلة أربعة أسابيع في العام. وهناك مراحل لغسيل الأعناب وتنقيتها أوّلها الغسل بالبخار وآخرها التجفيف.

والكادل بوسكا هي المعصرة الوحيدة التي تغسل العنب للتخلّص من السولفايت أو تخفيضه، وتبلغ نسبة السولفايت في أنبذتهم حداً أقل من المسموح بكثير، إذ لا تزيد نسبته على 58 ملم في الزجاجة الواحدة، بينما يبلغ الحد المسموح به للإستهالك 180 ملم، وهو الأمر الذي جعل هذا الضرب من نبيد فرانشا كورتا سلساً، وحسب مستهلكي هذا الشراب، لا يسبب الصداع، علماً أن من اعراض السلوفايت الجانبية أنه يسبب الصداع، وهو ما أكدته عمليا دليلتنا عندما قالت أن بوسعها أن تشرب كأسين أو أربعة أو زجاجة بأكملها دون أن ينتابها الصداع.

وخلال تجوالنا في المنطقة لاحظنا أن المالك يهتم بالفنون، فكان المدخل عبارة عن بوابة برونزية كبيرة وهناك مجسمات عدة لوجه آدمي وكركدن، وهو أمر دفعني لأن أفكر قليلا بما كان معمولا به وشائعا في عصر النهضة الذي شهد ظهور طبقة من عرابي الفنون تمثل في الغالب الوجهاء والأثرياء والبابوات، والفن لا ينتعش إلا بوجود عرّابين وحماة فنون.

تحدّد نوعية الأعناب وعمليات العصر ودرجاتها أنواع النبيذ فنجد الفاخر منه ويبلغ سعر زجاجته 80 يورو، ويُطلق عليه تسمية آنا ماريا كلمني، ويُنتج منه نحو 300 ألف زجاجة في العام. كما ينتجون نحو 400 ألف زجاجة من البروت ويبلغ سعر الزجاجة منه 40 دولاراً. أما نبيذ كادل بوسكا فإن حجم إنتاجه يبلغ حوالي مليوناً و700 ألف زجاجة في العام. ويستغلون نسبة 65 بالمائة من عصير العنب في إنتاج الأنبذة الغازية، ويعرضون في السوق النسبة المتبقية والبالغة 35 بالمئة من الإنتاج الكلي.

ويستهلك السوق الإيطالي المحلي نسبة 80 بالمئة من الإنتاج، وقلما يخلو مطعم إيطالي من نبيذ كادل بوسكا.

وبينما يُضخّ النبيذ عادة بمضّخات، أشارت دليلتنا إلى مصعد قاموا بتطوير آلية عمله، فبكبسة زر يخرج من الأرض، ومن خلال عملية ضغط يستطيع أن يملأ في صعوده صهريجا كاملا بدون ضخ.

يعمل في المكان 150 عاملا، والنبيذ الغازي يستمد قوامه من الخميرة والسكر، وبعد موت بكتبريا الخميرة يمكثون على تحريك الزجاجات النائمة. وقبل بدء عملية الإنتاج يقومون بالتخلّص من هذه الخميرة الفانية من خلال عملية إقلاب تدريجي للزجاجة إلى أن يستكملوا عملية القلب بشكل كامل. فيعملون على إدخال عنق الزجاجات في براد حتى تتحول الخميرة إلى قرص صلب عندها تعدّل الزجاجة وتفتح فيقوم الغاز بدفع القرص بقوة إلى الخارج، ثم يُعاد غلق الزجاجة بسدادة من الفلين بعد أن يتم نقعها في الماء لمدة أسبوعين، وهذا النوع من السدادات يُجلب من البرتغال. ويُطلق على هذه العملية (سبوكاتورا)

ذهبنا بجولة في الأقبية التي كانت تُضاء كلما ضغطت الدليلة على لوحة المفاتيح، وكانت تنام هناك آلاف من القناني في ظلام دامس بين درجتي 13 و15 مئوية، ولا يعكّر سباتها الطويل معكّر.

قالت دليلتنا أن هذا هو الوقت المثالي لزيارة المعصرة، فلقد كانت الحرارة في الخارج 17 درجة. توجهت لمونيكا بسؤالين أولهما ما إذا كان العمل هنا شهد حوادث تضرّر بسببها البعض. فنفت ذلك فالمعاصر مجهّزة بمختبرات ورقابة صارمة من الدولة، سبب سؤالي لها هو حادثة وقعت في توسكانيا قبل أعوام عندما نشب شجار بين السيد سولديرا الذي يملك منتوجاً فاخراً من النبيذ، وأحد عماله، وفي فورة غضب جامحة قام العامل بسكب كل براميل تلك السنة من الإنتاج، وكانت تلك فضيحة كبيرة في عالم النبيذ.

وإذ عرفت دليلتنا صلتنا بعالم الكتابة بىدرت إلى التعبير عن توق قديم لديها في العمل في الصحافة وكان لابد من تنبيهها إلى حقيقة أن الكتابة الحرة شيء والصحافة شيء آخر، وأن دنيا الصحافة اليوم تشهد تحولا فارقاً لا سيما في الأنماط الورقية التي بدأت تنحسر أمام المد الصحافيّ الالكتروني، وثورة التواصل الاجتماعي أصبحت تفرض نفسها بقوة نتيجة الأبعاد التفاعلية التي تشتمل عليها. ولكن لم لا تفكري في العمل (سومولييه) أي خبيرة نبيذ، وهو أمر أجدك الآن في خضمّه وقريبة منه قلت لها، فهزت رأسها موافقة. والخلاصة التي يمكن أن يخرج بها المرء أحيانا من أحاديثه مع الناس، أن أكثر الأشخاص لا يبدون راضين عما هم فيه. دائما ثمة أحلام وطموحات مخبأة في النفوس، في انتظار فرصة للتعبير عن نفسها.

في نهاية الجولة اقتنينا كتابا عن المعصرة، وقادنا الحديث إلى صرامة الإيطاليين في عملهم وهو أمر على النقيض مما يحدث في فرنسا، ففي سانسير في وادي النوار التي تنتج النبيذ تُجلب أعناب البينو نوار من كل أنحاء فرنسا، أما هنا فالأمر مقتصر على ما تنتجه مزارع فرانشا كورتا من أعناب.

هنا ظهر شيء غالياً ما يجد فرصة أيضا ليظهر عندما علقت دليلتنا: إن ما يحدث في فرنسا يمكن أن تطلق عليه غشّا. إنما مشكلة إيطاليا تبقى في أنها ليست بارعة في تسويق منتجاتها ولا يمكنها أن تنافس فرنسا في هذا الأمر.

**الفصل الخامس:**

**فيرونا**

**شرفة جولييت وصرح الآلهة**

تشتهر فيرونا بشيء لا علاقة لها به فهي معروفة للقاصي والداني بأنها موطن روميو وحبيبته جيوليت، بيد أنهما لا يمكن أن يكونا من فيرونا، بل هما أقرب إلى الشرق، ولكن من يستطيع أن يثني ملايين الزوار الذين يتدفقون من كل حدب وصوب على شرفة جوليت وقياس قطر المناجاة التي أطلقها روميو وتنهدات قلبه المصدور؟ أحيانا أضحك في سري من الأمر برمّته وأقول: كيف لفتاة أن تجلب المجد لأسرتها وبلدتها بقصة غرام جمعتها بعاشق من أعداء عائلتها؟

وهو الأمر الذي سيمنح بلا ريب نتائج على النقيض من تلك لو حدث في بيئاتنا. فالمرأة في الشرق ستحلّ عليها الويلات وتسربل عائلتها بالخزي الأبدي.

كنت أفكر في هذا كله عندما وجدتني تحت شرفة جولييت في فيرونا أقيس قطر ذات التنهيدة التي كان يطلقها روميو من أسفل الشرفة، وكان هناك تمثال يتقاطر عليه الزوار ليدوّنوا أسماءهم بطقسية أقرب إلى تقديم النذور. فعلنا المثل وشرعنا بتدوين أسمائنا.

إنها حالة المكان التي لا تمنح فرصة للخروج عليها، فأحيانا لا تكتمل الأمكنة ووجودك فيها إلا إذا منحتها ما تريد منك. وفي الآونة الاخيرة أصبحت الأقفال تنوب عن الرسائل والتوقيعات العجولة.

هنا أشير إلى أن الإيطاليين ذهبوا أبعد، فافتتحوا مركزا للبريد يتلقى رسائل العشاق إلى روميو وجولييت، ويجيب عليها. هناك عن هذا المكتب فيلم أخرجه الأميركي غاري وينك 2010، وقامت ببطولته آماندا سيفريند وشاركتها فانيسا ريدغريف وصور في فيرونا.

في فيرونا لا يمكنك تفويت زيارة المسرح الروماني الكبير الذي زرته مرارا، وفي كل زيارة لي إليه أرى فيه شيئا جديداً. فما أن ترتقي مدرجاته حتى تشعر أنه من تصميم كائنات خرجت من رحم الآلهة فمنحتها الجبروت والقوة ليشاد على هذا النحو، إنه بلا ريب من تصميم العمالقة، ولكي تشعر بذلك كله عليك أن تجسّه بقدميك وتتجول فيه، ولقد فعلنا ذلك، فكنا كمن يصافح الآلهة التي ضربت بعصاها الحجر فانفلق مسرحا رومانيا في فيرونا.

ما زال المسرح حيا تُقام عليه الحفلات الموسيقية.

في إحدى زياراتي استعدت ما سبق وقرأت عما شهدته فيرونا في القرن السادس عشر، عندما احتج أحد رجالات الدين بسبب بعض الرسوم الفنية العارية للفنان كاروتو، وكان من أشهر فناني فينيسيا وتوفي ودفن في فيرونا، فقال الفنان لرجل الدين: إذا كانت الصور المرسومة تثيرك إلى هذا الحد فكيف تؤتمن على اللحم والدم؟

يا لها من فيرونا تلك التي أقام فيها دانتي في عام 1316 وأتم فيها فصل "الفردوس" من "الكوميديا الإلهية" وكان في حينها قد بلغ 51 من عمره.

وفي عام 1345 عثر بتراركا في إحدى مكتبات كنائسها على مخطوط يشتمل على رسائل شيشرون المفقودة لأتكس، وعبرها ميلتون في عام 1639، وزارها غوته في 1786.

وفيرونا هي موطن الشاعر كاتوليس الذي عاش ما بين (84 قبل الميلاد و54 بعد الميلاد) الذي ترجم قصائد سافو، وحاكاها في شعره، وكان يكن لتجربتها تقديرا عالياً.

وفى فيرونا أخيراً نشبت حرب بين أسرة الكابني وأسرة المنونتيشي، ولم يدر في خلد هاتين الأسرتين أنهما ستصبحان أسرتي الكابوليت والمونتاجو فى مسرحية شكسبير روميو وجوليت، وبذلك عبر بها الرجل الإنكليزي هاوية النسيان إلى حيث المجد الذي لازالت شرفة جوليت تحلبه قطرة قطرة من ضرع الأبدية.

**روميو وجولييت**

شاهدنا فيلم "روميو وجولييت" للمخرج فرنكو زيفّيريللّي، الذي أصاب فيه المخرج العصب الخفي من مسرحية "شكسبير"، الهوى الأول، الهوى العذري -كما يسميه العرب- واستمعنا إلى الأغنية الجميلة "ما سرّ نار الشباب المستعرة؟"، أغنية ترثي زهرة الشباب التي سرعان ما تذوي وتؤول إلى الفناء. وأصل القصّة شرقي، فلا يمكن أن يكون مسرحها إلا الشرق، وليس "فيرونا".. كما وردت عند أوفيد على نحو ما سنراه:   
كان "بيرام"، الأجمل بين الشبّان، و"تيسبين" الأكثر فتنةً بين فتيات الشّرق، يسكنان منزلين متجاورَيْن في مدينة نينوى حملهما التجاور على التعارف، وشجَّع خطوات حبّهما الأولى.   
ولم يفتأ هذا الحبّ يكبر مع الوقت، غير أنّ الهيامَ الذي ألهبَ قلبيهما، لم يقدر أبواهما أن يحولا دونه. وكانا يتكلّمان بالإشارات والحركات عبر شقٌّ صغيرٌ في السّور المشترك بين بيتيهما، لم يلحظ من قبل أحد، جعلا منه مَعْبراً لصوتيهما، يتبادلان عبره أحاديثهما العذبة. وفي ليلة من الليالي تسلّلا خفية من منزليهما؛ متفقين على اللقاء عند قبر نينوس، والاختباء تحت الشّجرة التي تظلّله.   
تسللت "تيسبي" وقد غطّت وجهها بوشاح، وجاءت إلى القبر، وجلست تحت شجرة التّوت. وها هي لبؤةٌ، تلطّخ شَدْقها الذي لا يزال ملطخا، بدماء فريسة، تجيء لترويَ عطشها من ماء الينبوع المجاور. لمحتها "تيسبي"، عذراء نينوى، تحت أشعّة القمر، من بعيد، فهربت بخطوةٍ مُرتعدةٍ، داخلةً مغارة مُظلمة، وفي أثناء هربها سقط عنها الوشاح الذي يُغطّي كتفيها.

 عندما ارتوت اللّبؤة بجرعاتٍ طويلة من الينبوع، واتّجهت عائدةً إلى الغابات، صادفت ذلك الوشاح الخفيف الذي سقط من الفتاة، فمزَّقته وهي تمرغ فيه شدقها. خرج بيرام متأخراً، واكتشف آثار الوحش على دربه، امتقع لون وجهه وما أن رأى ذلك النّقاب مضرَّجا بالدّم، حتى هتف: أنا الآثم. أنا الذي دفعكِ للمجيء، ليلاً، ولم أسبقكِ في المجيء. تناول نقاب تيسبين وغمره بدموعه، ثم استل النصل الذي كان يحمله في حزامه وأغمده في صدره.

عادت تسبي تبحث عنه بقلبها وعينيها، وهي تتحرَّق شوقا لكي تروي له الأخطار التي نجت منها، وهي تعرف المكانَ، تعرف شكل الشّجرة، غير أنّ لون ثمارها وقد بات أحمر جعلها تتردّد، وتتساءل إن كانت هي الشجرة نفسها حقاً. وفيما هي حائرة، وقع بصرها على جسد مضرج بدمائه، دب فيها الرعب وهي تنظر إلى الجسد الذي راح يختلج على الأرض المُدمّاة. تراجعتْ، وبعد لحظة، تحقّقت من أنّه جسمُ من تحبّ. أخذت تبكي حانيةً على جرحه، مازجةً موجَ دموعها بموج دمه، صارخةً، فيما هي تطبع قبلاتها على وجهه المتجمِّد: "بيرام، أيّ قدر وحشيّ أخذك منّي؟ أَجِبْنِّي، بيرام، أنا حبيبتك تيسبي، اسمعني، وارفع رأسك المائل".   
سمع "بيرام" الاسم "تيسبي"، ففتح عينيه اللّتين أثقلهما الموت، ولم يكد يراها حتى أطبقهما. آنذاك رأت النّقابَ والغمدَ العاجيّ الفارغ من نصله، فثبَّتتْ رأس السّيف تحت صدرها، ثمّ تركت جسدها يسقط على النّصل الذي لا يزال حارّاً من دم بيرام. ومنذ ذلك اليوم صارت ثمار الشجرة، عندما تنضج، تأخذ لوناً ضارباً إلى السّواد. وما تبقّى من مَحْرقتهما استقرّ في مجمرة واحدة.

**اختطاف أوروبا**

في معرض مراجعتي للقصص الكثيرة الدالة على تأثير الشرق في الغرب، تواردت إلى خاطري حكاية اختطاف أوروبا التي روتها المراجع الإغريقية القديمة، وهي حكاية تحولت إلى أسطورة عن مصدر أسم قارة أوروبا، وعن انتقال العلوم والمعارف من الضفة الشرقية للمتوسط إلى الضفة الغربية.

حسب الرواية الإغريقية كانت أوروبا ابنة الملك أغينور الفينيقي تلهو مع وصيفاتها من عذارى صور، عندما ظهر لها الإله جوبيتر على هيئة ثور راح يستعرض جماله على مرأى منهن، كان أبيض اللون كالثلج. أهدته الفتاة زهورًا بيضاء ناصعة، فغمرته الفرحة. قبل يديها، وعندما تبدد خوف الفتاة تدريجيًا، غافلة عما يضمر لها هذا الزائر على امتطاء ظهره. ثم شيئاً فشيئاً بدأ زيوس يغادر الشاطيء، ليغسل قدميه الماكرتين في أمواج البحر، وبخفة مفاجئة ابتعد حاملًا غنيمته ماخرا بها عباب البحر جهة الغرب

أمر الأب ابنه قدموس بالبحث عن أخته أوروبا. كان الفتى يتملكه الخوف من انتقام والده إن هو فشل في الرجوع إلى صور بأخته المخطوفة، توسل إلى الآلهة أن ترشده إلى مكانها. قالت الآلهة: «سترى عجلا أبيض لم يطوق النير عنقه بعد، ولم يعرف المحراث، اتخذه مرشدًا لك، وحيثما استقر، ضع أساسات أسوار مدينتك». لم يكد ينزل قدموس من حضن كاستاليا حتى رأى العجل الأبيض، فتبعه إلى أن توقف وبرك على العشب. هناك أمر قدموس بجر الماء من نبع قريب لتقديمه قربانًا لكوكب المشتري. وما أن وصل رفاقه إلى النبع حتى فوجئوا بأفعوان يخرج لهم من كهف قريب ويفتك بهم.

مضى قدموس يبحث عن رفاقه فوجدهم وقد صرعوا جميعا. صارع الأفعوان برمحه المتوهج ، وصرعه بعد قتال مرير. نزلت منيرفا من جبل الأولمب وأمرته أن يحرث الأرض ويزرعها بأنياب الأفعوان. وبينما كان يفعل ذلك، بدأت تلك الأنياب تنبت رجالاً مدججين بالسلاح، سرعان ما تقاتلوا فيما بينهم وكانوا على وشك الفناء باستثناء خمسة منهم هؤلاء سيشاركون قدموس في بناء مدينته طيبة.

وهكذا وجد قدموس السعادة في منفاه، ووهبه جوبيتر هارموني ابنة فينوس زوجة له، وأنجب منها الكثير من الأبناء والأحفاد. ولكن كما قيل: "لا تقل من هو السعيد حتى ترى كيف انتهى عمر".

خهذه الحكاية مازالت تلقي بظلالها على الأزمنة وصولا على زمننا الحاضر. فالثور بات كوكبة تشقق عباب الليل وتزين صفحة السماء، وجوبيتر هو كوكب المشتري أعظم أجرام الكواكب طراً. أما ابنة أغينور واخت قدموس فهما قطبان التأثير الشرقي بالغرب فأوروب وهبت القارة اسمها فجعلت من اسمها أصلا للقارة، في حين علم قدموس الإغريق كما يقول هوميروس فن الكتابة وبناء العمران وزاد على ذلك بأن أهدى معابدهم "المغني الإلهي".

**الشيخ الذي يسكّ النقود**

اليوم في شارع بفيرونا أشار صاحبي إلى أوراق من فئة الخمسين يورو ملقاة على قارعة الطريق. راحت إحدى المارّة تلتقط الأوراق وتصيح لمن هذه النقود؟ تحسّست المحفظة إذ سألني صاحبي: أهي لك؟ وقبل أن أنبس ببنت شفة، انطلق شيخ يدمدم، واستلّ الأوراق المالية من يد السيّدة ومن يد صاحبي الذي همّ بالمساعدة وأدبر مسرع الخطى وأوراق من فئة الخمسين والمئة مصقولة ما زالت تسقط منه أنّى توجّه، والناس في دهشة من أمره. وإذ مضيت وصاحبي في طريقنا تاركين خشبة المسرح لجمهرة من المارة المأخوذين بمتعة التفرّج، قلت لصاحبي ما عسى آلة النقود تلك، ما عساها تسكّ الآن؟

مضينا بعد ذلك في مدينة الحب حتى انتهى بنا المطاف إلى مقهى استقبلنا فيه بوتشيني بلوعة العاشقة الباحثة عن الحب في ومن اوبرا "جياني سيكيكي":

**آه، يا أبتِ الحبيب،  
أحبه، وهو رمز الوسامة  
أود أن أذهب إلى بورتا روسَّا  
لأشتري الخاتم!  
بلى، بلى، أريد أن أذهب إلى هناك!  
وإن كان حبي بلا جدوى،  
فعلي أن أذهب إلى بونتي ڤوتشيو  
وألقي بنفسي في نهر آرنو  
فأنا متيمة ومعذبة،  
آه يا إلهي! أتمنى لو أموت  
الرحمة يا أبتِ الرحمة.**

**مدرج فيرونا**

تطرقت في مستهل هذا الفصل عن فيرونا إلى المسرح المدرج، وأعود إليه هنا بشيء من التفصيل لما له من مكانة بارزة في العمارة الرومانية القديمة.

وصف غوته «مدرج فيرونا» بكونه أول مبنى عظيم من أبنية العالم القديم تقع عليه عيناي. ويا له من مدرج يحتفظ بمعالمه! حين دخلته، ثم جبت أرجاءه وصولاً إلى حافته العليا، غمرني شعور خاص بأنني أنظر في فراغ، رغم عظمة المدرج.

 فما ينبغي لهذا المدرج أن يرى فارغاً، بل أن يكون ضاجاً بالبشر، كما كان حاله في الآونة الأخيرة في مناسبة تكريم جوزيف الأول والبابا بيوس السادس. ويقال إن الإمبراطور الذي اعتاد استقبال الحشود، ذهل للأمر. ولكن ما كان للمدرج أن يترك الأثر العميق التام إلا في العصور الغابرة، يوم كان الشعب شعباً بحق، أكثر مما هو عليه الحال في يومنا هذا. فمثل هذا المدرج قد صمم، في الأساس، لكي يثير إعجاب الناس، وأن يزرع فيهم الشعور بالهناء.

 وحين يقع ما يستأهل المشاهدة على مستوى القاع، ويشرئب كل فرد في الجمع لكي يطل على المشهد، فإن الجالسين في المؤخرة يلتمسون شتى السبل كيما يسددوا أنظارهم من فوق الجالسين في الصفوف الأمامية: فالبعض منهم يقف فوق المصاطب، والبعض يعتلي البراميل، والبعض يجلب عربات ويضع عليها دكة من الخشب بالعرض لتقوم مقام صقالة للفرجة، والبعض يرتقي التلال المحيطة بالمدرج. وتجدهم يؤلفون، على هذا النحو، نوعا من حفرة بشرية في لمح البصر. أما إذا تكرر عرض المشهد في البقعة عينها، فإنهم يقيمون سرادقات مؤقتة لمن يستطيع دفع الثمن نقداً، أما الباقون فيتدبرون أمر الفرجة حسبما ما يستطيعون.

 إن مهمة المهندس المعماري تكمن في أن يلبي هذه الحاجة. ويبتدع بفنه حفرة متدرجة، سلسة قدر الإمكان، أما الجمهور فيؤلف زينة المكان. وحين يتحشد أولاء في تراصف شديد، يذهلون من أنفسهم. فهم معتادون في غير هذه الأوقات على أن يرى بعضهم بعضا غادين ورائحين هنا وهناك في ارتباك، ماضين في سبيلهم دون انتظام أو اتفاق.

 أما في المدرج، فإن هذا الوحش الهائل، المتعثر، المتقلب، برؤوسه الغفيرة، وعقوله الكثيرة، يرى نفسه، بغتة، موحداً في جماعة نبيلة، ملتحماً في كتلة، فهو جسد واحد يضج بروح حية واحدة. ويشعر الجميع ببساطة هذا الشكل الإهليلجي باعتباره ألطف الأشكال وأكثرها راحة لعين الناظر، وإن كل رأس من الحشد يقوم مقام مقياس لضخامة نطاق المجموع. أما حين يخلو مبنى المدرج، من البشر فلن تجد معياراً لقياس ضخامته أو صغره.

ولا ريب أن الثناء واجب على أهالي فيرونا للطريقة التي حافظوا بها على هذا الصرح. إن المرمر البني الضارب للحمرة الذي شيد منه المدرج يتأثر بتقلبات الطقس، فتراهم يواظبون على ترميم الدرجات التي أصابها التآكل، وإن سائر الدرجات تقريباً تبدو زاهية، جديدة. وهناك عبارة منقوشة على المرمر تمجد ذكرى شخص معين يدعى هيرونيموس مورينيوس على ما كرسه من جهده للحفاظ على هذا الصرح. ثمة جزء صغير من السور الخارجي ترك منتصباً في مكانه، ولا أظن أن بناءه قد أكمل البتة. وهناك قباب لصق ساحة كبيرة تُدعى "إيل برا"، تؤجر لبعض الفنانين، وإنه لمن دواعي سرور العين أن ترى هذه الكهوف ضاجة بالحياة من جديد.

يتسع المسرح الروماني في فيرونا لثلاثين ألف متفرج، ولا يختلف هذا عن مسارح أخرى في مدن روما القديمة، فغالبا ماكانت المسارح تبنى وعدد مقاعدها أكبر من عدد مقاعد سكان المدينة، ليمكنها أن تستقبل في المناسبات والاحتفالات مشاهدين تقاطروا من مدن وبلدات مجاورة. ومازالت تقام على مسرح فيرونا كما في غيره من المسارح القديمة العروض والاحتفالات، ومازظال إقبال الجماهير عليه يملأ مدرجاته.

**لا تثق بطاهٍ إيطالي نحيف**

من خَبر المائدة الإيطالية، سيسلم باستنتاج العالم الأنثروبولوجي الأشهر كلود ليفي شتراوس من أن الطهي هو ما ارتقى بالبشر من الوحشية إلى الإنسانية والحضارة. والذوّاقة سيجذبه تعدد الأشكال والألوان والأطعمة، لكن ما يذهل هو اختلاف طعم وذائقة العناصر نفسها، من خضروات أو لحوم أو أسماك أو طيور، وحتى الخيول، من منطقة إلى أخرى. وكأن الطبق هوية قومية تقوم مقام جواز السفر او بطاقات التعريف الرسمية. المفاضلة هنا تبدو مستحيلة، وعليك أن تتلمظ "غزلاً" بعد كل طبق.

ستكتسب الأطباق المتنوعة معنىً آخر، وللذائقة أن تكون في الإحساس أساس كلمة "ذوق"، لتصير معيار الاختيار والكمال النسبي في الأخلاق والفنون والملبس والتصرف في العلاقات الاجتماعية.

وكما لا يمكن أن تشرب قهوة سيئة في أي مكان في إيطاليا وقوفاً على زاوية شارع أو في مقهى أو في بهو فندق فاخر، فأكاد أقول أن المطاعم محكومة بالمعيار نفسه.

وبهذه المناسبة فتح لنا ماسيمو بتّورا في كتابه "لا تثق بطاه إيطالي نحيف" بابا على عالم من أسرار المطبخ الإيطالي فماسيمو الذي يتبوأ مطعمه ذو النجمات الثلاث في مودنا في الشمال الإيطالي المكانة الأرفع في قائمة المطاعم الأشهر في العالم، يعتبر مكانة مطبخه نظير مكانة مصنع الفيراري الفاخرة التي تصنع في الجوار القريب من مطعمه، يقول، على رغم من أنني أجلس في مطبخي فإنني كمن يجلس وراء مقود فيراري وعيني تطل من مرآتها على مطبخ أمي.

**فصل جديد**

**بارما**

**قبة كنيسة بارما وذعر القساوسة**

في صبيحة يوم ربيعي استقبلتنا دليلتنا في بارما، وكنا قد وصلنا للتو قادمين من ميلانو، قلنا لا وقت نضيعه نريد ان نبدأ بالكاتدرائية التي روع كورّيجّو برسوم قبتها قساوسة بارما، هناك شخصت لأبصارنا صورة صعود العذراء. بدت للناظر سابحة في فضاء القبة يحيط بها حشد سماوي من الرسل والحواريين والقديسين صوروا أحسن تصوير، ببراعة وجمال لا يقلان عن أحسن صور رفائييل، وجودهم يجعل الناظر يتخيل أنهم يرعون بصلواتهم وجودها القدسي. بدت العذراء مستندة إلى طائفة من الملائكة كأنهم مصابيح تنير السماء، أجسادهم الفتية العارية تسلب الالباب، أولئك هم أجمل الفتيان والفتيات العراة الذين صوروا في الفن الإيطالي قاطبة.

عندما أتم الفنان عمله، ورأى رجال الكنيسة القبة للمرة الأولى روعهم مشهد القبة، وصاح كبيرهم: ما هذا الخليط من اللحم البشري العاري وما هذه السيقان المحيطة بالعذراء لكأنها سيقان ضفادع مقلية! هذا ما رأته المخيلات الفقيرة المصدومة لرجال الكنيسة في تلك القبة ساحرة الجمال، أوقف العمل، واستقدمت الكنيسة الفنان تيشان من البندقية ليحكم في الأمر، وكان كبير فناني عصره.

ذهل تيشان لما رأى في قبة الكتدرائية من روعة الفن، ولما حان الوقت ليحكم في ما رأى، قال لرجال الكنيسة المروعين: انشروا هذه القبة واقلبوها واملأوها ذهباً، وقدموها جائزة لكارجيو، ولن تكون هذه الجائزة بكافية.

جزنا القبة لنطوف على أماكن الصلاة وركن المرنمين. ثماني سنوات قضاها كاراجيو في تزيين الكتدرائية لتكون التحفة التي نراها الآن، ولم يكن مضى على وفاة دافنشي أكثر من ثلاث سنوات عندما شرع كاراجيو في العمل.

ودعنا السيدة العذراء وحواريها الطائفين من حولها، والجمال الخالد، ومضينا لتناول وجبة غداء خفيفة في مطعم قريب. قالت الدليلة ما دمنا في بارما، فلنجرب جبنة البارميجانو العريقة، صناعتها لا يبز البارميين فيها أحد. ولذلك تحمل اسم المدينة، وهي تمتاز بنكهتها الغنية والمعمقة، وبلونها الذهبي، إنها الجبنة التي تزين أطباق السلطة الإيطالية وتبشر مع الباستا اليوم في كل المطاعم الإيطالية في العالم. ولكنها تزين خصوصا طبق التورتيللي الذي تمتاز به بارما. ووجبتنا اليوم كانت هذا الطبق.

تشتهر المدينة أيضا بطبق بروشيتو دي بارما، والتورتا فريتا وغيرها من الأطباق اللذيذة، وكسائر المدن الإيطالية تفاخر بارما بالجيلاتو، أو الايس كريم البارمي.

خلال تجوالنا في المدينة زرنا قاعة دي سان باولو ومتعنا النظر بجداريات كورّيجّو وبرسم له فوق المدفأة لإلهة الصيد ديانا في عربة فخمة. رسم فوقها، في ستة أجزاء متقاطعة تلتقي كلها عند السقف المستدير، مناظر مستمدة من الأساطير القديمة، في أحدها طفل يداعب كلباً ويظهر نحوه أعظم الحب، ونحن نستعرض جداريّات كورّيجّو المهيبة الرائعة، انتابني شعور قوي يقول: لكأنه فرغ من رسمها للتوّ.

أن تكون في بارما أيضا فأنت في المدينة التي أنجبت كوكبة من المبدعين الكبار، منهم الموسيقار فيردي، والمايسترو توسكانيني، والسوبرانو نيللي كورادو، وفرانشيسكا كوتزوني، وعلى قمة هرم هذه الأسماء وغيرها من أبناء المدينة يتربع برناردو برتولوتشي ساحر السينما الإيطالية. أتجول في شوارعها وأتساءل: كيف تشكلت تلك المخيلة الاستثنائية لهذا السينمائي العظيم، ما الذي طبعته في ذاكرته الطفولية وبم أمدته هذه المدينة الصغيرة من خيالات ليبدع تلك الصور المرهفة للجمال والقوة في أفلامه، جمال المرأة والجمال الإنساني وجمال الطبيعة، والأفكار العميقة الصادرة عن وجدان عميق. إنه أحب المخرجين الإيطاليين إلى نفسي، علاقتي بأفلامه بدأت مبكرة. من أوائل الأفلام التي شاهدتها له "التانغو الأخير في باريس"، كان ذلك خلال سنوات دراستي الصيفية في بريطانيا، في الفيلم مشهد يخاطب فيه بول (مارلون براندو) جثمان زوجته، يجمع النقاد على أنه أروع مشهد درامي في تاريخي السينما. ومعروف أن التاتغو الأخير في باريس حصد 9 جوائز أوسكار.

خلال دراستي الجامعية في لوس أنجليس شاهدت ثلاثيته "الامبراطور الأخير" و"السماء الواقية"، و"بوذا الصغير". وعلى رغم أنني شاهدت أفلامه كلها إلا أن الفيلم الذي أؤثره هو "سرقة الجمال" الذي يتغنى فيه بالجمال الإيطالي. وخلال جولاتي طفت في توسكانا على الأمكنة التي صور فيها هذا الفيلم.

**الفصل السادس:**

إيميليا رومانا/ **بولونا**

**الوصول إلى بولونا**

وصلت إلى بولونا قادما من ميلانو، ها أنا ذا في المدينة التي ولد فيها الرسام أنابيل كاراتشي في القرن السادس عشر الذي سحرت بأعماله التي شاهدتها في متحف المدينة، وسبق أن شاهدت بعضاً منها في متاحف روما وباريس ولندن، هنا درّست نوفيلا دندريا الطب في القرن الرابع عشر وبلغت من الفتنة، كما رُوي، أنها كانت تتقنّع لئلا يشغل الطلاّب بجمالها عن المحاضرة، ونالت في جامعتها أول امرأة في أوروبا إجازة في الفيزياء في القرن الثامن عشر هي لاورا باسي، وولد فيها والشاعر جيوفاني باسكولي في القرن التاسع عشر، ودرس فيها امبرتو إيكو في القرن العشرين. ومما تعتز به هذه المدينة أنها احتضنت أقدم جامعة في أوروبا في القرن الحادي عشر، كانت قد بدأت كجامعة للقانون، وكانت من أوائل الجامعات التي تحررت من هيمنة الكنيسة. هنا حاضر بترارك ودانتي اليغييري وكوبرنيكوس، وهنا تشكل أول مفهوم أوروبي للحرية في العصور الوسطى، ومنحت الشهادات العلمية، وماتزال الجامعة تحافظ على إرثها المتميز إلى اليوم. زرنا قاعة التشريح المهيبة، وتتميز بتصميمها المعماري الرائع ونقوشها الخشبية، حيث توضع الجثامين على مشرحة تتوسط القاعة، وقد انتظمت المقاعد من حولها بطريقة تتيح لكل طالب أن يتابع من مقعده ما يجري في الوسط.

تتميز بولونا بالممرات المسقوفة التي تمتد لكيلومترات وتقى السائر من الشمس والمطر، وهي اليوم قبلة أنظار الزائرين. قصدنا نافوررة بلوتو كان الثلج قد تجلد على تمثال نبتون وشكلت المياه المتجلدة رؤوس رماح وأنصال سكاكين فبدى نبتون وكأنه فارس أبيض مدجج بالسلاح. وبولونا مدينة أصغر من فلورنسا وأكبر من مودنا، ولكنها مدينة الأبراج التي تعود إلى العصور الوسطى، وكانت تبنى من قبل العائلات الغنية وتستخدم لأغراض الدفاع وترمز إلى القوة والثراء، ولم يبق منها اليوم سوى برجين يذكران بماضيها التليد وتاريخها العمراني. على أطراف بولونا تنتشر مصانع السيارات الفاخرة مثل لامبرغيني ومزاراتي ودوكاتي.

قصدنا مطعم دوناتيللو الذي يقدم اللازانيا التي تشتهر بها المدينة، كان الجو صقيعاً، وما أن دلفنا نننشد ركنا دافئاً حتى ملأت أسماعنا أغنية "باردة يدك الصغيرة" من أوبرا "لابوهيميا" لبوتشيني:

**يا لليد الصغيرة جمدها البرد**

**دعيني أدفئها لك..**

**ما جدوى البحث عن نار في الظلمة...**

**من حسن الحظ أن الليلة مقمرة،**

**والقمر هنا قريب.**

تشتهر المدينة أيضاً بالتورتيلي دي برودو يتكون من المعكرونة المحشوة باللحم المغمس بالمرق وهو طبق يعود إلى القرن السادس عشر وتجتمع عليه العائلة في الأعياد.

على مقربة من بولونا ولد أحد سحرة السينما الإيطالية باولو بازوليني، صاحب الثلاثية السينمائية المستمدة من ثلاثة كتب: ديكاميرون لبوكاشيو، وحكايات كانتربري لتشوسر، والليالي العربية المستمدة من ألف ليلة وليلة، وقد أطلق عليها "ثلاثية الحياة". هذه الثلاثية التي أعيد نسخها مؤخراً تشتهر بكونها عملاً سينمائياً بارع التصوير والسيناريو والإخراج، مزج به بازوليني بين الواقعي والسحري واستكشفك عالم الإيروتيك.

ختاما هذه الأسطر من باسكولي:

**زوارق صيد صغير ة في أعالي البحار**

**بيضاء بيضاء**

**كنت أراها تختلج كأنها اللعب..**

**زوارق صيد صغيرة تحت الأشرعة**

**سوداء سوداء يا ذكريات ظلال من أحلام بحق السماء.**

**سيسيليا قبلة الزائرين في بولونا**

تسكن سيسيليا قبلة الزائرين في متحف الفنون المعاصرة في بولونا، هذه إذن هي اللوحة التي وقعت عليها عين غوته، وها أنذا ألتقيه عند مفترق طريق، وأسمعه يهمس: ابتداء هناك لوحة سيسيليا للفنان رافائيل. أكدت لي عيناي ما كان ذهني يقرّ به دوماً: لقد أنجز هذا الرجل ما كان الآخرون لا يجرؤون على أكثر من أن يحلموا به. ترى ما عسى يقول المرء عن هذه اللوحة بخلاف أنها بريشة رافائيل: خمسة قديسين في صف واحد ـ الأسماء لا تهم ـ صُوّروا رسماً على نحو يبلغ ذروة الكمال بحيث إن المرء ليرضى بأن يموت لتوه طالما بقيت هذه اللوحة خالدة إلى الأبد.

وكان سبب رسمها أن سيدة من بولونا أعلنت في خريف عام 1513 أنها سمعت أصواتاً سماوية تأمرها بأن تقيم معبداً للقديسة تشيتشليا في كنيسة سان جيوفاني دل منتي، فتعهد أحد أقاربها بأن يبني المعبد، وطلب من رافائيل أن يقوم برسم لوحة للقدّيسة، فأنجزها، وأنفذها إلى بولونا.

عندما مثلت وصاحبي أمام اللوحة كدنا نسمع نغما سماويّا ينبعث من آلاتها الموسيقية. كان ثمة فريق من عباقرة الفن أعظم شأناً من رافائيل، وعلى سبيل المثال لا الحصر كان ميكلانجلو أفضل منه في رؤيته الفنية وأشد تأثيراً في زائريه، وكان ليوناردو أكثر منه عمقاً وأرهف شعوراً في تحليل ما يصوّره، وكنّا مع جورجوني نتذوّق عذوبة الدنيا بأكثر مما نتذوّقها مع رافائيل، أما عظمة رافائيل الحقة وما يشدنا إلى تصاويره فهو شيء آخر غير هذا كله، إنها تلك الموهبة في تصوّره للرؤية المثالية التي تنطوي عليها مخيّلة الفنان، لا تلك التي تقع عليها عيناه في الواقع. وما نظن أحداً باراه في مخيّلته العظيمة في تصور الأشياء إدراكاً، ومستوى، ومدًى. فقد كسا القصص الديني، توراة وإنجيلاً، بثوب من الكلاسيكية، فأصبحنا نشعر حين نتطلع إلى تلك الصور كأننا نقرأ التوراة والإنجيل سابحين في خيال يوناني. فما أعظمها من قدرة، تلك التي وهِبها رافائيل على "أغرقة" الديانة المسيحية التي كانت بطبيعتها أبيّة على الأغرقة. كانت نشأة رافائيل في إقليم أومبريا، وتلقّى دروسه الأولى على يد بيروجينو، وعندما أمّ فلورنسا في تلك الفترة كانت شهرة ميكلانجلو وليوناردو آخذتين في الذيوع والانتشار، كان رافائيل يومها في العشرين من عمره، ولم يكن يدري ما يخبّئه له الدهر في ظل هذين العملاقين، فكان أول ما فعل ليبلغ ما يطمح إليه أن خلف وراءه ما تعلمه في إقليم أومبريا متّجهاً بكل طاقاته إلى النهل من المذهب الفني الفلورنسي، وإذا به، في فترة وجيرة، يقطع شوطاً بعيداً في تطوير أسلوبه الفني، وأصبح فنان أومبريا العاطفي فنان المشاهد الدرامية الرائعة، فنّان روما الجديد.

**راعوث أمّ النبيّ**

راعوث مؤابية في بولونا،

عهدتك أرملة صبيّة هجرت وطنها وأهلها إلى بيت لحم مع عجوز تدعى نعمي راحت تدبّر لك أمرا. قلتِ لها وقد أغراك ما تكتمه: شعبك شعبي، وإلهك إلهي، وحيثما متّ أموت. فأرسلتكِ الكنّة نعمي، عند حصاد الشعير في بيت لحم إلى حقل رجل موسر يدعى بوعز، لتحصدي مع عبيده وخدمه السنابل. وعندما دعاك، سجدت له سجودا على الأرض، فباركك الشيخ. وما زلت تلازمين فتيات بوعز حتّى انتهى حصاد الشعير والحنطة.

ثم أوعزت لك نعمي أن تغتسلي وتدّهني وتلبسي الثياب، وأن تنزلي إلى البيدر. وقالت: ادخلي على الشيخ متى اضطجع واكشفي ناحية رجله، واضطجعي. وعندما فعلت، أفاق فرأى صبيّة عند رجليه فقالت: ابسط ذيل ثوبك على أمتك لأنك وليّ.

وهكذا حبلت بعوبيد جدّ داود النبي. وصار لك سفر من الأسفار يسمّى باسمك.

سأنحّي هذه الرواية جانبا، فنحن في بولونا؛ لا أنت أيتها الجميلة راعوث ولا أنا بوعز؛ أنت روث هايز، من إيميليا رومانا مسحتها شمس إيطاليا، وهذا القوام العاري النبيل من الأرض ذاتها، وحقول الشعير والحنطة غير بعيدة من حيث تسكنين. فيا أيها الزائر الميّمم بولونا، سألتك أن تلم بروث الشهيّة حارسة متحف الفنون المعاصرة في بولونا وأن تقرئها منّي التحيّة والسلام.

**لا بيفانا ساحرة الكريسماس الإيطالية**

قد لا يعرف بعض المهتمين بالتاريخ أن أصل احتفالات البيفانا يعود إلى أيام الرومان واعتناق المسيحية وربما إلى أقدم من ذلك. كان الرومان يحتفلون كل عام بأعياد الشتاء ويخلدون إلى الراحة حين يدب البرد الشديد وتتوقف الأعمال الزراعية، فيختارون تمجيد آلهتهم بالطعام والشراب، وربما تأثروا باحتفالات الأقدمين في بلاد البابليين والآشوريين الذين كانوا يقدمون القرابين إلى عشتار آلهة الخصب. حين انتشرت المسيحية في إيطاليا اقتبست الكنيسة بعض الأعياد الرومانية خاصة بعد الخلاف حول يوم ولادة المسيح. فاختار الكاثوليك يوم 25 ديسمبر/كانون الأول، والارثوذوكس 6 يناير/كانون الثاني حسب السنة الميلادية المسماة الغريغورية فصادف يوم 6 يناير يوم البيفانا.

وقصة البيفانا تفيد بأن الساحرة رفضت مرافقة وفد كان يبحث عن الطفل يسوع، ثم ندمت فيما بعد، فقررت زيارة سائر البيوت بحثا عن الطفل المحبوب لتقدم له الهدايا.

وسواء كان الدافع دينيا أم احتفاليا فالمهم أننا سنرى حسب التقاليد مئات من المحتفلين اليوم بألبسة تعود الى القرون الوسطى وهم يطوفون الشوارع في أجواء تغلب عليها الفرحة والتآلف.

وإذا كان "أبو الميلاد" أو ما يعرف ببابا نويل الفنلندي بلحيته البيضاء الناعمة وبزته وقبعته الحمراوين، شخصية ارتبطت لدى الاطفال باحتفالات عيد الميلاد، فإن 'لا بيفانا' الايطالية ترتبط لديهم بعيد الغطاس حيث تحمل اليهم هداياها وعطاياها من الحلوى. ويقول المثل الشعبي الايطالي أن لابيفانا "تذهب بجميع الأعياد" أي أنها تختتم فترة ال12 يوما من الاحتفالات بعيد الميلاد التي تبدأ في ليلة ال25 من ديسمبر من كل عام. ويمثل هذا العيد الذي يواكب عند بعض الكنائس الشرقية الاحتفال بالميلاد، والظهور والتعميد في إيطاليا، الاحتفال بسجود ملوك المجوس الثلاثة أمام المسيح الوليد الذي حملوا إليه الهدايا احتفالاً بميلاده.

وفي عدة دول يتم إحياء هذه المناسبة في إطار فولكلوري، بما يشتمل على مظاهر ورموز مثل إشعال نار عالية اللهب في بلدان أوروبا الشمالية. وفي إيطاليا يكون هذا العيد مناسبة يتلقى فيها الأطفال الهدايا التي تحملها إليهم لا بيفانا، وهي تظهر بهيئة عجوز قبيحة مرقعة الثياب تحمل على ظهرها جعبة كبيرة وتسافر على ظهر مكنسة، وتترك هداياها للاطفال في ليلة السادس من يناير من كل عام في جوارب مرتقة تملؤها بالهدايا والحلوى مكافاة للأطفال الطيبين المطيعين النشطين، وإن كانت تخلطها بقطع من الفحم الأسود للأطفال الشياطين، وهي أيضا حلوى من السكر كرمز مجازي على ما اقترفوا من شقاوات ومن سوء الأعمال طوال العام المنصرم.

وفي المدن الإيطالية المختلفة، كما في مدينة فلورنسا المحافطة على تقاليدها التاريخية، تزف دمية كبيرة تصور لابيفانا العجوز بمظهرها المضحك، في موكب كبير تحرص زعامات المدينة وشخصياتها الدينية على المشاركة فيه، ليجوب المدينة، حيث تقوم خلاله بتوزيع قطع الحلوى على الصغار الذين احتشدوا لتحيتها.

وفي شمال إيطاليا وعلى سفوح جبال الألب، حيث توجد أقلية من أصول ألمانية تحتفظ بتقاليد شمالية، يتم إضرام النار في الدمية وسط احتفال يعمه الرقص والمرح، مع اقتراب الليل إيذانا بقدوم العام الجديد.

لا يعرف المؤرخون بدقة في أي مكان من إيطاليا ولدت لابيفانا إلا أنهم يعودون في بداية الحديث عن هذه الشخصية إلى القرن ال12، حيث أصبحت منذ ذلك الحين أكثر الشخصيات المحببة إلى قلوب الإيطاليين، وخاصة الأطفال. ويعتقد الكثير من الصغار في أيامنا هذه أن لا بيفانا التي تقطن عند القطب الجنوبي من الكرة الأرضية هي زوجة بابا نويل الذي يعيش عند القطب الشمالي، وهو لا يتمكن عادة من إجابة أمنيات جميع الأطفال الذين انتظروه ليلة عيد الميلاد في 25 ديسمبر، فتقوم هي بمراضاة الأطفال في السادس من يناير.

اذكر هنا أنني شهدت وصاحبي احتفالات لا بيفانا للمرة الأولى في مدينة بولونا وهناك بدأت البحث عن أصل هذا الاحتفال

**ريميني فيلليني**

كان لا بد من بلوغ ريميني في إيميليا رومانا لثلاثة أسباب أولا لأنها كانت مسرح لقاء ثلاث شخصيات تاريخية مضيت في إثرها وعلى خطاها، أولها تشيزري بورجيا ابن البابا الكسندر السادس وأمله في توحيد إيطاليا، وثانيها مهندسه العظيم ليوناردو دافنشي، أما الثالث فهو ميكافيللي رسول فلورنسا التي كانت ترتعد من طموحات تشيزري وتريد بدهاء صاحب الأمير دفع شر بلاء ابن البابا، فالظروف يومذاك كانت مهيئة تماما لتحقيق تلك الطموحات وبسط سلطته على إيطاليا، لولا ما كانت تخبئه له الأقدار في السنة التالية. كان ليوناردو في أغسطس 1502 في حركة دؤوب في رسم مخططات البلدات التي ستسقط كثمار أينعت في يد الأمير شيزري، فكان ليوناردو يصمم الجسور ويحفر الأنفاق ويقيم القناطر ويرسم بعينه الثاقبة خطط المدينة.

الأمر الثاني الذي حملني على زيارة ريميني أنها كانت المدينة التي شهدت مولد عبقري السينما الإيطالية فلليني وملعب صباه وقد خلدها في فيلمه ذائع الصيت أماركورد أو "أتذكر". لدى دخولي المدينة استوقفتني على نحو غريب عربة بوليس ربما لما كان فيها عربتي من متاع وحقائب بينها كثير من الكتب. تحققوا من أوراقي الرسمية ورخصة السير، وسبب زيارتي. دخول مقبض ولا يليق بمدينة ساحرة كريميني.

أقمت في فندق معتم وكئيب، كل ما فيه كان يحثني على المغادرة. في مأدبة العشاء الغنية بأطباق السمك على انواعه، قالت الدليلة إن ريميني على الساحل الشرقي من البلاد منتجع تؤثره العامة من الطليان، يقابله فورتي دي مارمي على الساحل الغربي وتؤثره طبقة الارستقراط.

في الصباح قمنا بجولة سريعة في المدينة، ولاحظنا أفواج السياح ينتشرون على الساحل وكان جلهم من الإيطاليين.

جمال المدينة وسحرها والجمال الفاتن للإيطاليات اللاتي يزين بأجسادهن شواطئ المدينة كل هذا لا يضاهي بحال ما خلده فلليني في "أماركورد" فيلمه الرائع المستمد من مرئيات طفولته وصباه وسيرته المبكرة. كأنه سلب المدينة سحرها وأودعه في شريطه السينمائي. هذا الفيلم الذي انتجه في 1973 يستلهم فيه المخرج ذكريات طفولته ولكن ليس بسرد مباشر بل عبر جملة من المشاهد والمناظر المتتابعة في ريمي إبان الحكم الفاشي في ثلاثينيات القرن الماضي. لم يكن فيلليني يريد أن تكون للفيلم حبكة تقليدية ولكن مشاهد كوميدية مؤثرة من الحياة اليومية لسكان البلدة ابتكرت مخيل فيليني له صبيا يدعى تيتا وعائلته وأصدقائه، ومن خلال عيون هذا الصبي نقع على شخصيات وتجارب مختلفة تعكس النسيج الاجتماعي للبلدة من حياة الأسرة إلى المدرسة، ومن الكنيسة إلى تجمعات الأهالي، ومن مغامرات المراهقين إلى التأثير الساحق للأفكار الفاشية على حياة المجتمع.

يمتاز الفيلم بأسلوبه البصري الفريد وتصويره النوستالجي الساخر لشباب المخرج ونقده لإيطاليا الفاشية. يجمع بين الواقعي والسريالي والحلمي. فاز الفيلم بجائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي عام 1974، وهو بلا شك إحدى تحف فيلليني.

إن ريميني كما رأيتها لم تكن سوى واحدة من المدن الإيطالية، قد نجد فيها ما نجده في تلك المدن. أما ريميني فيلليني، وعلى رغم أنه صورها في استديوهات روما على الطراز التي كانت عليه في طفولته، فهي المدينة التي لا نظير لها بين المدن. إنها مدينة المخيلة وهذا ما يؤكد أن الإبداع يتفوق على الواقع.

أما السبب الثالث في رغبتي بزيارة ريميني فدافعه تلك القصة المؤثرة التي أوردها دانتي في النشيد الخامس من "جحيمه" المخصص في الكوميديا الإلهية لعقاب عبيد الشهوات، وتحكي قصة فرانشيسكا دا ريميني التي اقترنت بجوفاني مالاتيستا سيد ريميني وكان، كما يشاع، دميماً فوقعت في حب أخيه باولو، وتقول الرواية أنهما كانا يقرآن معاً قصة حب الفارس لانسلوت وجينفر، وفي السطور التي تتحدث عن قبلة العاشق للعاشقة هاجت بهما العاطفة وذهبا في قبلة محمومة، وهكذا وقعت فرانشيسكا في حب شقيق زوجها باولو وكان بخلاف أخيه وسيما. ولما اكتشف الزوج المخدوع خيانتهما قتلهما ثأراً لشرفه وكبريائه.

في هذا النشيد تبوح فرانشيسكا لدانتي بالسبب الذي أوقعها في الحب، وهنا نكتشف وجها آخر لسطوة الأدب مقابل سطوة الفن في السينما، فها هي السطور الأدبية التي تصور قبلة الفارس لانسلوت للملكة جنيفر في الحكاية الإنكليزية تجعل من فرانشيسكا وباولو يريان نفسيهما في صورة الفارس والملكة، فتضطرم فيهما نار الحب. والواقع أن واقعة فرانشيسكا وباولو بعثت في دانتي الأسى إلى درجة الإشفاق على هذين العاشقين فأبدع في تصوير مأساتهما.

ولئن تساءلت مستغرباً السبب الذي جعل دانتي يحشر هذين العاشقين في الجحيم وهو الذي لم يخفي شفقته عليهما، فلعل السبب في أن دانتي كان ابن برج السرطان الذي يتميز مولوده بتقديس الأسرة والدفاع عن كينونتها.

**بازوليني وكائنه العملاق**

بعد بحث وتمحيصِ كبيرين، تمكّنت من الحصول على كتابَ "ألف ليلة وليلة" في صورتِه الكاملةِ، أما التمحيص فبسبب أن الكتاب له مجموعة روايات بعضها ادّعى كمال النصّ وتمامه، وبعضها اعترف على استحياء أنه قام بتشذيبه وتخليصه مما يمكن أن نصطلح عليه بالعبارات التي تخدش الحياء أو تلك التي لا يمكن التخلّص منها من دون الإساءة إلى النصّ، بوصفه وثيقة، في شكل من الأشكال.

إنه نصّ مكتوب باللغة العربية ولكن بوسعنا اعتباره نصّا يمثّل حالة الثقافة العربية في محيطها الإسلاميّ الواسع، وهو الأمر الذي سنلمسه من خلال مجموعة من المذوّبات الفارسية والهندية فيه.

نستطيع التأكيد أن الثقافة العربية المعاصرة تعاملت مع النصّ بكثيرٍ من الحذر والتشدد، وأحيانا بتعسّف لا يبرّره سوى هذا الراهن الذي استطاع وببراعة كاملة أن يخلق قطيعة مع ماضيه.

فكيف لنا أن نعمل على تصديق أن ما آل إلينا من مخطوطات للكتاب يعود بعضها إلى العصر العباسي، وأن الطبعات الأولى في البلدان العربية كانت في منتصف القرن التاسع عشر في الوقت الذي لا نجد أحداً يمتلك القدرة على الحديث عنه بصورته الكاملة ومن بعضها الصورة التي تظهره كنسيج حكائي معزول عن التدخل فيه بأدوات الفقهاء التقليدية من تحليل وتحريم وإجازة وإباحة.

صناعة الكتاب شأنها في ذلك شأن صناعة السينما، كلّها أصبحت وفق الراهن المعاصر مغلولة وغير قادرة على التعامل مع النصّ بحيادية بالطريقة التي وصلنا بها.

لا أريد تناول ما تركه الكتاب من تأثيرات في آداب الشعوب الأخرى وتحريضها على ارتياد مناطق لم تكن لتعرفها لولا وجوده، لما يتميز به في بعده الحكائي وطريقته في تشظية طائفة من الحكايات انطلاقاً من بؤرة مركزية نصيّة واحدة ثم تحوّل الحكايات ذاتها إلى بؤر جديدة وتشظّيها بدورها في حبكة درامية متينة.

علينا التسليم إذن أن السينما العربية في المحيط الذي أنتج كتاب ألف ليلة وليلة لم تكن قادرة على أن تنقلب على ذاكرة هذا العصر، وبذلك لا يمكننا انتظار أن يحدث هذا الشيء لسنوات وربما لعقود كاملة، وقد لا يأتي هذا الزمن أبدا بالنظر إلى طبيعة المجتمعات العربية وتحوّلاتها والنماذج التي سعت إلى تكريسها.

لذا لم يظهر المحتوى الجنسيّ الصريح للكتاب إلا في صناعة السينما خارج المجال الجغرافيّ والإجتماعيّ لألف ليلة وليلة.

كانت المرة الأولى مع فيلم "زهرة الف ليلة وليلة والذيّ أعدّه دراميا للسينما وأخرجه المخرج الإيطالي بازوليني في عام 1974.

ليكون آخر أجزاء ثلاثيته التي أطلق عليها "ثلاثية الحياة"، وكان أولها كتاب حكايات الديكاميرون الإيطالية لبوكاشيو، ثمّ حكايات كانتر بري لتشوسر الإنجليزية، وكتاب ليالي ألف ليلة وليلة العربية.

يمنح الفيلم في صورته التي وصلتنا تصوّرا عن الرجل والطريقة التي كان يحكم فيها صنعته كمحاولة للإشارة إلى ما أنتجته الشعوب من أدب شعبيّ يمتلك تلك السطوة على تخريب أمثولة الآداب التي أنتجتها المؤسسات، فهنا يضع المتلقي أمام ثنائية الشعبي والمؤسساتي وينتصر بدوره للأول على الثاني، لأن الأول يشتمل على جرعة كبيرة من المسكوت عنه، ومما لا يمكن للمؤسسة بكل آلياتها المعقّدة والمركبة أن تقترفه، أو حتى أن تقترب منه، ناهيك عن أن تسمح به.

لقد كان فيلما لا تنقصه الجرأة والغرابة والبعد السحريّ الذي تفرزه المخيّلة الشعبية في محاولتها لتخريب البنى المتواترة وربما الموروثة وتخليص صناعة السينما من محافظتها على مستوى الصورة.

دعوت أصدقاء لي لمشاهدة جانب مما أنجزه بازوليني واقترحت عليهم النقاش حول رسالته وطبيعة خطابه السينمائي.

كان فيلمه حكايات كانتر بري لشوستر، ولست هنا في معرض حديث لنقد الفيلم ولكن لبيان ما قدّمه هذا الرجل الذي يُعدّ شاعرا وروائيا ومتمرّدا قضى بطريقة وحشية بعد عام على انتاج فيلمه "الليالي العربية" ألف ليلة وليلة في عام 1975، في جريمة لا تزال غامضة.

وفي معرض الحديث عن الرجل وطريقة استلهامه لحكايات كانتر بري وجد البعض أن الطريقة التي قتل فيها شبيهة بما انتهى إليه مصير كاتور في واحدة من حكايات شوستر ، حيث أن الشهداء يموتون في الغالب مصلوبين وممزقين.

يحرص بازوليني في عمله على إظهار ثقافته الموسوعية كمحاولة لمنح المشاهد جرعة إضافية لمعرفة وإدراك وجوده، فنجده مثلا يختار مشهدا نتمكن من اكتشاف خلفية لدانتي تقف وراءه، عندما تندفع مجموعات من الرهبان من مؤخرة كائن جحيميّ عملاق.

لم يُقدّم الجنس بمثل هذا الحسّ المرهف قبل بازوليني، برغم وجود إرث سينمائيّ سابق عليه، وهو أمر لا يمكن نكران تجاوزه ، ولكن الرجل كان يدرك أن تسييل الموروث الحكائي الشعبي في إناء الثقافة المعاصرة يجعل من إمكانية صناعة السؤال أكثر قبولا.

فهي حكايات راجت كثيرا في زمنها وامتلكت الطاقة والقدرة على الوصول إلينا، فصرنا ملتبسين إزاء التعامل معها.

ولكن بازوليني لم يكن كذلك، كان يرى ما يريده منها، ولقد أراد أن يجعل هذه الحياة تخرج من إطارها التدويني إلى إطارها البصري سينمائياً .

لا يخفى أن صراعا خفيا وكامنا كان موجوداً وحقيقياً وله دوافع كثيرة بين بازوليني ونظيره فلليني، وهو صراع في السياقات ذاتها، ولكن بالرغم من هذا يتيح لنا الإقتراب من عالمي الرجلين أن ندرك أن هناك اختلافاً جوهريا بينهما.

إن قوّة وفرادة بازوليني تكمن في أنه حاول أن يتعامل مع الآخر لا كسياق معزول عن إرثه وذاكرته، بل بوصفه جزءا منهما، وهو ما قاده إلى استلهام أهم الأعمال الأدبية التي شكّلت الوعي لأجيال مختلفة في جغرافيات أوروبية وآسيوية، لكأنه اراد أن يدخل زمننا من بوابة لم تعد مرئية جيدا أسمها الماضي، بعد أن يخضعه للغة معاصرة لا تجعله كائنا غريبا ومشوّشا، بل جزءاً أصيلا من الواقع الجديد.

وهكذا لم يعد يمكننا استعادة الديكاميرون، وحكايات كانتر بري وألف ليلة وليلة من دون أن نعود إلى بازوليني.

لقد جعلها مرتبطة به على نحو ما، وكان ذلك رهانا كبيرا وشاقا، ولكنه نجح فيه، وها نحن نصافحه بحرارة في صالة السينما الشخصية في الريف الإنكليزي حيث عدت إلى روائع بازوليني التي أجريت عليها حياكات تقنية بعد عقود مرت على ميتته الوحشية والفاجعة.

**"جالاتيو" و"آداب المواكلة"**

في الطريق بين بولونا وفلورنسا قرأ صاحبي علي صفحات من "جالاتيو" وهو كتاب في أدب المائدة وضعه ابن بورغو سان لوررنزو جيوفاني ديلا كازا سنة 1558 ويعتبر من أوائل الكتب الأوروبية في بابه، وانتشر في عموم القارة.

مما لفتني في الكتاب الذي تلوح عليه شبهة التأثر بكتب المائدة العربية، نصائح المؤلف في باب أدب السلوك على المائدة، من ذلك مثلا ضرورة أن ترتدي لباسا يليق بالمقام، أن تغسل يديك قبل الجلوس إلى المائدة، أن لا تملأ فمك بالطعام، وأن لا تصدر صوتاً وأنت تمضغ ما في فمك، أن لا تتحدث واللقمة في فمك، أن تكون لبقاً وتتجنب إذا ما تكلمت خشن القول، وأن تترك لغيرك فرصة الكلام، أن لا تغمس أصابعك في الصحون المشتركة، ولدى فراغك من الطعام، أن تستعمل المنديل لمسح فمك ويديك وليس ملابسك أو غطاء المائدة، وإذا ما تمخطت بعد الطعام لا تنظر في المنديل وكأنك تبحث عن جوهرة.

وبالمقارنة، بين محتويات هذا الكتاب وكتاب "آداب المواكلة" لبدر الدين الغزي الدمشقي من الحقبة نفسها، والقرن نفسه نجد أن كتاب الأخير أكثر تفصيلا وتدقيقاً وهو ما يعكس ثراء المائدة العربية في ذلك القرن، وفيه من الدعابة والأدبية الشيء الكثير، ومن طريف ما فيه أنه يصف أنماط السلوك المختلفة اختلاف الطبقات التي ينتمي إليها أصحابها. مثلا يذكر الكاتب من هؤلاء: الزاحف وهو الذي إذا قدم الطعام زحف إلى المائدة قبل الجماعة، والمجوع هو المضيف الذي يؤخر وصول الطعام إلى المائدة، والمشنع الذي إذا ما أراد التخلص من عظام أو نوى وضعها أمام جاره، والمبعبع هو من لا ينتظر ابتلاع اللقمة فيتكلم وهي ملء فمه، والمفرقع الذي لا يضم شفتيه عند المضغ، والرشاف الذي يصدر صوتا عند ازدراد الطعام، والدفاع الذي إذا جعل اللقمة في فيه أدخل معها اصبعه، واللطاع هو الذي يلحس أصابعه، والمعطاش هو الذي يشرب الماء واللقمة في فمه، والنفاخ هو من يتناول اللقمة وهي شديدة السخونة، والممتد هو الذي يأكل من صحيفة بعيدة. والجردبيل وهو من إذا رأى نقصا في الخبز تناول القطعة الكبيرة. والمسابق وهو من يهيء اللقمة الثانية قبل ابتلاع الأولى. أما حاطب الليل، فهو من لا يتأنى ولا يتأمل في ما يأكل ... والقائمة تطول.

**الفصل السابع:**

**ليغوريا**

**والريفييرا الإيطالية**

**إلى ليغوريا**

ليغوريا حيث السحران، الماري والمونتي، أو البحر والجبل، وما بينهما الريفيرا الإيطاليّة، وهي أصغر مقاطعات إيطاليا العشرين. فإذا كانت جنوة واسطة العقد، فبورتوفينو هي لؤلؤة الغوّاص. كانت في ما مضى قرية صغيرة نائية، واليوم هي محط رحال أثرياء إيطاليا وسياسيّيها، في فندق «السبلنديدو» حيث يطل عليك من الجدران أشهر نجوم هوليوود في الخمسينات: ليزا مانيلي، وهمفري بوغارت، وشارلتون هيستون، وديفيد نيفن، وغيرهم. ومن هناك يمكنك الحصول على أجمل إطلالة على البحر. وأمّا الطريق المفضي إلى الفندق فطالما قطعناه سيراً، رائحين من راباللو أو غادين إلى سانتا مارغريتا ليغورِهْ، في أجمل النزهات على ضفاف البحر.

 وإذا كانت بورتوفينو الغنيّة بالأسماك والأصداف والقواقع تنصب الكثير من مطاعمها فخاخاً للسيّاح الأجانب الذين لا يميّزون بين غثّ الوجبات من سمينها، فأطباقها الذائعة الصّيت متوافرة في الصفوة من مطاعمها المخبوءة بين الأزقّة، والتي لا يهتدي إليها الاّ الضالعون في تقصّي ما تجود به قرائح الطهاة الطليان. وحسبك ماريو الأسد، الذي كان ينفث سحره في مطعم «باتّي» حيناً من الدهر. إن طبق السلطان إبراهيم «رد مالوت»، مع زيتون «تاجّاسكا» المحلّي الشهير والباذنجان، يؤذّن في الناس ليحجّوا إلى ليغوريا من كل فجّ عميق.

**خليج الشعراء**

في طريقه إلى جنوه، وصف بترارك مدن الريفيرا الإيطاليّة بأنها تيجان تكلّل هامات الجبال المنحدرة إلى بحار لازورديّة، قال فيها الشاعر الشاب: "إنّها أشبه بالسماء منها بالأرض". فما وسع بايرون إلاّ أن هبّ إلى تلك الشطآن يجرّب فيها مواهبه في العشق والسباحة والشعر، فكتب في أحد مغاورها قصيدته "القرصان"، وكذلك شيللى الذي اختار أن يلقى هناك منيّته على غرار التراجيديا الإغريقيّة التي كان مولعا بها، فاحتفظ بنسخة من سوفوكليس وجدت في جيب بنطاله عند غرقه، أمّا مونتيل الحائز على جائزة نوبل في الآداب عن عام 1975 فقد آثر أن يوزّع أشعاره على أصحاب البقالات والمحلات وكأنه يعود بالشعر إلى رحمه الأولى.

ومن كوكبة النجوم تلك اشتّق اسم الخليج.

يحفّ بالخليج عقد من القرى أهمهّا وأجملها ***بورت فينيري***، وهي مفردة مركبة ومنحوتة من كلمتين: الأولى ميناء، والأخرى ربّة الحب فينوس. هكذا اختار الرومان الأوائل هذا المكان الرومانسي منتجعا يليق بالربّة، وأقاموا لها معبدا على هامة جبل، ما زال العشّاق منذ القدم وإلى اليوم يسترقون القبلات بين صخوره المشرفة على وجهها الكريم. وكان أهلها يرون أنه عند بوتوفينيري ينتهي العالم. ولكن الكنيسة سرعان ما استلهمت خطوط حمار وحش إفريقيّ مسحت به ظهر معبد الربّة ونسبته إلى القدّيس بطرس في 1277.

واليوم يبدو مثل جرم صغير فقد ذاكرته، ولا يسع الزائر إلاّ الشعور بمغناطيس فينوس الطاغي في كلّ مكان، وغياب أي أثر لبخور القدّيس.

ثمّ ***لا سبيزيا***، التي كانت يوما ما مدينة تعبق من بيوتاتها وأزقتها رائحة البحر والسراخس والأصداف والطحالب العالقة على الصخور، والتي منحت البحر صفاءه الخالص قبل أن تتحوّل لاحقا إلى ميناء صاخب، ومركز للأسطول الحربي الإيطاليّ، ففسد بذلك سحرها القديم. ولقد أنكرتنا كما أنكرناها، فالميناء والأسطول ملكان أفسدا القرية وذهبا ببهائها.

ومدينة ***ليرشي***، وهي المدينة التي أقام فيها الشاعر بيرسي شيللي، وربما فيها تحسّس موقع القلب في صدره قبل أن يفقده في رحلته الأخيرة. كما أقام بها لاحقا الروائي دي إتش لورنس.

ثمّ ***لوفيرنو*** التي أبحر منها شيللي في صبيحة يوم الثامن من يوليو عام 1822 مع زمرة من صحبه ولم يصل منهم أحد إلى ليريشّي.

 مات شيللي غرقا، وعُثر على جثته بعد أيام عند فياريجيو وقد تحلّلت على نحو جعل بايرون ينفر منها فزعا فسبح إلى سفينته البوليفار بعد أن حرق جسد الشاعر وانتزع صديقه تريلاوني [[6]](#footnote-6)القلب من الجسد الذي أحترق.

كتبت الصحافة البريطانية بعدما بلغها نبأ وفاته: "طوى الموت شيللي"، الشاعر الرقيق، والآن سيعرف إن كان الله هناك أو لم يكن. احتفظت زوجته ماري برماد قلبه، طوال حياتها، وبعد وفاتها دفن مع ابنهما فلورنس شيللي.

كان شيللي قد رثى قبل عام من موته بقصيدته أدونيس صديقه كيتس الذي قضى بمرض السلّ في روما، ورحّب في مقاطعها الأخيرة بالموت، ففي الموت راحته لأنه سيلتقي بالميت الحي كيتس:

**نور الله يشرق دائما، وظلال الأرض تزول،**

**والحياة كقبة مزدانة بكثير من الزجاج المعشّق**

**تلقي ظلالها على شعاع الأبدية الأبيض فتغير لونه**

**حتى يسحقها الموت فيهشّمها**

**أيها الموت إن كان هذا ما تطلبه**

**فلم تتوانى! لم تتراجع! ولم تحزن قلبي؟**

**الآن، وأكثر من أي وقت مضى، يبدو شيئا نفيسا أن تموت،**

**أن تتوقف أنفاسك في منتصف الليل بلا ألم،**

**بينما أنت تدفع روحك خارجك**

**في نشوة ما بعدها نشوة، وانجذاب يفوق كل وصف.**

كيف للجنة أن تكون إذا لم تعد فيها ***بورتو فينو***، لن تكون كذلك أبدا، كنت وصاحبي أتطلّع إلى مينائها والحياة التي تدبّ فيه، ومن ذلك المكان المشرف على الميناء رحت أرنو إلى سفن صغيرة راسية على الرصيف تخرج الحبال من خواصرها، كان المشهد عرسا من الألوان يشعرك بأن نبتون يرقص طربا. رأيت رجلا بقميص أحمر منهمك بجمع القواقع عند حافة زورقه، قلت لصاحبي وأنا أرمق الرجل والزورق: يقينا انه عاد لتوه بحصاد وفير من بلح البحر. ستكون هذه وجبتنا اليوم في بورتو فينو.

**سليلات أراكني**

عندما علمنا بوفاة ايميليو جوندوللني عرّاب عناكب رابالّو، حيث تُنسج أفخر أنواع الليس، وهو ضرب من النسيج المطرّز، انتابنا الحزن. قال جوزيبِّهْ إن العراب توفي في نوفمبر من العام الماضي، بعد صراع مع مرض مزمن. وهو ما جعلني اقتني بعض المنسوجات النادرة التي حرص العراب على الاحتفاظ بها لكون من نسجها لم يعد موجوداً، وبعضها أنجز قبل قرن من الزمن وأكثر، تجد فيها المناديل النادرة التي شغلتها أيدي حرفيين مهرة، وبينها مطرزات للموائد وأخرى أغطية للوسادات والأسرة. وما يمز ملمس تلك المشغولات شيء كثير من الرهافة والرقة والنعومة التي لا مثيل لها.

تشتهر راباللو بصناعة الليس وهي أنواع فاخرة من مشغولات النسيج الحريري منها والقطني تتقنها عجائز مدينة راباللو على أن هذه الحرفة باتت مهددة بالاندثار، فلقد شكا لنا الراحل أن الأجيال الجديدة عزفت عن استنزاف وقتها في حرفة تتطلب إلى الدقة وقتا وصبرا طويلين. صرت أعتز بالمشغولات التي اقتنيتها من هذه المدينة، وبت على يقين من أن عجائز راباللو إنما يتحدرن من نسل أم واحدة هي آراكني ذاتها التي تحدت براعتها الآلهة كما تتحدى فنون عجائز راباللو الزمن.

وكما جاء في الأساطير لم تكن أراكني من سلالة عريقة؛ فوالدها كان يصبغ الصوف، وهي استمدت شهرتها من فنها وحده، وصنعت لنفسها اسماً ذائع الصيت في جميع مدن ليديا. إعجابا بفنها الساحر هجرت آلهة الكرم كرومها وآلهة المياه ينابيعها.

لم يكن الممتع فقط رؤية الصوف وقد انتهت من نسجه، ولكن أيضًا رؤيته وهو يغزل بيديها. أنكرت أن يكون لبالاس فضل عليها أو أن تكون لها تلميذة. وصاحت بصوت عال ٍ: فلتباريني، وسأخضع لها إن هي هزمتني. اتخذت بالاس شكل امرأة عجوز، وغطت صدغيها بشعر مستعار أبيض، وحملت عكازاً تتوكأ عليه. ثم خاطبت أراكني قائلة: لك أن تدعي أنك الأمهر في نسج الصوف، لكن لا تدعي أنك تضارعين الآلهة. صلي لها وسوف تغفر لك. رمقت أراكني العجوز بنظرات شرسة وقالت: لماذا لا تأتي هي بنفسها؟ لماذا تتهرب من المباراة؟ قالت الربة: ها هي تأتي، ثم نزعت الربة أسمال العجوز وظهرت على هيئة بالاس. لم تشعر أراكني بالخوف. على الفور، قام كلاهما بإعداد النول، وبدأت كل منهما في نسج إبداعها الخاص. وعندما انتهيا بعد يوم عمل كامل، لم تتمكن الإلهة من العثور على أي عيب في تحفة أراكني، فمزقت القماش الملون، وفي ذروة غضبها، لفت حبلًا حول رقبة أراكني، ورفعتها، وعندما تدلت صاحت بها: «عيشي أيتها الشقية معلقة». ثم وهي تبتعد رمتها بعشبة سحرية، مسها السم المشؤوم، فتساقط شعرها، واختفى أنفها وأذناها، وتقلص رأسها، وانكمش الجسم كله، وباتت أصابعها شعيرات رفيعة ملتصقة بخاصرتها لتحل محل ساقيها، ولم يبق إلا بطن تستخرج منه الخيوط. وهكذا تحولت أراكني إلى عنكبوت.

**رماد شيللي**

كتبت الصحافة البريطانية بعدما بلغها نبأ وفاته: "طوى الموت شيللي"، الشاعر الرقيق، احتفظت زوجته ماري برماد قلبه، طوال حياتها، وبعد وفاتها دفن مع ابنهما فلورنس شيللي. كان شيللي قد رثى قبل عام من موته بقصيدته أدونيس صديقه كيتس الذي قضى بمرض السلّ في روما، ورحّب في مقاطعها الأخيرة بالموت، ففي الموت راحته لأنه سيلتقي بالميت الحي (كيتس): نور الله يشرق دائماً، وظلال الأرض تزول، والحياة كقبة مزدانة بكثير من الزجاج المعشّق تلقي ظلالها على شعاع الأبدية الأبيض فتغير لونه حتى يسحقها الموت فيهشّمها أيها الموت إن كان هذا ما تطلبه فلم تتوانَ؟ لم تتراجع؟ ولم تحزن قلبي؟ الآن، وأكثر من أي وقت مضى، يبدو شيئاً نفيساً أن تموت، أن تتوقف أنفاسك في منتصف الليل بلا ألم، بينما أنت تدفع روحك خارجك في نشوة ما بعدها نشوة، وانجذاب يفوق كل وصف.

كيف للجنة أن تكون إذا لم تعد فيها بورتو فينو، لن تكون كذلك أبداً، كنت أتطلّع إلى مينائها والحياة التي تدبّ فيه، ومن ذلك المكان الذي يشرف عليه كنت أرنو إلى سفن صغيرة راسية على الرصيف تخرج الحبال من خواصرها إلى قضبان حديد لتثبيتها، وكان المشهد عرساً من الألوان يشعرك بأن نبتون يرقص طرباً. رأيت رجلاً بقميصه الأحمر وهو منهمك بجمع القواقع على حافة زورقه، قلت لصاحبي وأنا أرمقه: ستكون هذه وجبتنا اليوم في "بورتو فينو".

**خبز وزيت ريكّو**

إنّ تكبّد عناء السفر إلى «ليغوريا» في إيطاليا لتناول قطعة من الفوكاتشا أعدّتها يدا أنبري (عنبر) هو عناء يسير إذا ما قورن بمتعة مذاق الخبز، إنّه خبز الآلهة.

أما الفوكاتشا فهي خبز اشتقّ اسمه من لفظ الموقد، وهو في شمال إيطاليا يوازي البيتزا في الجنوب، والاختلاف بينهما في التخمير؛ ففي الأولى تبقى الخميرة مدّة أطول فيصير الخبز قابلاً للتشرّب بزيت الزيتون، بينما يبقى السطح أصلب في الثانية. والفوكاتشا مشهورة في الشمال، وألذّها تلك التي تعدّ من الطحين الصافي. وتفتخر ريكّو بإعداد أطيب الفوكاتشا، وخصوصاً في مطعم مانويلينا الذي كنّا ضيوفه. أمّا اسم المطعم فهو اسم السيّدة التي عاشت في هذه القرية عام 1885، وكانت تعدّ لمن ألمّ بها ذلك الخبز مع جبنة الستراكّينو الطيّبة، خصوصاً أولئك الذين فاتتهم وجبة العشاء أو طرقوا بابها بعد منتصف الليل.

وجبن "ستراكّينو" هو من أجبان الشمال الإيطالي الفاخرة، ويصنعونه من حليب البقر بعد عودته من أعالي جبال الألب، وقد كدّه التعب فينتج حليباً أقل دسماً تشوبه حموضة. وتعتبر «ليغوريا» عقداً واسطته جنوة المشهورة بالتقتير والبخل، ولها ذراعان: شمالي متّصل بالريفيرا الفرنسيّة، وجنوبي ينتهي عند بورتو فينيري. ومن أشهر قراها «رابالّو» و"ريكّو ديل غولفو". وإذا يمّمت ليغوريا، عرّج على ريكّو وأقرئ عنّا مانويلينا السلام، وتذوق أطيب فوكاتشا تخرج من الفرن ساخنة كدموع العاشقين. في هذا المطعم الكائن في ريكو الحالمة، لطالما تناهت إلى أسماعنا أغاني الأوبرات الإيطالية الأشهر، كما هو الحال بالنسبة إلى أوبرا مانون ليسكو لبوتشيني التي استهل آريتها بـ:

**"وحيدة، تائهة ومنبوذة،**

**في هذا السهل المقفر**

**آه، يا لهوله!**

**ومن حولي**

**يظلم النهار. يا ويلي، كم أنا وحيدة!"**

**ماريو الأسد والسيّدة العقرب**

"أجزم بأنها عقرب"! قلت جذلا، فرد صاحبي بثقة قائلا: "وأنا أظنّها كذلك". ندهنا النادلة "أدا": ما برج مديرة مطعم "باتي"؟.. "لحظة، من فضلكما، سأسأل "ماريو"، قالت.. ثم غابت في سحابة من دخان المطبخ. وبعد لحظات عادت وقالت، كمن يزف خبرا سعيدا: "برج العقرب". فابتسم صاحبي: "ها نحن نصيب مرّة أخرى". تعرّفنا على مطعم "باتي" من سنين خلت، وهناك وقعنا على "السكامبي" الرائع في "بورتوفينو".

كانت "باتريتسيا" صاحبة الجاليري هناك، هي من أرشدنا إلى "باتي". ظللنا نستعيد ذكر تجربة طبق السكامبي هناك لشهور تلت. وكما يعود من يشرب نبيذ كيانتي إلى كيانتي، عدنا إلى بورتوفينو نبحث عن ضالتنا، طبق السكامبي الرائع. ولكن "باتريتسيا" لم تزفّ لنا أنباء طيّبة، عندما أخبرتنا أنّ الشيف "ماريو"، الطاهي الحاذق، ترك المطعم وحمل معه وصفة السكامبي السحريّة، وافتتح الـ"بادو" مطعما جديدا. "أصيب صاحب مطعم "باتي" بحادث أقعده"، أردفت "باتريتسيا"، "وتولت السيّدة زوجه أمر المطعم، فأقامت الدنيا ولم تقعدها، قدّمت وأخّرت حتى كادت تحول المطعم إلى حرب طروادية، وسرعان ما طال الأمر ماريو نفسه، فدبّ الخلاف بين السيّدة وبينه، فآثر السلامة واستقال، وأصبح له في سانتا مارغريتا ليغور مطعم مستقل يحمل اسم "بادو".

قصدنا مطعم ماريو على وجبة عشاء، وهناك رحنا نتجاذب أطراف الحديث مع النادلة "أدا" والنادل"إدريس"، الذي تعرّف علينا وحيّانا، وكان قد جاء استجابة لرغبة ماريو حتى يساعده تلك الليلة، فقد وفد عليه عدد من الزبائن أكثر مما كان متوقعا. همس "إدريس"، وهو شاب مغربيّ دمث، كان وما زال يعمل في "باتي": "جئت دون إخطار السيّدة، لأنها لو علمت ستكون نهايتي سوداء"، قال ذلك وابتسامة تعلو محيّاه.

 "إدريس" تمنى عللى الزبائن، الذين انتشروا حول أكثر من طاولة، بأن لا يفشوا للسيّدة سرّ وجوده هنا. فنحن في بلدة صغيرة. قال "إدريس": "الرجل المقعد ابن جوزاء طيّب القلب، ولكن السيّدة امرأته استبدّت بالأمر". وأضاف "كنت في بيته صباح هذا اليوم، وكانوا في شد وجذب كالعادة، فخرجت لا ألوي على شيء".

طبق الجمبري المخلّل ببصل تروبيا، طبق بسيط جدّا ولكنّه قطعا أعدّ على جبل الأولمب، لآلهة الأولمب، صنعه ماريو على عينه، يقدمه بدموع من الفرانشاكورتا، وعجّة زوكيني (كوسا) مع قواقع رائعة كذلك. ولكن الوصفة السحريّة، الوصفة التي يتميّز بها ماريو، هي وصفة طبق السكامبي الذي ترشف عصارته رشفا قبل أن يؤكل لحمه. فعندما يقدّم ذلك الطبق إلى الزبائن يتحول روّاد المطعم إلى أوركسترا من العازفين. يزكّي ماريو نبيذ الشيرفارو، مفخرة معصرة الأنتينوري، تلك القلعة الحصينة التي يقصدها حجّاج النبيذ، ويؤنس لياليها معشر الرجال الظرفاء من أتباع باخوس.

تذكرت حديث "باتريتسيا": "لقد حاول سكّان "بورتوفينو" فك شيفرة سكامبي "ماريو"، ولكنّ جهدهم ذهب أدراج الرياح كما يقولون، ولمّا سألنا "أدا" بهمس: "ما سرّ وصفة الجمبري العجيب ببصل تروبيا؟"، همست "أدأ" قائلة: "لمحت ماريو يقص الجمبري إلى شرائح ثمّ ينقعها في النبيذ ليلة كاملة..."، ولكنّها لم تتمم كلامها، لأنها سمعت وقع خطى ماريو يخرج من المطبخ. ولكون إفشاء أسرار وصفات ماريو مسألة حياة أو موت، فقد آثرت "أدا" السلامة.

عندما قفلنا عائدين مع "روبرتو"، السائق الحوت، ضحك ملء فيه كعادته وسأل وكأنه يتحدّث من جبّ: "كيف حال العشاء؟"، فقلنا له: رائع. "أكلتم السكامبي"؟ سأل روبيرتو، "رائع جدا" قلنا. كان روبرتو، ابن الثانية والخمسين، يبدو أصغر من عمره، فسألناه سبب ذلك، فقال: " إنّه جوّ بورتوفينو المعتدل". فقلت: أو لعلّه بفضل زوجتك". فعلق نافيا: إلاّ هذه، إنّها يا صديقي سبب بؤسي"، ثمّ أضاف: "أمّا عن السكامبي، فأنا ابن بورتوفينو، ولقد حاول أهالي البلدة جميعهم فكّ لغز سكامبي ماريو زمنا طويلا، ولكنّهم باؤوا بالفشل"، قالها وهو يضحك تلك الضحكة التي كانت كأنها تنبعتث من قعر محيط.

في العشاءات التي قضيناها في ضيافة ماريو في بادو، لفتني قلّة الزبائن. كنت أظنّ أن فصل الشتاء كان الحائل بين المعلم والجمهور، ولكنني علمت من جوليانو، صاحب مطعم "بالين" في سيستري ليفانتِهْ ذات مساء، بأن الطليان بدأوا يؤثرون الوجبات الأرخص، دأب السيّاح الأجانب الذين يملأون بورتوفينو ضجيجا في الصيف، لقد عزّت المطاعم التي تقدّم الوجبات الطازجة حتى إنّ قلّة من الصيادين يكبّدون أنفسهم مشقّة الصيد. "في سيستري ليفانتِهْ، هناك صيّاد واحد لا غير يزوّد مطعمين من غابة المطاعم في البلدة"، قال جوليانو.

في المشاوير الصباحيّة التي كنت أقطع فيها العشرة كيلومترات من راباللو إلى بورتوفينو والتي أحسبها أجمل المشاوير التي سرتها في حياتي، كم من المرات لمحت ماريو يقف وقفة الأسد (من مواليد برج الأسد) على باب "بادو" في سانتا مارغريتا ليغورِهْ" في انتظار زبون عبثا، بينا راحت أيدي القوم تتخاطف سندويشات الهمبرغر في الماكدونالد بيرجر كنغ. كنت ألّوح له من بعيد وأنا قاصد بورتوفينو أو عائد منها إلى راباللو. وماريو يقف كمحارب روماني في غير زمن الحرب. لقد اشتكى أبو الطيّب كساد سود الشعر في ما مضى فقال: "قد أُفسِدَ القولُ حتّى أُحمِدَ الصَّمَمُ".

 هكذا قرأت حال ماريو، فسألته: "هل أفسد الطعام، يا صديقي؟"، فأجاب متحسرا:   
لم يفسد الطعام، ولا سيما في مطعمي، لكن ذوق العصر في هذا العالم أصيب بالفساد حتى صار الذواقة من الناس يؤثرون الصيام.

**جوليانو ومطعم بالين**

لمّا وصلنا مطعم (بالين) وجدنا النّادل في استقبالنا. كان جوليانو منشغلا في المطبخ الذي يفصله عن الطاولات لوح زجاجي، ولمّا رآنا حيّانا بابتسامة ودودة، وعاد إلى متابعة الطبخ. قلت لصاحبي: كيف بمقدوره أن يلبّي الزوّار وليس له من يساعده؟ أجاب صاحبي: إنّه يعشق الطبخ، هكذا قال لنا. كان طبق كارباتشو البوري رائعا، وكذلك السّلمون، والتّونا. أمّا باستا الكيانينا فكانت لا تفوّت. وفي نهاية الوجبة، تبادلنا وجوليانو الأخبار: حدّثناه عن أسفارنا، وحدّثنا عن صعوبة العمل في ليغوريا، قال: الليغوريّون ممسكون، فزبائني من الشمال الإيطالي، وخاصّة من تورينو وميلانو. هناك زبون وصديقته يجيئان من ميلانو خصّيصا لتناول الوجبة هنا ويعودان. ولكنّي، أضاف جوليانو، أتساءل: أكنت مصيبا لمّا تركت العمل مديرا في قطار الشرق السريع، أو العمل مديرا في فندق السبلنديدو ذي النجوم الخمس؟ لا أدري، يقينا أنّ العمل هناك سيكون مدرّا للرّزق أكثر، ولكنّني آثرت العمل وحدي، والكدّ بيديّ، على أن أتحمّل غطرسة مسؤول حاقد يدبّر لي الكيد. هذا ما دفعني في الأساس إلى فتح مطعم هنا.

ولمّا سأله صاحبي عن إمكانيّة مدّ صفّ من الطاولات خارج المطعم، قال: "لا يُسمح لي بذلك". وأوضح أنّه اشترى المطعم، ولكنّه لا يزال يؤدّي أجرة الجدار للسيّدة "فانتي" التي تمتلك حقّ الانتفاع به، وهي سيّدة إقطاعيّة موسرة من بلدة سيستري ليفانتِهْ.

وفانتي دائمة الشكوى من دفع الضّرائب، وقد سألها يوما: لِمَ لا تبيع شقّتين وتعيش بثمنهما عيشة رغيدة؟ فأجابته: إنّها تفضّل العيش متقشّفة! فسأل صاحبي جوليانو الذي كان يتحدّث بلهجة أمريكيّة واضحة لا يتقنها الطليان، أين تعلّمت الإنجليزيّة؟ فردّ قائلا: كان أبي يعمل خادما (بتلر) لكبار نجوم هوليوود، وكان يصطحبني أينما ذهب، ولقد علّمني بأن لا أموت أحمق. هكذا كان يقول. وأضاف جوليانو: تعلّمت الحديث باللهجة الأمريكيّة في ذلك المناخ، كما أن العمل في إسبلنددو سمح لي بمتابعة ذلك. ثمّ أخبرنا عن صاحبه، مالك معرض الأعمال الفنيّة، قال: أودّ أن أعرّفكما عليه، إنّه جدير بالزيارة. وهو رجل يملك ثلاثة معارض، ويجمع كثيراً من الأعمال الفنيّة. وأخبرنا أنّه عرض على صديقه هذا انتخاب ما يراه مناسبا من أعمال فنيّة، يربطها بأطباق يقوم هو بإعداها، فأعجب صاحبي بالفكرة وقال: فكرة رائعة، ولقد عرضت بدوري على جوليانو استغلال ثورة التواصل الاجتماعي في ترويج أطباقه التي أعترف وأصدقائي الذين اختبروها أنّها ترقى إلى مستوى العمل الفنّي الرفيع. فجوليانو كان على مفترق طريقين، كما يقول: إمّا تلبية ذائقة الجمهور، والتفريط في الجودة... أو الإتقان، ولو كان المكسب قليلا، ولقد اختار السبيل الثاني.

**عشاء الأمير**

أخبرني جوليانو أنه باع مطعمه بثمن بخس، فقبض لقاء بيعه مبلغ 75 ألف يورو لم يستلمها كاملة بعد، بينما كلّفه المطعم قرابة 300 ألف يورو. وسرد عليّ حكاية الأمير العربي الذي كان في زيارة إلى بورتوفينو قادما في يخت خاص، فكلّفه بإعداد وجبة غداء في فندق سبلانديدو الذي كان يديره في ذلك الوقت.

رغب الأمير حجز المطعم لأسرته وضيوفه، وأن يُعاد صفّ الطاولات حسب رغبته على أن يتم إخراج آلة البيانو من المكان، وأن يُعدّ له طبق سكامبي الذي تشتعر به بورتوفينو وهو من أنواع الروبيان الفاخرة ويطلق عليه أيضا "جراد البحر".

أضاف جوليانو أن الأمير أصدر تعليمات صارمة فيما يتعلق بطبقه، على أن تكون خالية من الملح، بينما تكون عادية لعائلته وضيوفه.

عقد جوليانو اجتماعا طارئاً مع مساعديه من الطهاة والندل وأطلعهم على المطلوب، في تلك الأثناء وصل عازف البيانو فوجد الآلة خارج المطعم، وقبل أن يستبد به الرعب خشية أن يكون المطعم قد تخلّى عن خدماته، أخبره جوليانو بأن الأمير لا يرغب في العزف هذه الليلة.

تنفس العازف الصعداء وأرسل جوليانو القلق في طلب السكامبي طازجا، وبعد أن اعدّت الوجبة، فلما قُدّمت الأطباق وبينها طبق الأمير، طلبني على الفور، فهرعت لتلبيته، فرمقني قائلاً: هناك طعم ملح في السكامبي، فارتبكت قال جوليانو وتأكدت من الأمر بنفسي وحملت طبق الأمير ورجعت به، لأكتشف أن رئيس الطهاة أعدّ الروبيان طازجاً كما وصله من البحر دون أن يغمسه بالماء العذب، وأضاف جوليانو: كنت قد نبهت الطاهي أن يغسل السكامبي في الماء مرات عدة قبل طهوه. تداركت الأمر قدّمتْ طبق السكامبي ثانية للأمير، وبعد أن فرغ من تناول وجبته طلبني ثانية ليفاجئني بقوله: شكرا لك جوليانو لقد أحسنت غسل السكامبي هذه المرة قبل أن تطهوه.

أردف جوليانو: منذ ذلك اليوم وأنا أشعر بالذهول من دقة ملاحظة الأمير، وأتساءل إنْ كان قد قال ذلك عن قصد ودراية أو من دون قصد.

فقلت له: يا جوليانو يتميّز رجال السياسة بفراسة وحساسية دقيقة للأشياء، فهم يملكون مجسات غير مرئية يستشعرون بها أموراً لا تخفى على سائر الناس ومنهم أهل الأدب مثلنا وحتّى ملوك الطهاة أنفسهم.

**أن تحيا أو تموت عشقاً**

أنا في "جنوة"، على ساحلها اللازوردي، أبحثُ عن ذهبية[[7]](#footnote-7) جدّف فيها اثنا عشر ملاحاً، رَسَتْ هُنا قبل ثلاثة قرون، وأتطلّع لتناولِ فنجان قهوة مع الليدي "ماري وورتلي مونتاجو"، ألمع الإنجليزيات في جِيلها.

أُغرم بها الشاعر "ألكسندر بوب" وخاطبها قائلاً:

**إجعلي الرجال يتلقون**

**على يد حواء ثانية ذكية**

**معرفة الخير والشر.**

**ولكن إذا كانت حواء الأولى**

**قد نالت عقاباً صارماً**

**لأنها لم تقطف غير تفاحة واحدة،**

**فأيّ عقاب جديد**

**يقضي به عليك،**

**يا من سرقت الشجرة كلها، بعد أن تذوّقت حلاوتها.**

كم أوجعت "ماري" بسهامها عشّاق زمانها، وانتهت هنا في "جنوة" محطمةً كزورقٍ عتيقٍ بعد حُب غير متكافئ مع جرم إيطالي اخترق فلكها وغير مساره. كان في الرابعة والعشرين، وكانت في السابعة والأربعين عندما كتبت إليه:

"*لم أعد أعرف بأيّ طريقةٍ أكتبُ إليك.. فمشاعري أقوى ممّا ينبغي، وليس في طاقتي أن أفسرها ولا أن أخفيها. فلِكَي تغتفر لي رسائلي يجب أن تجيش في صدرك حماسة كحماستي. وإنّني لأرى كل ما في هذا من حماقة، دون أيّ أملٍ في إصلاح نفسي. فمجرد فكرة مشاهدتك تمنحني نشوة تتخطّفني، فماذا جرى لتلك اللامبالاة التي صنعت مجد أيامي الماضية وهدوءها؟ لقد فقدتها إلى الأبد. ولو أنّ هذا الغرام المشبوب شفي، لما رأيت أمامي غير الملل القاتل. فاغفر هذا الشطط الذي كنت السبب فيه، وتعالَ لتراني".*

كان "فرانشيسكو" الغاروتّي هذا شابا، وسيما، ذكياً. وكانت ترتعد حين يخطر لها في 1736 أنها في هذه السن.

وفي رسالة أخرى كتبت تقول:

*"ما أجبن الإنسان حين يحب!" أخشى أن أسيء إليك بإرسالي هذا الخطاب، حتى ولو كان قصدي أن أسُرَّك. والحق أنّني مجنونة في كل أمر يتصل بك، حتى إنّني لست واثقة من خواطري.. كل ما هو مؤكدٌ أنّني سأحبك ما حييت، برغم نزوتك وتعقلي”.*

ولم يرد "فرانشيسكو" على هذه الرسالة، ولا على ثانية، ولا ثالثة، رغم تهديدها بالانتحار.

كنتُ أسيرُ على ضفاف ميناء في "جنوة" وأُحدّثُ صاحبي قائلاً: في إيطاليا، إمّا أنْ تحيا، أو أنْ تموت عشقاً.

**جنوة وطبائع المدن**

جنوة هي واسطة عقد الريفيرا الإيطالية وهي ميناء صاخب لكن في الجهة الشرقية من المدينة هناك مكان تستهويني زيارته إنها مقبرة ستالينو في جنوة بتماثيلها الضخمة وقبورها المزخرفة. تأسست في منتصف القرن التاسع عشر، وهي واحدة من أكبر المقابر في أوروبا، إنها متحف في الهواء الطلق لفنون الجنائز يذخر بأمثلة رائعة تتراوح بين الطراز الكلاسيكي والطراز الفني الجديد. وفي زياراتي لجنوة أحيانا ما أعرج على تلك المقبرة الأشبه بحديقة، غناء فهي ليست مجرد مكان لراحة الموتى، ولكنها مكان يؤمه الزوار لتنزيه الأبصار بالجمال الفني لتماثيلها وضرائحها ونصبها التذكارية. العديد من الشخصيات البارزة دُفنت هنا، وذكرتها شخصيات مشهورة مثل مارك توين الذي أشاد بالمقبرة في كتابه "المسافرون السذج"[[8]](#footnote-8)، وفريدك نيتشه الذي زارها مراراً صحبة صديقه بول ري في ثمانينات القرن التاسع عشر، وتجاذبا بين أضرحة الراقدين أطراف الحديث في الفكر والفلسفة، ولعلهما عرجا على قضايا الحياة والموت. وورد ذكرها أيضا في كتابات إرنست همينغواي.

ساحر الكمان باغانيني ابن جنوة، فهي مسقط رأسه، لكنني لا أجد له مرقدا هنا، في مقبرتها، وبين تلك الكوكبة من فرسان المدينة وأعلامها البارزين. توفي في نيس سنة 1840 عن 58 عاماً، وحظرت الكنيسة الكاثولويكية دفنه في مقابرها، لكونه لم يكن متديناً. نقل رفاته مرارا من قبر إلى آخر، إلى أن استقر أخيراً في إحدى مقابر جنوة. أوروبا بأسرها بهرت بكمانه وموسيقاه وأثنى عليه معاصروه من الموسيقيين، وبينهم روبرت شومان وفرانز ليست وهيكتور بيرليوز.

بناء على ما سلف تعتبر مقبرة ستالينو شاهدًا على التراث الفني والثقافي لمدينة جنوة، عاكسةً جانبا من الغنى التاريخي والعمق الثقافي للمدينة. وإذا صح ما جاء في كتاب "لماذا يحب الإيطاليون الحديث عن الطعام" لإيلينا كويستيوكوفيتش بأن بولونا أسخى المدن بذلا على أطايب الطعام فهي تنفق في السنة على مائدتها ما ينفقه البنادقة في سنتين، وأهل روما في ثلاث والتورينيون في خمس والجنويّون في عشرين. فلا غرابة أن تلقب بولونا بالسمينة "لا جراسا"، وجنوة بالمقترة. وإذا عدنا إلى الجنويين فإن مقبرتهم الفاخرة هي المكان الذي يظهرون فيه بذخهم موتى، مقابل تقتيرهم على أنفسهم أحياء، فالجنويون لا تعرف مدى غنى الغني منهم إلا عندما يوارى الثرى.

وفي هذه الجولة أستعيد ذكر أهل أصفهان الموصوفين بالشح. فقد نقل عن الصاحب أبي القاسم بن عباد، وزير مجد الدولة من آل بويه، انه كان يقول لأصحابه كلما هم بدخول المدينة: من له حاجة فليسأل الآن قبل دخول أصفهان، فإني إذا دخلتها وجدت في نفسي شحاً لم أجده في غيرها! وفي المعرض نفسه، حكى رجل أنه تصدق برغيف على ضرير بأصفهان فقال الضرير: أحسن الله غربتك! فقال الرجل: كيف عرفت أنني غريب؟ أجاب الضرير: لأني منذ ثلاثين سنة ما أعطاني أحد رغيفاً صحيحاً!

قالت الدليلة أنا من ريف إيميليا رومانا منذ صغري لم أر في يوم من الأيام طاولة البيت إلا وهي عامرة بالطعام. ومنذ أن حللت في جنوة لم أر طاولة بيت إلا وهي خاوية.

**النوارس في رابالّو**

النّوارِسُ تَشقّ صَفْحة السّمَاء بِبياضها الثلْجي كالنُّجوم. هنا يُمكنك أنْ تقرأ رواية «النورس جوناثان ليفنجستون» لــ «ريتشارد دافيد باخ» على مسرح في الهواء الطلق. فالرجل شارك «يوهان سيباستيان باخ» المؤلف الموسيقي الباروكي في طريقة تدوين سيرته الداخلية، ويمكن لــ«جوناثان» أن يكون أحدنا. والآن، وفي هذه اللحظة التي أقطع فيها طريق «راباللو»، أشعر أنني «جوناثان» وهو يدوّن باطنه، ويمكن لكل شجرة أن تكون نورساً، وكل سيّارة تقطع طرفي الطريق أن تكون رحلة «جُوناثان» ليرشد أقرانه إلى الجهة الأخرى من المعرفة والحكمة، والسمو الروحيّ.

يتحدث «ريتشارد دافيد باخ» عن نورسه «جُوناثان» وهو يكابد تلك المعادلة التي عليه أن يختار أحد طرفيها، فهل يقضي يومه في التفكير بالطريقة التي يتحصّل فيها على الطعامـ أم في حاجته الداخلية إلى التحليق والسموّ لمسافات بعيدة؟ ولقد انحاز إلى التحليق والسموّ، ثم يتعرّف على رفيق آخر اسمه «تشانج»، الذي يصطحبه إلى مناطق أخرى لم تكن تخطر له ببالٍ قط.

إنّه كتابٌ يتحدثُ عن السُموّ كطريقةٍ للحياة، من خلال الارتقاء بمراتب العقل والتفكّر في كل شيء وإخضاعة إلى التجربة والسؤال، فكلُّ سَفَرٍ هو ضرب من الارتقاء بالعقل، وسمو في الروح... يمضي «جُوناثان» حتى يتعرّف في رحلته على نوارس تحصّلت على سموّ معرفي كبير.

ثم أخذ «جوناثان» يذهب إلى رفاقه ويهديهم إلى هذه المنطقة.

كنت قرأت هذه الرواية وشاهدت فيلما وثائقيا عن الرحلة. وها أنا في الطريق إلى بورتو فينو أشاهد عرضا حياً للنوارس التي خفقت أجنحتها في ذلك الكتاب.

أبدأ يومي بوجبة الفطور، ويا لها من بداية عندما يكون ذلك وأنت تشرف على البحر، وترى البيوت وهي تتعامد على بعضها البعض، وتبدو كما لو كانت تسيل إلى صفحة الماء، يمكنك أن تدرك أنها بداية هائلة رائعة. في أغلب الأمكنة التي زُرتها وعرفتها يكون الضوء إمّا حاداً بطريقة تُربكُ العين، أو داكناً.. أما في «راباللو» فالضوءُ يكون رائقا، رفيقاً بمقلة العين يصافحها-قبل أن يتوغّل فيها-، فتفتتن بصور رائعة وتجد الروح طريقها إلى السمو.

ويا لطقس الريفيرا الإيطالية فهو أكثر مناخات إيطاليا لطفاً واعتدالاً على مدار السنة.

**سفينة نوح ونشرة أخبار جوزيب**

في المساء وصلنا فندق الأكسيلسير الذي بدا صاخبا على غير عادته وكأن نوح أفرغ فيه حمولة سفينته للتو، كنت أؤثر هذا الفندق لهدوئه فوجدته ضاجاً بأفواجٍ من الناس. في المساء ذهبت لأتريّض في المسبح فوجدته وقد اكتظ بالأطفال والنساء والشيوخ، فتذكرت الشدياق وكتابه "الساق على الساق"، فقنعت من الغنيمة بالإياب. في اليوم التالي نزلت للافطار، في صالة كانت الأفضلُ على الإطلاق، فإذا بالمطعم وقد غصّ بالسياح بطريقةٍ غير متوقعةٍ في مثل هذا الوقت، سألت موظّف الاستقبال: ما الذي حدث؟ هل أعلنتم عن تنزيلات ففتحتم على الفندق أبواب الأمم؟

فقال: لا ولكن أغلب السيّاح من الطليان ممّن تعذّر عليهم زيارة المنتجعات الثلجية لشحّ الثلج في هذا العام، تحولوا عنها إلى رابالو وبورتوفينو حتى بلغت نسبة الغرف المشغولة قرابة 85 %، أما الأمر الآخر الذي جعل الفندق قبلة السياح فيعود إلى مديره الذي خفض الأسعار ليفوز بأكبر عدد من السياح الذين خاب سعيهم ببلوغ رؤوس الجبال فقنعوا بالساحل.

بعد الافطار خرجت راجلاً في جولة الـ10 كم والتي أُعدّهُا من أجمل النزهات، طفقت أثناءها أستمع إلى تعليقٍ صوتيّ سجّله صديق تناول فيه مجموعةً من مؤلّفات البرتو إيكو وهي "اسم الوردة"، و"مقبرة براغ"، و"بندول فوكو".

عندما هممنا بالمغادرة، قلت لصاحبي ألا تفتقد جوزيب؟ فمن مثله يقطّر أخبار رابالو وأسراها ويقدّمها على طبقٍ ساخن. في هذه الأثناء أبلغتنا إدارة الفندق أنها وفرت لنا سيارةٍ تقلّنا إلى مطعمٍ بادو للطاهي الساحر ماريو، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما خرج جوزيب خروج الماردِ من قمقمه. في الطريق شرع جوزيب في إذاعة أخبار المدينة، استهل النشرة بقوله: الأخبار ليست سارّة، اقتصادنا في انكماش والسيّاح أصبحوا كالسلع النادرة أو كفاكهة الصيف، وأخبرنا عن زوجته التي تعاني من بردٍ حادٍّ لازمها منذ 6 أسابيع. وفي مرةٍ لاحقة وتحديداً في النهار الأخير لنا في الفندق طلبت من إدارته توفير سيارة تقلّنا من بورتوفينو، ففوجئت بجوزيب ذاته وراء المقود، فما أن رمقنا حتى قال: لديك رقمي، وبوسعك الاتصال بي في أي وقتٍ تشاء، أما اليوم فكنت محظوظاً أن ترتيبي في الانتظار كان ثانياً فوافقَ ذلك طلبك، أرجوك أن تعلمَ أنني رهن إشارتك، أردف قائلاً سأذهب بكم بجولةٍ في بورتوفينو. وبعد هنيهةٍ من القيادة أشار إلى بيتٍ جميل: ولدت في هذا البيت ومن هذه الشرفات كنت أطلُّ برأسي عندما كنت صغيراً.

وعندما سألته عن سنة ولادته قال: رأيت الدنيا يوم 12 أبريل من عام 1948، بعد انتهاء الحرب، وبالرغم من أنني تمكنت من تجنّب ويلاتها وآثارها إلا أن أخي الأكبر مكثت ذكرياتها تروّعه حتى توفّي قبل عشر سنوات، ذهب لينام ولم ينهض من نومته تلك، وهو من مواليد 8 أبريل، أما أمي فهي من مواليد 6 أبريل، ووافقت وفاتها تاريخ ميلادي. نحن إبريليون. قلت في نفسي: يا لهذه العائلة التي يتجوّل أبرل في حقولها منذ أجيال.

وصلنا إلى مطعم فونكوريديا وخرجت مانويلا ولاورا للسلام، وشرعتا بتحيّة جوزيب كما لو كان والي المدينة، فقال: في هذا المطعم تعدّ هاتان السيدتان أشهى وأزكى طعام في ليغوريا، ويحرص كبار تجّار ميلانو على تناول الطعام هنا ليوفروا ثمن الأطباق الباهظة التي تقدمها مطاعم الدرجة الأولى.

وفي الطريق أشار إلى ثلاث فيلات في أعلى الجبل قائلا: أنظر إلى هذا المصعد، إنه يأخذك إلى الأعلى حيث تربض هذه القصور التي لا ينازعها في بهائها منازع، وأولها يعود لتورينو مالك شركة فيات، والثاني إلى رجلٍ ألماني اسمه مازمن وهو تاجرٌ واسعُ الثراء يعمل في التصدير والتوريد، أما الفيلا الأضخم فكانت للورد كارنارفون ممول بعثة التنقيب عن مقبرة توت عنخ آمون في وادي الملوك، وكنت أقلّه من مطار جنوى إلى المدينة جيئةً وذهاباً (غضضت طرفا عن أمر اللورد كارنارفون الذي مات قبل ربع قرن من ولادة جوزيب!) وباع أحد الزملاء قصره لملياردير روسي بـ25 مليون يورو، أو هكذا تحدثت الصحف، فسألته عن اسم الشخص الروسي فقال جوزيب: لا أعرف.

ياله من أمر رائع أن تكون في بورتوفينو، وتسأل جوزيب عن أمر ما ويجيبك بأنه لا يعرف.. إنه أمر لا يتكرر كثيرا.

أشار جوزيب إلى بيتٍ محاذٍ للبحر وقال إنه بيت دولتشي آند كابانا، وفي طريق عودتنا مر بي على قصرٍ منيف، وقال: هذا هو قصر موسوليني وقد تحول إلى ست شققٍ فارهة وفاخرة. ولما مررنا على قصرٍ لبرلسكوني قال وهو يمدّ يده باتجاه القصر: هذا قصره ولكنه مستأجر، فهو يستأجره منذ ست سنوات. فقلت له ولماذا لا يمتلكه، قال: هنا في إيطاليا يؤثر رجال الأعمال أحياناً الإستئجار على الشراء تجنبا للفت أنظار رجال الضرائب، ومعظمهم يفضل إيداع واستثمار ثرواتهم في الخارج. ثم أضاف والقصر يقيم فيه الآن بيير سيلفيو ابن برلسكوني من زوجته الأولى كارلا الفيرا. وهذه السيارة السوداء من نوع لاندروفر ذات دفع رباعي تعود إلى سيلفيا زوجة الابن التي آثرت الإقامة في بورتوفينو، ولهما طفلٌ يدرس في رابالو، هي فتعمل في التلفزيون، وزوجها البيير يعمل في ميلانو.

قال جوزيب أنه في مرة قادمة سيصحبنا إلى فندق بورتوفينو بيتا في أعلى الجبل، فمن تلك القمة يمكنك أن تطل على الريفييرا وتمتع ناظريك بسحر سواحله حتى جنوة واسطة عقده. ومن الأماكن السياحية التي رشّحها للزيارة "سان فروتوزو" فهناك كما قال جوزيب فندقٌ يقصده السياح في المواسم من أجل الغوص ومشاهدة تمثال السيد المسيح، وهو تمثالٌ كبير اقتناه صيّادوا ليغوريا وألقوه في اليم تبرّكاً وتيمّناً لدفع البلاء عنهم وعن تجارتهم وسفنهم، فأصبح من الأماكن التي يقصدها السيّاح. هنا تذكّرت قصة الشامبانيا التي تُخزّن في أعماق بحر بورتوفينو، وكانت السيدة باتريشيا حدّثتنا عنها، فالشامبانيا توضع عادة في الكهوف، أمّا هنا فتوضع ففي أعماق البحر، لذلك ترى زجاجاتها ملفوفةً بأعشاب البحر دلالةً على المكان الذي أخرجت منه.

وعندما بلغنا سانتا مارغريتّا قال جوزيب: هذه قبلة الإنجليز، وهم يؤثرون السكن فيها كما يؤثرون الشتاء على الصيف، ففي الصيف تكون سانتا مارغريتا حافلة بالسياح، وأما في الشتاء فتكون هادئة، والإنجليز يؤثرون الهدوء، سمعت ذلك من أبي الذي كان يعمل في محطة شِل التي يمتلكها الإنجليز.

وجوزيب لديه ابن اسمه ماوريسيو وابنة اسمها رومينا، قال ذلك ثم أردف: لقد أطلقت عليها اسم الممثلة رومينا باور. وبعد فترة صمت قال وهو ينظر حوله بأسى: الإيطاليون فقدوا بصيرتهم عندما أغلقوا دور القمار، ثم ضرب رأسه بكفّه، وأردف: لا أعلم كيف لبلدٍ أن يستغني عن دور القمار التي تدرّ مالاً وفيراً، فهل تصدق أن تاكسيات سان ريمو على ثراء واسع لازدهار صالات قمارٍ فيها؟.

فلما أخبرته عن مدينة موناكو ووفرة صالات القمار فيها والأموال التي تبذل ببذخٍ على طاولاتها، قال: إنهم مصيبون هؤلاء الدهاة أهل موناكو، فهم يعرفون كيف يحلبون رؤوس الأموال ويقطّرونها في خزائنهم. وبعد هنيهةٍ تطلّع إلى صورتي في المرآة التي أمامه وقال: إن رخصة السياقة في رابالو تكلّف 80 ألف يورو، وفي جنوة تكلّف نحو 120 ألف يورو، أما في فلورنسا وهي مدينة باذخة، فلا تقل رخصة القيادة فيها عن مبلغ ربع مليون يورو، ونحو 150 ألف في ميلانو، ثم تابع حديثه عن سان ريمو التي بدت كما لو أنها نغّصت عليه حياته، فأضاف: أشعر بالغضب عندما أرى تاكسيات سان ريمو التي لا تبعد كثيراً عن رابالو وبورتوفينو وقد أصاب الثراء سوّاقها، فنحن ندفع ما يساوي 62 % من المبلغ الإجمالي كضرائب. وفي الحقيقة شعرت ببعض المبالغة في حديثه لأن السيد جوزيب يتقاضى في الغالب أجره نقداً. ثم تابع ونحن مازلنا في الطريق: هناك أيامٌ ذهبية لن تعود، كنت أقلّ فرانك سيناترا عندما يتردد على رابالو لزيارة أمه المولودة في مدينة كيابري، وكان يسبغ من عطاياه على قرابة 2000 نسمة من أهل البلد، كان مفرطاً في الكرم.

صمت برهة ثم أردف: كما كنت أقلّ الممثلة ليزا مينيلي والمغنية شير. ورمى سبحة طويلة من الأسماء.

**جنكترّي وشارع الحب**

قد يكون بايرون بلغها من قبل، لم يعد الأمر جوهريا، فلقد عرفنا أن الرجل لم يترك مكانا في خليج الشعراء من دون أن يغوص في مائه. نزلنا عن الشارع، لأنه لا يمكن بلوغ جنكترّي إلا بواسطة قطار.

لا بأس، فالهبوط من أعلى الجبل يتيح للحواس الخمس كنا بأمس الحاجة إليها لنتعرف على المكان ونمضي فيه كما لو كنا جزءا منه، فلا يمكن التفريط بمثل هذا البهاء، وقد جعلته البيوت ممتدا ولا نهائيا، فمن أعلى الجبل بدت منازل جنكتري مثل خيمة واسعة من القرميد الأحمر، تتخللها الشوارع الضيقة والساحة التي تتوسط القرية، وتتاخمها الكنيسة كما هو الشأن في العمارة التقليدية، وتحديدا القروسطية في أوروبا.

لا يختلف عن ذلك كثيرا تخطيط المدن والبلدات الإسلامية التي نشأت في الزمن ذاته، فيشرع المهندسون ببناء المسجد الجامع، ثم بيت الإمارة، ومن ثم البيوتات الأخرى بحسب القبائل، يحيطون ذلك كله بسور يلّفها كما يلف السوار المعصم. أما في جنكتري فطبيعة المكان وفّرت لها القدرة على أن تكون منيعة ومحمية من البحر والجبال المحيطة.

واصلنا النزول صوب محطة القطار، هنا شعرت بضرورة أن أستنفر الحاسة التسجيلية التي بداخلي، وهو ما فعلته، فصارت الأمكنة تدخلني بالطريقة نفسها التي أدخلها، إنه حلول متبادل بحسب المتصوفة، أي أن تحلّ في المكان وتدعه يحلّ فيه فتكونان بذلك جسدا واحدا حيّا ومتفاعلاً.

وكلما أمعنت بصري تكشّف لي ما كان خافيا، فهذه الأمكنة ذات طبيعة مركّبة، تحتاج إلى من يحرثها ويقلّبها على وجوه شتى لتمنح نفسها، فمن كان يتخيل أنني سألمح شارع الحب من هذه الزاوية التي بدت المدينة معها وكأنها سالت من الجبل وتوقّفت على بعد أمتار قليلة قبل أن تسقط في البحر.

ظهر شارع الحب على هيئة شريط أبيض يطلّ على البحر. ومن على سلالم حجرية غير مشذبة، بدت أشجار الليمون خضراء كما لم تكن من قبل، والأرض معشبة كما لو كانت بساطا انزلق هو الآخر من الأعلى ليقود العابرين إلى المدينة، وكلما اقتربت من الشاعر بزغت معالم جديدة، فأخذت البيوت تكبر والساحة تتسع، حتى صار بمقدوري رؤية الناس فيها وتمييز المحال والأزقة.

حفل المكان هنا بالأزقة الضيقة ولا يبدو أنها تعرضت إلى تغييرات جوهرية في هندستها والمواد التي بنيت منها منذ أن شقت، فخاماتها كانت تبدو محلية تؤكد ذلك طريقة البناء بالأحجار الناتئة التي تكسو مداخلها وبعضاً من جدران الأزقة الداخلية، والتي جلبت من مقالع ومناجم قريبة، وهو ما يجعل بلدات كهذه شواهد على النماذج التقليدية التي كانت عليها هندسة البلدات وتخطيطها قديما.

جزنا الطريق المفضي إلى شارع الحب وبدا متاخما البحر في جهته الأخرى، وهو يعدّ أحد أكثر الأمكنة جمالا وجذبا ويعمل على ربط قريتي مانارولا وريوماجيوري، ولا ويستغرق اجتياز المسافة بين طرفيه أكثر من عشرين دقيقة، وهذه المدة تشيع طقسا ايروسياً لم تستطع الكنيسة بكل ما أوتي لاهوتها من جبروت ترشيده أو تحجيمه.

من هنا يمكننا رؤية الكهوف المغمورة بالمياه والصخور بانحداراتها الحادة، وتظهر كما لو كانت عالقة، بينما البحر يرقب ذلك كلّه بأزليته.

شق الشارع وعبد للمرة الأولى في عام 1900 ليقود إلى موضع آمن لتخزين المواد المتفجرة التي كانت تستعمل من أجل تكسير الحجارة وشق طريق السكة الحديدية، لربط القرى الخمس ببعضها البعض، والآن لابد من القول أنهم لم يفلحوا تماما، إذ لم يعد المكان آمنا فلقد انفجر الحب، وانتشرت شظاياه لتغزو قلوب العشاق ما أن أن يطأوا بأقدامهم أول الطريق.

في جنكتري يطيب لاهل المكان وزائريه تناول أطباق الأسماك الطازجة من صيد اليوم نفسه، شهية على بساطة تحضيرها وتقديمها**.**

**التشيتشيزبيو أو الصويحب**

أدرك الإيطاليّون أن إطفاء غلمة امرأة ارستقراطيّة نبيلة ضرب من المستحيل، فدّبروا بدهاء وظيفة فريدة، أطلقوا عليها التشيتشيزبيو. لعلّ الأصل يعني "الموَشْوِش الحلو"، وهو شاب ظريف وعشيق عند الحاجة، يقوم بخدمة الزوجة النبيلة، في المناسبات الرسميّة والعامّة، والحفلات، وحضور طقوس الصلاة، وطقوس السرير إن تطلّب الأمر. وقد تنصّ على شرعيّته عقود الزواج، حتّى لا تكون سيادة الزوج مطلقة. وقد عمل اللورد بايرون تشيتشيزبيوأو صويحبا لدى الكونتيسة تيريزا جيوشيّولي لمّا حلّ ضيفا عليها في رافينّا، ولقد سحره حديثها حتّى راح في قصيدته بيبي يقول:

**لكم أحبّ اللاّتينيّة، تلك اللغة المتهتّكة**

**التي تذوب كما القبلات على فم انثويّ**

**وتهفهف كأنها مكتوبة على حرير**

**بمقاطع ريّا بأنفاس الصبا الرّقيقة**

**تنساب بعذوبة، تهدهد الوجدان**

**فما فيها من نبرة نشاز**

**كصفير لغتنا الشماليّ الفظّ، كأنه النخير**

**تلك اللغة التي نفحّ بها وندمدم مكرهين.**

وكان الكونت أليساندرو يباهي بعلاقة تيريزا زوجته بالشاعر بعد موته بزمان، ويفاخر بأن الشاعر لم يعفّ عمّا في سرابيلاتها.

قال بايرون مخاطبا الإنجليز داعيا إلى صحوة وثنيّة جديدة تكسر نير العادات الدينيّة البائدة والتقاليد الإنجليزّية العقيمة: عليك أن تفهم أنّ هذه الموضة الإيطاليّة، تعمّ روما وفلورنسا وميلانو ونيس، وهي سائدة بين سائر طبقات الشعب، إذ لا وجود للغيرة بين الحبيب وحبيبه، يعيش الزوج وصويحب امرأته صديقين يعضد الواحد منهما الآخر، وتعانق الزوجة فيها عشيقة زوجها بعاطفة وحنان.

أعاد موزارت الحياة منذ مائتي عام إلى هذه التقاليد التي اندثرت، في أوبرا "زواج فيجارو" ففي عواصم العالم وإلى يومنا هذا مازالت زواج فيجارو تلقى إقبالا منقطع النظير، وهي تزخر بالإيحاءات الجنسيّة، وتسخر من عالم الارستقراط، فالكونت المافيفا يريد افتراع خادمته سوزانا قبل عقد قرانها على خادمه فيجارو، تشيتشيزبيوالخادم يريد أن يظفر بموعد غرام مع سيّدته الكونتيسة زوجة المافيفا، ومارسلينا العجوز تدّبر إبطال الخطبة، والخادم فيجارو يقسم على تحدّي سيّده وفضحه. ثلاث ساعات من الموسيقى والغناء الأوبرالي مازال يسحر الألباب لقرنين من الزمان، وستظلّ كذلك، إلى أن تطفأ تلك الجمرة المستعرة في سرابيل الارستقراطيّات النبيلات في روما، وفلورنسا، وميلانو، ونيس.

**راباللو صحبة النقيب سيمونوني**

كنا قد خرجنا من فلورنسا نقصد رابالو، في يوم في انقلب الجوّ إلى أمطار وعواصف أحبطت جولتنا المعتادة، ها نحن في دروب إيطاليا ثانية ننشد الشمس، وهل هناك مكان أدفأ من راباللو، تجاذبنا أطراف الحديث وكان «امبيرتو إيكّو» هو فاكهة المجلس؛ قرأ صاحبي علي مدخل روايته المذهلة، «قبر في براغ» وهي رواية تتحدّث عن النقيب سيمونوني بطل الرواية وسلبيّته المطلقة؛ فلو بحثت له عن خصلة من الخصال أو عن ميزة من الميزات لما وجدت شيئا فهو فاقد لكلّ عاطفة حبّ أو صداقة أو أخوّة، ويكره كلّ الشعوب وكلّ الملل، قرأ صاحبي: 'من أكره؟ سأجيب دفعة واحدة: اليهود، ولكن بما أني أقبل، بخضوع العبد، إيعازات ذلك الدكتور النمساوي (أو الألماني)، فهذا يعني أنه ليس لدي شيئ ضد اليهود الملاعين.

لا أعرف عن اليهود إلّا ما علّمني إيّاه جدّي، إنه الشعب الأكثر إلحاداً على الإطلاق، هكذا لقنني. فكرتهم أنّ الخير يجب أن يتحقق هنا، وليس بعد الموت. ولذا فإنهم يعملون للهيمنة على هذا العالم. اكتأبت سنوات طفولتي بأشباحهم. كان جدّي يصف لي تلك العيون التي تتجسّس عليك، فيها من النفاق ما يريعك، وتلك الابتسامات اللزجة، وتلك الشفاة المنسلخة على الأسنان مثل الضباع، وتلك النظرات الثقيلة، الكريهة والمقززة، وتلك التجاعيد بين الأنف والشفة دائماً قلقة، متحفزة من الحقد، وذلك الأنف مثل منقار طائر جنوبي قبيح. والعين، آه، العين، إنها تدور محمومة في الحدقة بلون الخبز المحروق، كاشفة أمراض كبد أفسدته مفرزات أنتجها حقد دام ثمانية عشر قرناً، وتنثني على تجاعيد رقيقة تتضخّم بفعل السنين، وعندما يصل إلى العشرين يصبح اليهودي ذابلاً كما لو كان ابن ستين، وعندما يتبسم، تنغلق أجفانه المنتفخة إلى حد أنّها لا تترك إلا خَطّا يكاد لا يرى، علامة على المكر، يقول البعض، علامة على الشبق، يدقق جدي.

وحينما كبرت وصرت قادراً على الفهم كان يذكرني أنّ اليهودي، علاوة على كونه متعجرفاً مثل إسبانيّ، وجاهلاً مثل كرواتي، وطمّاعاً مثل مشرقيّ، وكافراً بالنعمة مثل مالطيّ، ووقحاً مثل غجريّ، وقذراً مثل إنكليزي، ومتسلطاً مثل بروسي ونمّاماً مثل حِرَفيّ، هو زانٍ كضبع جامح، -وأقول من الختان الذي يحفزهم على كثرة الانتعاظ، مع تفاوت هائل في الحجم بين قزمية البدانة والضخامة الكهفية لتلك الزائدة المبتورة التي يملكونها.

لقد حلمتُ باليهود كل ليلة، لسنوات وسنوات. ولحسن حظي أنّي لم ألتق أبداً أحدهم، ما عدا العاهرة الصغيرة في حارة اليهود بمدينة تورينو، عندما كنتُ طفلاً ولكنني لم أتبادل معها أكثر من كلمتين، والطبيب النمساوي أوالألماني، لا فرق.

كانت السيّارة تنهب الطريق نحو «راباللو» ونحن نتذّكر اللحظة التي بلغنا فيها نبأ وفاة الكاتب الكبير في 19 فبراير في ميلانو عن عمر ناهز 84 سنة، وصادف يوم تأبينه وجودنا في ميلانو، قلت لصاحبي لقد لمحتُ المخرج بينيني يخرج متخفيّا من جراند هوتيل دا ميلان الذي كنّا نقيم فيه، وعلى وجهه ملامح حزن على صديقه الراحل. كان هناك لحضور مراسم الدفن.

\*\*\*

قرأ صاحبي الفقرة التالية من "مقبرة براغ": "أمّا الألمان فقد عرفتهم، بل وعملتُ لفائدتهم: أحطّ درجة في الإنسانية يمكن تصوّرها. الألماني ينتج، في المعدَّل، ضعف كمية بِراز الفرنسي. نشاط مُفْرِط لوظيفة الأمعاء على حساب وظيفة المُخّ، دليل على دونيّتهم الفيزيولوجية.

في زمن الغارات الهمجية، كانت الجموع الألمانية تملا طريقها بأكوام هائلة من المادة البرازية، ومن ناحية أخرى كان المسافر الفرنسي، حتى في القرون الماضية، يدرك على الفور أنه اجتاز الحدود الألزاسيّة من الضخامة الغير عادية للبِراز المتروك على جانبي الطريق.

ولا يكفي هذا، من خاصية الألمان الصُنّان، أي رائحة العرق المقززة، وقد ثبت أن بول الألماني يحتوي على عشرين بالمائة من الأزوت بينما بول الأقوام الأخرى لا يتجاوز خمسة عشر بالمائة منه.

يعيش الألماني في وضع دائم من الحرج الأمعائيّ نتيجة الإفراط في شرب الجعة وأكل تلك المقانق من لحم الخنزير، التي يملأ بها جوفه، لقد رأيتهم ليلة، أثناء سفرتي الوحيدة إلى ميونخ، في تلك الحانات الشبيهة بكاتدرائيات نُزِعَتْ عنها القداسة، مدخّنة مثل مرفأ إنكليزي، ينضح منهم الشحم والدهن، اثنيْن اثنيْن، هو وهي، يشدان بقوة على تلك الأكواب من الجعة، التي تكفي وحدها لإرواء قطيع كامل من الفيلة، والأنف يلامس الأنف في حوار عشق بهيمي، مثل كلبيْن يتشممّ أحدهما الآخر، بضحكاتهما المدوية والسمجة، وبدعارتهما الحنجرية الدنيئة، يلمعان بذلك الدهن الدائم الذي ينضح من الوجهْين، ومن الأعضاء مثل الزيت فوق جلدة المصارعين في السيرك القديم، يملؤن أفواههم بذلك الـGeist الذي يعني الروح، ولكنه روح الجَعة، الذي يبّلد أذهانهم منذ الشباب وهذا يفسّر لماذا لم يُخلق أبداً، فيما وراء نهر الرّاين، شيء ذو أهمية في الفن، ماعدا بعض اللوحات التي تمثل وجوهاً قبيحة، وأشعاراً مملة إلى حد الموت.

ناهيك عن الحديث عن موسيقاهم: ولا أتحدث عن ذلك المسمى فاغنر وضجيجه الجنائزي الذي يكسر حتى دماغ الفرنسيين، ولكن حسب القليل الذي بلغ سمعي، تأليفات صاحبهم باخ الفاقدة تماماً للانسجام والباردة برودة ليالي الشتاء، وسيمفونيات ذلك المدعو بيتهوفين التي هي حفل من الدعارة.

ويجعلهم الإفراط في الجعة عاجزين عن أي تصور لمدى سوقيتهم، ولكن أقصى حد في السوقية هو أنهم لا يستحون من كونهم ألماناً.

لقد وثقوا براهب جشع وفاجر مثل لوثر هل يعقل أن يتزوج أحد راهبة؟، فقط لأنّه عاث فساداً في الكتاب المقدس مترجماً إيّاه إلى لغتهم . مَن الذي قال أنهم أساؤا استخدام المخدِّرين الإثنين العظيمين الأوروبيّين، الكحول والمسيحية؟

يعتبرون أنفسهم عميقين لأن لغتهم غامضة، ليس لها وضوح اللغة الفرنسية، ولا تقول أبداً بدقة ما ينبغي أن تقول، وهكذا فلا يعرف أي ألماني أبداً ماذا يريد أن يقول – ويأخذ هذا الغموض على أنه عمق. مع الألمان لا نصل أبداّ إلى العمق، تماماً مثلما مع النساء.

لسوء الحظ أن هذه اللغة غير المعبرة ذات الأفعال التي يجب عند القراءة أن تبحث عنها بعينيك بقلق، لانها لا توجد أبداً حيث يجب أن تكون، قد أرغمني جدي على دراستها وأنا صغير – ولا غرابة في ذلك، وهو المتحمس للنمساويّين، هكذا كرهت تلك اللغة بقدر الكُرْه الذي أحسسته نحو ذلك اليسوعي الذي يلقنني إيّاها بالعصا على أصابعي.

اكتفيت بهذين النصين من "مقبرة براغ"، فيما أنشد دفء الشمس في رابللو، لعل أشعتها تحمل ما يذيب برود النقيب سيمونني الكاره لكل الشعوب وكل الملل. ولئن سقت ما سقت من روايته الغريبة، فليس لأنني أشاركه نظرته وكلماته بحق الآخرين، ولكن لأشير إلى مدى تطرف هذا الموقف من الآخر، ولكنه يقول ما يعتقده كثيرون ويخشون البوح به فيسكتون عنه.

**الفصل الثامن:**

**فلورنسا وتوسكانا**

**الطريق إلى فلورنسا**

في الطريق إلى فلورنسا، كالعادة كنت أقود السيارة، في محاولة للالتحام بالمكان، وقد بسطت سجادة صوت «لويزا تتراتسيني» لتفرش الطريق بصلاة سيلوح لي معها وجه محسن سليمان الذي أخذ بيدي ليلامس سمعي تلك القمم. في البرهة التي انطلق فيها صوت لويزا، حدثتني نفسي قائلة أن هكذا يليق بالمرء دخول فلورنسا.

شاهدت لمرات التسجيل الوحيد الذي يُظهر سيدة الغناء الإيطالية وهي تنشد (مِ أبّاريه توتآمور) من أوبرا مارثا أو سوق ريشموند لفريدريك فون فلوتو.

تقول كلماتها:

**"هكذا بدت لي مفعمة بالحب   
عندما أبصرتها عيناي   
جميلة هفّ لها القلب   
كشعلة تحترق"**

إنها الأغنية التي اختُبرتْ بها حنجرتان، إحداهما حلّقت صوب الأعالي وعقدت حلفا مع الأبدية، فكانت تلك حنجرة «بافاروتي»، أما الأخرى فلقد هوت بها إلى أسفل سافلين وهي حنجرة «مايكل بولتين».

كان محسن لا يزال يقرع نواقيس الذكرى مواصلا الصحبة إلى فلورنسا، عندما هتف من الغيب: إن إيطاليا التي وهبت الغناء الأوبرالي لويزا تتراتسيني وأميليتا غالّي-كُورتشي Luisa Tetrazzini e Amelita Galli-Curci، لا ينبغي لها أن تنحني لأحد.

هناك صورة تظهر فيها لويزا تتراتسيني في ساحة بسان فرانسيسكو سنة 1890 ومن حولها تحلّق 200 ألف مفتون بصوتها. تسلّقت سلّم المجد وكانت تتقاضى أجوراً سنيّة عن حفلاتها، ولكن مجدها أفل، وآل إلى الزوال، بعد أن اقترنت بشاب لعوب يصغرها بحبل من السنوات فأتى على كامل ثروتها، كما أسلفنا من قبل.

ولطالما سرد محسن سليمان هذه الحكاية منتشيا بما تتركه من دهشة على سحنة من يسمعها. ولقد نفض عنها الغيب وسردها مرة أخرى، ونحن نوشك أن نبلغ فلورنسا.

كانت لويزا لا تعدّ الفطور فطوراً ما لم يشتمل على دجاجة كاملة مع عصيدة وسمك مملّح وقواقع، وتدافع عن بدانتها قائلة: إذا لم آكل كما أفعل الآن سيتهدّل جسمي.

ولقد شكا ألفريدو، الذي كان يؤدي دور حبيبها في أوبرا "لا ترافياتا"، وجعاً في ظهره عندما تطلّب دوره حمل حبيبته المريضة فيوليتا التي لعبت دورها لويزا، فنفر عرق في ظهره وأقعده، فقال: كانت ثقيلة كدولابي ميشلين، فأعطبت ظهري. أما الفيديو الوحيد الذي يظهرها، فلقد تمّ تسجيله في لندن عام 1932، أي قبل وفاتها بثماني سنوات، ويظهر فيه صوت كاروزو العظيم وهي تجاذبه أطراف الغناء.

إن سيدات الأوبرا، ولعقود طويلة، مكثن على بدانتهن حتى ظهور «ماريا كالاس» في الخمسينات التي أنهت هذه الظاهرة، فلم يعد مقبولاً لجمهور الأوبرا أن تُختبر ذائقته الجمالية بعشاق وعشيقات بدينات من طراز لويزا.

لقد بدأت أرى فلورنسا على نحو مختلف منذ أن قرأت كتاب "انطباعات عن فلورنسا" لــ"أندريا بوتسي". صارت لي عينا نورس، يكثّف المكان في نقطة ويفيض عليه، فأبدأ بتفكيكه إلى وحدات صغيرة، وأخلق علاقات لأربط الأشياء الفلورنسية بعضها ببعض ليكتمل نسيج المدينة المترامي وحيواتها الداخلية وتصبح مجتمعة أيقونة تبرق في مرمى بصري وبصيرتي.

كان ليوناردو يقول: القمر كثيف، وكل كثيف ثقيل، فما طبيعة القمر!   
واليوم يظهر ملهم العشاق عبر العصور نهاراً في سماء فلورنسا الصافية هلالاً ملآناً يقترب من تربيعه الأول. إنّ القوس الذي يشكّله ظلّ الأرض واضح تماماً، وهذا الأمر يجعلني غير حائر أبدا من حقيقة أن أسلافنا أدركوا منذ زمن بعيد جداً كروية الأرض، كل ما هناك أن الإقرار بما أدركوا تأخر لأن عصر العقل لم يكن قد بدأ بعد. وما كروية القمر التي طالما نظروها غير مرآة عكست على صفحتها هذه الحقيقة! ولا أطيل نا ولكن اشير إلى كتاب صور الكواكب للصوفي والذي تظهر في إحدى صفحاته رسمة لصورة الأرض والشمس والقمر في تفسر ظاهرتي الكسوف والخسوف.

أما نهر آرنو، فلم يكف منذ أزلٍ عن عزف أغنية الماء، يصبّ من جبل فالنيرونا من سلسلة جبال الأبنيني قرب أريتسو وسينالونجا المعمّم بثلوج يناير، والمستحمّ بمطر السحب التي رفعتها الشمس من مسطّحات بحار الأدرياتيك لتنهمر سيولاً في نهر آرنو، الذي يخترق فلورنسا بهدير لا يهدأ، أغنية يرسلها منذ الأزل، شغف بها ليوناردو دافنشي فراح يزيّن دفاتره برسم النهر، ودراسة مدّه وجزره، وانعكاس القمر عليه، ورقص النوارس فوقه، 2000 متر مكعّب من الماء يلفظها النهر في الثانية، إنّه نهر برائحة الزان.

وإذ تصافح أجنحتي نهر آرنو أرتفع إلى نحو 50 مترا فأتفرّس في المدينة من هذا االعلو وهي تتمدّد تحت عينيّ من بوابه الحرية، ومقبرة الإنجليز شمالا إلى بوابة روما جنوبا، أقلّب المدينة بعينيّ كما لو كنت أقلّب صفحات كتاب فيلوح لي من موضعي (بونتي فيكّيو) أي الجسر القديم.

ها هي بوابة روما. إنها تسعى إلى عينيّ وكأنها تقبل عليّ بكامل زينتها، أو هي تمدّ لي يداً تقول "هات يدك واعبر إليّ". وها هو الطريق الذي يلتقي بقصر (بِتّي) الذي ملكه في ما بعد آل ميديتشي، ومن ثم جسر (فيكّيو) ثم قصر أوفيزي وقصر فيكّيو، أي القصر القديم، والممر السري الذي صممه فازاري ليربط القصرين ببعضهما، والذي مكّن لميدتشي أن يتردد على قصريه دون أن يخالط الناس. ولقد كانت الطبقية شائعة في المجتمع الفلورنسي، وقد ورثها جينيا، فيصنف الناس إلى نبلاء وعامة. أما القصر فيُعد من تحف المدينة ونفائسها.   
ثم قصر أوفيزي الذي اشتق اسمه من لفظ (أوفيسيز) بمعنى المكاتب، فلقد أصبح متحفا بعدما كان المركز البريديّ الأول في العصور الوسطى. ومن ثمّ قبضت بعينَيِ النورس على لؤلؤة التاج الفلورنسي، إنها ساحة السادة، أو الأسياد.  وفيها ينتصب قرابة 30 تمثالاً من بينها نافورة «نبتون» ونسخة عن تمثال داوود، وكلها يكاد أن ينطق، كأنه يحجم عن ذلك إلا إذا واجهه أنجلو بإزميله وحدّق فيه عن كثب، وهو يصرخ: انطق.

ولا يقل عن تمثا

قبل أن يجري اختيار تمثال داوود لمايكل انجلو ليكون رمز المدينة كان رمزها تمثال بيرسيوس وهو يحمل رأس ميدوزا لدوناتيلي، والحقيقة أن تمثال بيريسيوس لا يقل روعة عن تمثال داوود، وكلا التمثالين كانت لهما وظيفة رمزية تشير إلى فكرة البطل الفلورنسي المدافع عن المدينة في صد كل من تسول له نفسه مهاجمة المدينة.

ويحيلنا تمثال بربيسوس على حكايته في الاسطورة، فعندما وقف أكريسيوس ملك أرجوس في حضرة عرافة دلفي، كشفت له أن موته سيكون على يد حفيده، وبما أنه لم يكن لديه سوى ابنته العذراء داناي، فقد حبسها في تمثال من البرونز ببرج لن يصل إليه بشر، لكن زيوس الشهواني تسلل إلى سريرها على شكل رذاذ ذهبي فحبلت منه، وولدت له ولدا اسمياه بيرسيوس. أمر الملك بوضع الصبي في صندوق وإلقائه في المحيط. انتشل الصياد ديكتيس الصبي من الصندوق ورباه حتى كبر وصار شاباً.

كانت ميدوسا ذات يوم فتاة جميلة، لكن مينيرفا حولتها إلى وحش لأنها مارست الفحشاء مع بوسيدون، إله البحر، الذي أغراها فأصبحت امرأة مرعبة، ضفائرها ثعابين تتلوى، وصار كل من ينظر إليها يتحول حجر.

عندما رجع بيريسوس إلى مملكة جده، أراد الملك أنت يتخلص منه فطلب منه أن يذهب ويأتيه برأس ميدوسا، وكان يريد له أن يهلك، لكن الآلهة تعاطفت مع بريسويوس فقدم هرمس سيفه المنحني وصندله المجنح، وأثينا درعها البرونزي المصقول، وهاديس قبعة الاختفاء وأرشدوه إلى الغرب من جزيرة التفاح الذهبي، فاستهدفها مثل وميض البرق وجاء إلى الأختين اللتين تحرسان ميدوسا ولا تريان إلا بعين واحدة، تتبادلانها في ساعة من اليوم. وفي لحظة التبادل خطف بيرسيوس العين بيد رشيقة. وسأل الأختين عن مكان ميدوسا مقابل أن يعيد إليهما العين فأرشدتاه إلى مكانها.

ألقى بيرسيوس العين في بحيرة وذهب إلى كهف ميدوسا الواقع في الجانب الغربي. ولما دخل المدينة رأى انعكاسها في الدرع المصقول، وانتظرها حتى تغفو، فانقضى عليها بسيفه المقوس، وفصل الرأس عن الجسد، ووضعه في كيس جلدي. من الدم المتدفق من الرقبة ولد بيجاسوس وكريسور. وهما كائنان يطيريان.

**أخلاقُ فلورنسا**

لا أستطيعُ تفسيرَ وجود النُّصب التذكاري الغريب للمهراجا "راجارام" من كلهابور في أقصى طرف جنائن كاتشينِهْ. يقال إنّه قضى بعد فترة وجيزة من وصوله إلى فلورنسا، وكان قد خرج من بلاده قاصداً لندن في رحلة لتحصيل العلم، فحلّ ضيفا على الحكومة البريطانيّة، واستقبله كبار رجالات الحكومة، ثمّ سافر إلى فلورنسا فألمّ به التهاب في الصدر، ومات في غضون أيّام، ولمّا أرادت عائلته إقامة طقوس الحرق، في فلورنسا، كما جرت عادتهم، وافق السيّد «ميديتشي» والي المدينة، على أن يكون ذلك في موضع بعيدٍ عن المدينة، وعلى أن يتمّ ذلك ليلاً. وهو المكان ذاته الذي يقوم فيه النصب اليوم،

كان ذلك في أوائل ديسمبر 1870، ثمّ ذُرّ رماده في النهر بناء على طلب العائلة، واليوم، صار الجسر الضخم ذو الطريقين يسمّى باسمه، والطريقان واحد للسيّارات، والآخر للمشاة.

فقلت في نفسي: صدق ليوناردو دافنتشي في وصف "فلورنسا عندما قال: «فلورنسا هي معبر من خلاله يمرّ غرباء كثيرون»، وأضيف ويقيمون. عندما علمت سيلفيا الفلورنسيّة المولد بذلك، أقسمت أن العمدة قد قبض لقاء ذلك مكافأة سنيّة، قلت: هكذا يفسّر الطليان القرارات في مثل هذه المواقف. هنا  قال صاحبي: الآن تبيّن لي سبب إقامة العرس الهندي الصاخب قبل أعوام في الساحة المقابلة لفندق الجراند هوتيل الذي أقام فيه المهراجا، وقضى.

بعد جولتي المعتادة في متنزّه «كاتشينِهْ»، ذهبت إلى ساحة السّادة، ووقفت أمام الموضع الذي أحرق فيه الداعية المتزمت «جيرولامو سافانّارولا 1452-1492»، قبل دخول القرن السادس عشر.

ثمّ عرجت على القصر القديم الذي أقيمت فيه مسابقة القرن بين ليوناردو دافنتشي ومايكل أنجلو، تلك المسابقة التي لم يكتب لها النجاح؛ فلقد هجر الثاني العمل بعد أن استدعاه بابا روما، وأمّا الأول فلقد أفسدت لوحتَه الأمطارُ الغزيرة التي انهمرت وتسلّلت من فتحات السقف، وكذلك رعونة "بييرو دي تومّاسو سوديريني" حاكم جمهوريّة فلورنسا التي استمرّت أربعين عاما.

مررت على ساحة «بياتزا دي سانتا ترينيتا» قبالة محلّ سلفاتورِهْ فيرّاغامو Salvatore Ferragamo. هنا حدثت المشادّة الكلاميّة بين ليوناردو ومايكل أنجلو، وهي مشّادة من طرف واحد.  ثمّ عبرت الجسر القديم. هنا لو كثّف الزمن، لوجدتني أقف مع ليوناردو ومايكل أنجلو ورفائيل وميكافيللّي ودانتي وجاليليو، ومئات من العظماء الذين عبروا الجسر، وحدهم آل مديتشي (لورنزو وآله) المستثنون، فقد بنوا معبراً فوق الجسر لأنهم لا يؤثرون مخالطة الناس.

ثمّ أعود عابراً ساحة جميع القدّيسين لأسلّم على «بوتّيشيلّلي» الذي ينام في كنيسة الفرانسيسكان.

"فلورنسا" بلد أُثر عنه حب الغلمان، أوَما كان «ليوناردو» في حريره ومخمله لا يفارق كوكبته من الشبّان ذوي الرؤوس المعقوصة؟ وأمّا "دوناتيللو" فقد أَنجَز فيها تمثاله الذائع الصيت (داوود) وقد بدا بعجيزة امرأة

**إنها تدور في فلورنسا**

إذا كان لنا أن نحيّي أحداً في فلورنسا، كان لا بد لنا من ذلك، فلنستهل ببياترس أو (تيس الصغيرة) سيدة نساء أهل جنّة دانتي، فهي تظهر في لباسها القرمزي الهادئ والجميل ممنطقة ومزيّنة، وهي التي جعلت من شاعر فلورنسا الأكبر عبدا لهواها، تتوجه بوصلة روحه أنى توجهت تيس الصغيرة حتى دفعها إلى "ثلاثيته"، أو كوميدياه، وجعلها دليلة ومرشدة لفرجيل وهو يقلّب بصره وبصيرته في الجحيم والمطهر والفردوس.

ومن سوى الصغيرة الجميلة بوسعها أن ترشد رجلا كفرجيل؟ قال دانتي في شأنها: تراها وقد بلغت ثماني عشرة سنة في أثواب بيضاء ناصعة، بين سيدتين من كرائم العقائل.

إنها بياتريس.

ولكن من نحيّي بعد الصغيرة الملائكية؟ بالطبع سنتوجه بالتحية إلى دانتي نفسه، ولقد قصدنا دارته وأصغينا إليه وهو يلقي مقاطع من قصيدته "الدفاين" أي الإلهية، وهو لفظ صفة أـضيف إلى الكوميديا في فترة لاحقة.

كان جرسها الموسيقي طاغيا، وهو أمر تبرّره ملحمية النصّ الذي قسّمه بحسب التراتبية بدءا بالجحيم الذي جعله يتألف من 34 مقطعًا أو أنشودة، بينما يتألف كل من القسمين الآخرين من 33

وبذلك يكون المجموع الكلّي لمقاطعها هو 100 مقطع موزّعة على 14233 بيتًا شعريًا.

وتتميز جميع الأجزاء بالإيقاع القوي، نظراً لمقاطعها الموشحية ذات الأبيات الثلاثة. وينقسم كل جزء الى تسعة فصول وفصل عاشر إضافي.

والقصيدة كلها مكتوبة على شكل مقاطع ثلاثيات وينتهي كل جزء منها بكلمة النجوم، وفي هذا الشكل الشعري الذي اخترعه دانتي، نجد أن البيتين الأول والثالث من كل مقطوعة على وزن البيت الأوسط من المقطوعة السابقة.

بعد ذلك نلمّ بالمعماري العظيم فيلبّو برونلسكي الذي صمّم أعجب قبّة في العالم، بعد أن أفضت نتائج المسابقة إليه، وليبدد شكوك المحكمين، لو شئت أن تصدق الواقعة، فإن فليبو كان قد قبض على بيضة هشم نصفها، وقال للمحكمين: هاكم قبّة.

إن عظمة قبة الدومو تكمن في قدرتها على مفاجأتك بفخامتها أنى ذهبت أو اتجهت، فسوف تشرف عليك بضخامتها وقوة حضورها وكأنها تغزو الهواء بشموخها، وتجعلك تشعر وكأنك متجذّر في المكان، فهي التي تشرف عليك سواء كنت على ضفاف آرنو أو في التلال المحيطة بالمدينة. إنها ياقوتة فلورنسا الحمراء.

ثم نذهب لنحيي ابن فلورنسا وصانع فراديسها مايكل أنجلو في كنيسة سانتا كروجي، فغاليلو العظيم وميكافيلي. وعليك أن تتذكر كلما رمقت غاليلو، أن تقول: ولكنها تدور. وهي إن شئت تدور لتحملك إلى روسولنيو، وكانوفا دونتلو، وفاساري لتشاهد بعض أبدع الأعمال الفنية

إنها فلورنسا، فاذهب حيثما شئت، فإن سحب الجمال ستمطر حيثما كنت.

**فيللا الإطلالة البديعة**

زرنا اليوم الفيللا ذات الإطلالة في فيا دي بيلّ وزجواردو، وهي فيللا تطلّ على مدينة فلورنسا، أشعرتنا بطاقتها الإيجابيّة ما أن دلفنا المكان، ولكن حوض السباحة لا يليق بكلّ هذا البهاء الممتدّ ملء البصر. هناك فيللا محاذية تعمّر وفق معايير حديثة، هكذا بدت لنا عن قرب، قال الدليل إنّها لعائلة فلورنسيّة غنيّة تريد أن تسكنها. دار حديث مع صاحبة الدار التي، قالت أنّ لها شقيقة تعمل في دبي. وكان أن زرنا بيتا في قلب فلورنسا في فيا لامبرتسيا، وكان رائعا هو الآخر، حسن الأثاث، تزيّنه ثريّات المورانو الفاخرة، وأرائك وفيرة، وبه خزائن دمشقيّة معشّقة بالصدف كتللك التي اقتنيتها ذات يوم للمجمع الثقافي في أبوظبي.

تناولنا وجبة العشاء في مطعم لوكالي العجيب، استقبلتنا أم المالك، وأجلستنا في طاولة قريبة من طاولة جمعت بين العم سام وباربي، كان رجلّ ستّيني وكانت أربعينيّة، وراح يبثّها محنة الكاثوليك التي ربطته بامرأة لا يجمعه معها سوى عقد الكنيسة وذلك القسم البغيض الذي أقسمه أمام القسّيس. كانت موسيقى المطعم تبعث الرعشة في القلب.

**بينوكيو الفلورنسي**

حيثما تجولت في أسواق فلورنسا لابد أن يقع بصرك على تلك الدمية الخشبية الناعمة المتقنة الصنع والتي شغف بها أطفال العالم بشتى اللغات، وأعني بها دمية بينوكيو ذو الأنف الطويل.

ظهرت الرواية للمرة الأولى عام 1883، ومؤلفها هو كارلو كولودي. والدمية هذه لم تكن موجودة قبل أن يبتكرها الكاتب الإيطالي فهي بمثابة هدية المخيلة الفلورنسية لأطفال العالم. قرأت الرواية صبيا، وشاهدتها في المسرح وفي عدة صيغ سينمائية، منها عمل والت ديزني الخالد "بينوكيو" الذي أخرج إلى النور سنة 1940 وكان من بواكير الأفلام الملونة.

وأمتعتني مشاهدة بينوكيو للكوميدي روبيرتو بينيني. وأما بينوكيو دل تورو الذي أخرج أخيرا فقد ارتقى بالحكاية إلى آفاق جديدة جعلت من الفيلم قصة لكل الأعمار. الفيلم رشح إلى أكثر من 130 جائزة وحاز على أكثر من سبعين ولابد أن أشيد هنا بأغنية الفيلم "شاو بابا" التي استحوذت على أكثر هذه الجوائز.

والمعروف أن قصة بينوكيو تروي حكاية دمية خشبية صنعها النجار جيبوتو تتمنى أن تصبح صبياً حقيقياً، فتتحقق أمنيتها، وتدخل في مغامرات مدهشة

ترمز الحكاية إلى تعلم الدروس وتحمل المسؤولية وبناء الشخصية وتحث على الصدق والأمانة حتى لا تطول أنوفنا كما يطول أنف بينوكيو كلما كذب. وترمز بالتالي إلى تحمل عواقب الأفعال. أخيراً يتعلم بينوكيو ويعلمنا قيمة التضحية، وكيف ينبغي على الإنسان أن يكون أخلاقيا وسامياً. وهي اليوم من أكثر قصص الأطفال شهرة وتأثيرا في العالم، فهي ليست مجرد حكاية مغامرات، إنها رواية المعاني العميقة في صيغة مبتكرة ومدهشة.

**برزخ بين جنّتين**

كانت الدليلة لوسيا بانتظارنا في بهو الفندق لاصطحابنا في جولة خاصة لزيارة المعبر الذي يربط بين القصر القديم وقصر بتّي (قصري آل ميديتشي) وقد تحول اليوم إلى متحف غير متاح للزور إلا بموعد مسبق.

كانت دليلتنا لوسيا الخالق الناطق لهيلاري كلينتون، لولا أن تلك عقربا وهذه الفلورنسية من مواليد الجدي.

عندما شرعنا في الجولة انضمّت إلينا سيدة تعمل في أمن المتحف تُدعى فلورا، وقد بدت لنا لطيفة كاسمها فلاسمها من مدينة فلورنسا نصيب، أو كأنها لفرط طيبتها زهرة خرجت من ربيع بوتشيلي. في الطريق شكوت للوسيا كسل الطليان فقد قصدت وصاحبي يوم أمس كنيسة سان لورندسو فقيل لنا أنهّا توصد أبوابها في وجه السيّاح اعتبارا من الواحدة والنصف ظهراً، كانت الساعة تقارب الثانية عندما بلغنا الكنيسة، فقالت مؤيّدة: هذه ملاحظة في مكانها، كثير من شبابنا يؤثر الكسل. وعندما بلغنا في جولتنا معبر أو ممرّ الفنان والمعماري فاساري، استيقظت في ذاكرتي كل الأشياء التي قرأتها وخبرتها من قبل عن المعبر الذي يفصل بين قصرين وعائلتين وزمنين، زمن ما قبل بنائه عندما كان آل ميدتشي يخالطون العامة، وزمن ما بعد إقامة المعبر الذي أصبح برزخا يطلّ منه آل ميدشتي على الناس دون أن يلحظ وجودهم أحد.

أنشأته الأسرة الحاكمة ليصبح جسراً خاصا يؤمن تنقلاتهم بين قصرين، هما قصر عائلة بتّي، وهي من العوائل الفلورنسية المنافسة لميدتشي، وقصر ميدتشي ذاته. عائلة بتّي فلقد اضطرت لبيع قصرها لغرمائهم بعد ضائقة كبيرة ألمّت بهم.

وأما سبب بناء المعبر، يعود إلى حادثة الاغتيال التي تعرّض لها جوليانو الوسيم والتي أودت بحياته، وهو شقيق لورينزو وشريكه في حكم فلورنسا.

جاءت الحادثة عندما كان على الأخـَوَين ميديشي مواجهة تصاعد هجمات الأسر المنافسة، وفي مقدمتها عائلة [باتسي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D8%A7%D8%AA%D8%B3%D9%8A) التي خطط كبراؤها ل[مؤامرة تُعرف بين المؤرخين بمؤامرة آل باتسي](https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=%D9%85%D8%A4%D8%A7%D9%85%D8%B1%D8%A9_%D8%A2%D9%84_%D8%A8%D8%A7%D8%AA%D8%B3%D9%8A&action=edit&redlink=1) والتي هدفت إلى قتل الشقيقين. وفي يوم [26 أبريل](https://ar.wikipedia.org/wiki/26_%D8%A3%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D9%84) من عام [1478](https://ar.wikipedia.org/wiki/1478) وأثناء القداس في كاتدرائية سانتا ماريا دل فيوري، هـُوجـِم الأخـَوَان، فضـُرب جوليانو حتى الموت. بينما أصيب لورينزو بجروح طفيفة، ونجا.

لم يترك لورينزو الرائع كما كان يُلقّب أمر الاغتيال يذهب بدم أخيه سدى، فقام بأعمال انتقام وثأر قاسية طالت المتآمرين ومنهم البابا [سيكستوس الرابع](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D9%8A%D9%83%D8%B3%D8%AA%D9%88%D8%B3_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A7%D8%A8%D8%B9) وابن شقيقه [جيرولامو رياريو](https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=%D8%AC%D9%8A%D8%B1%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%88_%D8%B1%D9%8A%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D9%88&action=edit&redlink=1) حاكم [فورلي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D9%88%D8%B1%D9%84%D9%8A) [وإيمولا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D9%8A%D9%85%D9%88%D9%84%D8%A7)، وطال انتقامه الشخص الأخير من عائلة باتسي اللائذ هربا في استانبول.

وهناك رسمة لليوناردو الشاب تسمى الرجل المشنوق وهو يصور فيها الحياة اليومية لفلورنسا عندما كان متدرباً في ورشة المعلم فيروكيو، والشخص المشنوق يمثل برناردو بارونسيللي وهو أحد الجناة في مؤامرة باتسي، وقد رسم معلقاً عند نافذة قصر ديل كابيتانو في 24 ديسمبر 1479، ويظهر مائل الرأس كما يظهر عادة المسيح المصلوب. فهل نستدل من هذه الحركة أن دافنشي كان متعاطفا مع الثوار الذين قتلوا جوليانو؟

مكثت حادثة الاغنيال تؤرق آل ميدتشي، فكيف لهم أن يخالطوا الناس في قدّاس وأن يضمنوا بقاءهم أحياء وهم راكعون عند المذبح ولا ولا يلقون مصير أخيهم الذي قُتل وهو راكع؟

قرر الميدتشي أن لا يخالطوا أحدا من الناس وتداولوا في وخلصوا إلى وصار بناء هذا المعبر الذي يمتدّ بين القصرين بطول 1500 متر، وهو ما يضمن لهم تجنب مخالطة العامة.

كانت فلورنسا تعجّ بالأبراج على عادة مدن إيطاليا التي طالما تنافست عوائلها في إقامة الابراج، ويتطاولون بها كرمز للمكانة الاجتماعية، وكان أحد هذه الأبراج يقع في طريق ممر آل ميدتشي، بحسب الخرائط التي وضعها المهندس فاساري، فعرض على مانييلي صاحب البرج أن يخترق الممر برجه ويمرّ من خلاله، فرفض الرجل عرض الميدتشي، فاضطر إلى أن يلتفّ الممرّ حول البرج الذي لازال حتى اللحظة شاخصا.

زُيّن المعبر بمئات اللوحات النادرة ذات القيمة الباهظة، وبشيء من الأسف قالت لويسا لقد خسرت ذاكرة العالم الجمالية نحو 130 لوحة في تفجير سيارة مفخخة في 27 مايو 1993 وأشارت من النافذة إلى شجرة زرعت في زقاق تورّي دي بولشي بين متحف أوفيزي ونهر آرنو، تذكيرا بالحادثة التي دبّرتها عصابات المافيا، مما أتلف هذا العدد الهائل من الأعمال الفنية، والذي مكث برغم الضرر البالغ في أمكنته للتذكير بحجم الكارثة الفاجعة، أما الرسالة التي أرادت المافيا أن توصلها إلى المسؤولين فيمكن اختزالها بالجملة المقتضبة التالية: دعونا وشأننا، وإلا فنحن قادرون على أن نطالكم كما فعل آل ميديتشي بآل باتسي.

بدأنا جولتنا مع الدليلة تصحبها الحارسة فلورا الأسد، وعندما أوشكنا على بلوغ الجزء المودي إلى الجسر القديم، بدأ الجو يميل إلى البرودة، فقالت الدليلة، إن لهذه البرودة وظيفة للحفاظ على اللوحات التي تزيّن المعبر.

ولقد كانت هذه التقنية المعمارية قائمة قبل اكتشاف الكهرباء ونظم الإنارة والتبريد وتفريغ الهواء المعاصرة، وبالفعل فإن اللوحات التي تزيّن المعبر وتمنحه بهاءه لا زالت صامدة بالجمال ذاته وبالإشراق ذاته.

شاهدنا لوحة حمام سوزانا وتُعرف أيضا باسم "سوزانا والشيخين" للفنانة أرتميسا جنتلسكي من عام 1526. وهي قصة مأخوذة من الكتاب المقدّس، تتناول سوزانا الجميلة التي راودها عن نفسها شيخان من القضاة بعد أن رأياها تستحمّ وهدداها بتلفيق تهمة الزنا مع شاب، فعفّت ولم تستجب فحكما عليها بالموت.

بدت لنا النوافذ التي تتوزع الممر محافظة على الهيئة ذاتها، فلقد كان بوسع كبير آل ميدتشي أن يطل من خلالها على الناس دون أن يكتشف وجوده أحد، وكأن لسان حاله يقول لهم: إنني أبصركم واصغي إليكم ولا تفوتني شاردة ولا واردة بينما ليس بمقدوركم أن تدركوا وجودي.

ومما حفل به المعبر صور للكاردينال ليوبولدو بوجهه البيضاوي الذي ورثه عن أمه النمساوية مجدولينا وهو الذي رعى غاليلو ودعمه أثناء إقامته الجبرية، كما شجّع الفنانين على الإقبال على رسم البورتريه، سواء الشخصي أو الذي يمثّل أشخاصا بعينهم. وكان لطيفا أن نرى بورتريه شخصيا نسب لبعض الوقت إلى دافنشي قبل أن يتمكن الخبراء من تأكيد أنه لا يعود إليه، فسألت الدليلة عنه، لاهتمامي الخاص بليوناردو وحرصي على الإلمام بالجوانب المختلفة من حياته ودقائقها، ولم يكن هذا البورتريه في حسابي، فقالت: إن الميديتشي كان من هواة البورتريه، وشجّعوا عليه، فانهمك الفنانون يرسمون أنواعا منه، ثم اتسع الأمر وصارت الأسرة تقتني ما يُعرض أمامها منه حتى وصل ذات يوم هذا البورتريه من أحدهم، وقيل أنه يعود إلى دافنشي ذاته، فاقتنته العائلة.

رأينا لوحة لماريا برتّي، وأخرى تمثّل كيوبيد وابسك للفنان كريسبي، وكان هذا تلميذا لكرافاجيو، وأظنه نقل لوحة أستاذه نفسها، وهو أمر كان شائعا في تلك الآونة، ووقفنا على لوحة أخرى لكلود لارين وقد صوّر فيها فيلا آل مديتشي التي تطلّ على الميناء، إلى جانب أربع صور بورتريه لفنانة اسمها روزليا كالديرا، وعندما تفحّصته وجدت فيه ملامح لا تخطؤها العين للفن الفرنسي، فقلت لها: إن هذا فنّ وتقليد فرنسيّان.

فقالت: إن الأعمال لفنانة من البندقية، تأثرت بالفن الفرنسي وأخذت طرائقه في رسم الوجوه، وخصوصا لمن ترغب بالزواج من الفتيات، فكانت ترسم وجوههن من أجل الترويج لهنّ بين طالبي الزواج، وكانت هذه الطريقة شائعة لتعريف الشبان بالفتيات، والمفارقة أن واحدة من هذه الفتيات الأربع هي التي حظيت بزوج، بينما الأخريات مكثن عوانس، بسبب أن الفنانة كانت تجتهد في رسمهن بطريقة تضفي عليهن جمالا يفتقدن إليه في الأصل.

قلت لدليلتي ما لعبه الرسم من دور في الثقافة الإيطالية لعبه الشعر في الثقافة العربية، ورويت لها حكاية المحلق الكتابي مع الشاعر الأعشى وكان هذا رجلا فقيرا وله ثماني بنات ويريد تزويجهن، فلم يبرح الشاعر سوق عكاظ وقد امتدح المحلق بقصيدة حتى زوجهن جميعاً. فلو قيض للفنيسيات الثلاث شاعر كالأعشى لتزوجن جميعا.

ومن اللوحات الجميلة التي شاهدناها في برزخ آل ميدتشي لوحة لبرنيني الإبن، وهو الذي نحت تمثال دافني، وهنا أودّ الإشارة إلى أن برنيني الأب وهو بلا ريب نحات مرموق، قال لابنه الذي فاقه مجدا وشهرة: لا يتمنى الفنان أن يجد من يجاريه في فنه، إلا في حالة واحدة، عندما يكون منافسه ابنه. وهي الكلمة ذاتها التي سمعتها من والدي أطال الله في عمره، ويقولها كل والد لولده.

ثم رأينا صورة يُطلق عليها "فتاة الرئيس" وهي لفتاة فلورنسية اسمها ماريا عشقها الرئيس توماس جفرسون، كما شاهدنا بورتريها للفنان مِنْجِزْ، وهو الذي أتى غوته على ذكره في رحلته وقال عنه أنه كان يجمع الأعمال القديمة، التي تعود إلى عصور سالفة، وكان قد أهدى أحدها إلى صاحبة النزل الذي أقام فيه، والحكاية سبق لي أن أوردتها في موضع آخر، وبورتريها للفنان الفرنسي هنري ماتيس رائد المدرسة الوحشية ذات التوجه التعبيري في الفن المعاصر.

كانت السيدة لوسيا تشير بيديها لتنبيهنا إلى بعض الدقائق والمواقف التي اشتملت عليها بعض اللوحات، فتشير مثلا إلى دمعة تترقرق في عينيّ شخصية في إحدى اللوحات، أو إلى حركة يد مفاجئة، أو ضربة لون، أو ابتسامة انفلتت من فم ما. لقد فوجئت بمستوى وكمية المصورات واللوحات التي لا نظير لها هذا البرزخ العامر.

ثم ولجنا إلى فضاء يعرض فيه الفن الحديث والمعاصر، وعندما سألتها عن الطريقة التي انتهت بها هذه الأعمال إلى هنا، قالت إن هناك أولوية وضعتها المدينة في اقتناء الأعمال من المزادات، وهي سبب وفرة الفن الحديث هنا.

قلت للويسا اننا كغيرنا من المهتمين نعلم أن آنّا ماريّا لويزا وهي آخر حبة من عنقود آل ميدتشي، تبرّعت لمدينة فلورنسا بكل مقتنيات عائلتها، فأُقيم في النصف الأول من القرن السابع عشر متحف للمجموعة في الأوفيزي، وكان قبل ذلك مبنى مخصصا لدائرة البريد.

والواقع أن فرعا أخر من آل ميدتشي كان يحكم المدينة في القرن التاسع عشر. وهنا سألت دليلتي هل الميديتشي الذي حكم المدينة في زمن المهراجا السالف الذكر كان ينتمي إلى الأسرة العظيمة نفسها؟

وكان جوابها المدهش أن هناك اليوم نحو خمسة آلاف شخص من عائلة آل ميدتشي يعيشون في فلورنسا، ولكنهم ليسوا جميعهم على الغنى نفسه والحصافة نفسها التي كان عليها أسلافهم، فهم يتحدرون من الأخوان والأخوات وليس من الإبن البكر ذاته.

عند نهاية جولتنا وبينما كنا نعود أدراجنا، سألتها عن الكيفية التي حدث فيها التحوّل من العذراء التي تعاقب على رسمها الفنانون إلى أفروديت الوثنية، والتي احتلّت كرسيّ العذراء في مصوراتهم؟ وكيف تسلّل العريّ إلى الفن الأوربي في تلك الفترة؟.

فقالت إن الكنائس في الغالب كانت ترعى الفنانين وكانت تسعى إلى توفير هذه الفضاءات الواسعة لهم، وعندما بدأت النهضة وأدخلت مفاهيم عدة إلى جسم العملية الفنية، وبدأ العصر بإعادة اكتشاف المنظور مرورا باستحداث حركات وموضوعات تستمد حياتها وأهميتها من الراهن، ظهر الفنانون الإنسانيون وهي حركة كانت الغاية منها أن تعنى بالإنسان في حياته، وتقدير وجوده وكينونته عوض إلغائه، فالأديان كانت تلغي جانبا إنسانيا هاما، فلقد كانت تنظر إلى الجسد على أنه تافه وقذر وحقير، لأنه ليس جوهراً، بل عرضا من الأعراض، ولا تكمن فضيلته إلا باعتباره وعاء غليظا وحقيرا للروح.

فظهرت الحركة التي ستعيد للإنسان، بما هو جسد وروح، اعتباره والنظر إليه على أنه السمّو والرفعة والفكر المفتوح والآفاق الواسعة. فظهرت طبقة التجار الذين عكفوا على حرث آثار الرومان ومآثرهم وأخذتهم الدهشة بما خلّفوا من جمال أخّاذ سواء ما اشتمل منه على الجانب الفني كالمنحوتات والجداريات الجصية ولوحات الفسيفساء العملاقة، أو الجانب الميثيولوجي، فكلّفوا الفنانين بمحاكاة واستلهام الفنون القديمة، وهكذا بدأت تظهر الرسوم التي تمثّل أشكالا من العري والوثنية، وأخذت أماكنها في البيوت والقصور، ثم بدا الفنانون ينالون التقدير. حتى وصلنا إلى بوتشيلي، وكان الرجل بما خلّفه من أعمال هي القشة التي قصمت ظهر البعير، فانطفأ بريق ماريا (مريم) وذاب وجودها لتحتلّ كرسيها أفروديت.

بالمقابل مكثت الكنيسة على تشجيعها للثيمة التي جاءت بها الكتب المقدسة (العهدان القديم والجديد)، ولكن في فترة لاحقة ظهرت مجموعة من البابوات ممن رعوا الفنون المستمدة من الميثيولوجيا القديمة وعملوا بدأب على إشاعتها وتعميمها.

ولدى سؤال لويسا عن الموضوعات الأكثر تداولا وشيوعا في فلورنسا اليوم، رأت أن الرجال يفضّلون الحديث عن كرة القدم، كما يهتمون بأخبار العالم. أما السيدات فيتحدثن غالبا عن الموضة والفنون، بما أنني متخصصة في الفنون وهذا هو المحيط الذي أتحرك فيه. أما أطفالنا فنحن نعيش ما يشبه الصراع الصامت معهم، فهم يريدون اللعب على المزلاج الكهربائي/السكوتر ونحن من جانبنا نحاول أن نثنيهم عن ذلك.

ثم سألتها عن المثلية الجنسية في فلورنسا: فقالت أن الصفة التي يمكنها أن تكون غالبة على المجتمع الفلورنسي هي المحافظة، ففي طفولتي كنا نقصد الكنيسة في أيام الآحاد وكانت أمي تعدّ لذلك اليوم ولكل ما سنحتاجه في اليوم السابق، أما أبناؤنا فلقد اتّسعت مداركهم واهتماماتهم ولم تعد الكنيسة غالبا من ضمنها.

كنا نتابع طريقنا، وقلت إن كثيرا من الآسيويين وأعني بهم تحديدا اليابانيون والكوريون والصينيون وغيرهم يقصدون فلورنسا. فالتفت إلى صاحبي وقلت له: مدارسهم هي من يدفعهم إلى ارتياد هذه المدينة وزيارتها والتعرف على كنوزها، أما مدارسنا، وبدت على محيا صاحبي مسحة من الألم، فليس في فلك برامجها شيء من هذا.

قبل أن نغادر الأفيسي ببذخه السامق، توجهنا بالشكر إلى دليلتنا السيدة لوسيا، والسيدة فلورا، وأخبرتها أنني سأذكرها في ما سأكتبه عن هذه الجولة، فقالت دليلتنا التي أخذت على عاتقها الترجمة بيننا، أنها تبادلنا الشكر، معبرة عن رغبتها في قراءة ما سأكتب عن زيارتي للمتحف. تبادلت وصاحبي نظرات سريعة ذات مغزى: لقد حان وقت عودتها إلى ربيع بوتشيلي.

في نهاية اليوم زرنا كنيسة كل القديسين التي تقع في ساحة تحمل الاسم نفسه، وتطلّ على الفندق الذي نقيم فيه، في هذه الكنيسة وقفنا على ضريح بوتشيلي لنقرئه السلام، ثم زرنا سيمونيتا سزيورتس، وكانت عشيقة ل الميدتشي (الوسيم المقتول عند المذبح)، وكانت هي التي صوّرها بوتشيلي في لوحة الربيع في هيئة أفروديت لتحتلّ كرسيّ العذراء. كما صور جوليانو القتيل نفسه.

**صحبة دافنشي ولسان الطائر**

قرأت باهتمام أجزاء أرسلت لي من كتاب رائع عن ليوناردو دافنشي وضعه شارلز نيكول ومما جاء في الكتاب أن ليوناردو الذي دخل في خصومات لا نهاية لها مع إخوته الشرعيين، كتب يقول: " الرجل الذي ضاجع بعنف واضطراب سوف ينجب أبناءَ سريعي الانفعال وغير جديرين بالثقة. ولكن إن تمَّ الجماع بحب عظيم ورغبة من الجانبين سيصبح الطفل مفكراً عظيماً، وحاذقاً، ونشطاً ومحبوباً." المقصود هنا الأطفال سريعو الانفعال الذين كانوا نتاج الرابطة الخالية من الحب، فليوناردو كان يشير على الأرجح إلى إخوته الشرعيين غير الأشقاء والأصغر منه سناً بكثير، والذين إقحم معهم في نزاعات قضائية مريرة في السنة التي كتب فيها هذه الملاحظة.(1507

لم يترك بيرو والد ليوناردو له شيئا، وهو الإبن غير الشرعي، في وصيّته، بل ترك كل شيء للأبناء الشرعيين، لذا ذهب فرويد إلى أن ليوناردو كان يكره أبيه، بينما أوصى عمّه –الذي لم يكن له أبناء- بكلّ تركته لليوناردو، لذا دبّ الخلاف السالف الذكر. يقول نيكول:

لم يكن لدى العم فرانسسكو، أصغر أبناء أنطونيو، كحال أبيه، أية طموحات ثقافية. وكان يؤثر الزراعة على التجارة. وقد عاش طوال عمره في فينشي بعيدا عن المدينة، مهتماً بمزارع العائلة والكروم. وفي إقراره الضريبي لعام 1498 كتب معبراً عن ضجره: " أنا في الريف من دون فرصة في الوظيفة." وكان فرانسسكو في الخامسة عشرة من عمره عندما ولد ليوناردو: عمٌ صغير جداً، وشخصية مهمة في نشأة ليوناردو. لقد تم تدوين ذلك في أول نسخة من حيوات فاساري في وصف خاطيء لسير بيرو دا فينشي كعمٍ لليوناردو. وإنّه لمن الممكن أن يعكس هذا الخطأ الغريب (والذي تم تصحيحه كما يجب في الطبعات اللاحقة) بعض المقولات الغامضة بعض الشيء حول كون ليوناردو أقرب إلى عمه منه إلى أبيه. وربما يكون من الصحيح جداً أنَّ بيرو كان أباً غائباً ومشغولاً ولا يتسم بالاهتمام الشديد. وأنّه من الصحيح بلا شك أنّه لم يترك أي شيء لليوناردو في وصيته. وقتها كان له الكثير من الأبناء الشرعيين. ولكن أن لا يترك له شيئاً لم يكن بالأمر الهيّن بالتأكيد. أما العم فرانسسكو فقد مات – على النقيض- دون أن تكون له أية ذرية، وترك كل أملاكه لليوناردو- وهو إرث كان لأبناء بيرو الشرعيين ونشأ عليه نزاع مرير.

هنا يهمني أن أدعو القارىء إلى مطالعة كتاب تشارلز نيكول المسمى "لوناردو العقل المحلق" وكتاب " لوناردو: من ذكريات الطفولة" لسيغموند فرويد. الكتاب الثاني قرأته مرارا، والأول عنيت بدفعه إلى الطبع.

\*\*\*

بينما كنت في تلك الآونة أتنقل بين قراءات في سيرة ليوناردو وأخرى في رحلة غوته في إيطاليا وأضع الملاحظات على دفتر عريض القطع لرحلة صاحب الديوان الشرقي في روما، نزلت في صبيحة يوم لتناول الإفطار، تناهى إلي لحن هبط من عوالم الطفولة، ويا للدهشة إنها أغنية جوتيم موا، أغنية كتبها سيرغ غينسبرغ في عام 1967 لتؤديها بيرجيت باردو، ولكن التسجيل ظلّ محفوظا حتّى أطلق عام 1986، وهذه الأغنية ظلّت ممنوعة في كثير من البلدان لاعتبارها أغنية إباحيّة، لم أكن على علم بذلك كلّه، ولكنّ ما أذكره إنها أغنية لازمت سنين المراهقة. وهي على رغم طول عهدي بها ما زالت تتردد بين جوانحي. ليوناردو يقول: الأشياء التي حدثت قبل سنوات طويلة عادةً ما تبدو قريبة وكأنّها قد حدثت للتو، وكثير من الأشياء التي حدثت قريباً تبدو قديمةً كما لو أنّها تجاوزت أيام الصبا. ذلك ألهمني أن أخط هذا الثناء على دافنشي.

دفاتر ليوناردو دافنشي (كودكس أتلانتيكوس) عبارة عن خارطة ذهنية لعقل ليوناردو تقع في مئات الصفحات من الكلمات والرسوم. فهي تشتمل على كلّ شيء بدءاً من أنصاف الجُمل المقتضبة، أو الحسابات المتعرّجة، إلى الأطروحات العلميّة المكتملة الإثبات، والتمارين الأدبية. والمواضيع تتفاوت في طبيعتها من التّشريح إلى علم الحيوان، مروراً بالديناميكيا الهوائيّة، والعمارة، وعلم النبات، وتصميم الأزياء، والهندسة المدنية والعسكرية، دراسة الأحفوريات، والهيدروغرافيا (علم وصف المياه)، والرياضيات، والموسيقى، والبصريات، والفلسفة، وعلم الآلات، ورصد النجوم، وتصميم الموانئ، وزراعة الكروم. والدّرس العظيم الذي تقدّمه الدفاتر هو أنَّ كلّ شيء خاضع للتساؤل، والتحقيق، والتمحيص، والمعالجة، وتحليله إلى عناصره الأولية.

وكان ليوناردو يوكل إلى نفسه أعمالاً منها الصغير والكبير: صِفْ كيف تتشكّل السُّحب، وكيف تتلاشى، وماهي أسباب تصاعد البخار من مياه الأرض إلى الهواء، وأسباب الضّباب، وما يجعل الهواء يتكثّف، ولِمَ يبدو أكثر أو أقل زرقة في مختلف الأوقات.

صِفْ ما هو العطس، وماهو التثاؤب، التّوعك، والتّشنج، والشّلل، والارتعاش برداً، والتعرّق، والرّهق، والجوع، والنّوم، والعطش، والشّهوة.. صِفْ لسان طائر نقار الخشب.

وقد كان ليوناردو- كما عرّفه كينيث كلارك، " أكثر البشر فضولاً دون كلل أو مللٍ في التاريخ"..

أدين في عثور على كتاب تشارلز نيكول عن ليوناردو إلى صاحب كان يحسن اختيار الكتب والعناوين التي أثرت رحلتي الإيطالية.

**سيدة من فلورنسا**

في عام 1502، اقتنى ليوناردو دافنشي عدسات مكبّرة، دلّت على بداية ضعف بصره، وبعد عام ذهب يفتّش عن فتاة توافق مشروعه الجديد الذي لم يمنحه اسماً بعد، أو ظلّ يسمّيه تجاوزاً: سيّدة من فلورنسا.

بدأ دافنشي، وقد ناهز الخمسين، يقلّب أفكاراً راودته عن الموت وراح يكتب: «تنزع الروح إلى أن تبقى ملازمة لجسدها، فهو الذي يمنحها الحسّ وآلية الحياة». وقال: «لكل أذى ما ذكرى مؤلمة يخلّفها، إلا أعظمها وهو الموت، الذي يقتل الذكرى جنباً إلى جنب مع الحياة». وقال أيضاً: «أيها القابع في سباتك، ما النوم؟ النوم صورة الموت، فالأحرى بك أن تبتدع من الأعمال ما يخلّدك بعد موتك، بدلاً من أن تفني حياتك نائماً متشبهاً بالميتين». وكان يردّد على أصحابه: «الحياة المادية هي موطن الروح، والموت هو إقصاؤها، إنها تخرج «على غير إرادتها»، ولا يبدو أنها متجهة إلى السكنى بالأعالي».

كان دافنشي قد رأى الموت بأمّ العين في غزوات «تشيزارِهْ بورجيا»، الابن غير الشرعي لبابا الفاتيكان إسكندر السادس. رأى مصارع الرجال بشكل مكثّف في ذلك العام الذى بدأ فيه بصره يخبو. رأى آلاته وخرائطه وسلاحه كيف راحت تحصد الأرواح، وانتهى بعد عام في فلورنسا يتابع ما انتهت إليه دولة آل بورجيا، وما انتهى إليه سيّده، فشرع يفتّش عن وجه لمشروعه الجديد كعادته، ووجد ضالّته في امرأة متزوّجة. وفقاً للتقاليد فإن العمل يمثل ليزا غيرارديني، أي "الموناّ" ليزا (وهي اختصار لكلمة "مادونا" مشتقة من الكلمة اللاتينية "ميا دومينا" والتي سيكون لها اليوم نفس معنى "سيدتي")، زوجة فرانشيسكو ديل جوكوندو (بالتالي ​​"لا جوكوندا"). بعد كل شيء، كان ليوناردو، في تلك الفترة من إقامته الثالثة في فلورنسا، يعيش في منازل مجاورة لقصر غوندي (وهو خراب الآن) على بعد خطوات قليلة من بياتزا ديلّا سينيوريا، التي تنتمي إلى فرع من عائلة غيرارديني من مونتالياري. وكان يعرض على زائريه في مرسمه في فرنسا في سنيه الأخيرة ثلاث لوحات:

الأولى لوحة «القدّيس يوحنّا»، والثانية «العذراء والطفل مع القدّيسة آن»، ولوحة ثالثة يقدّمها بعنوان «سيّدة من فلورنسا»، يجمع النقّاد على أنها الموناليزا، الاسم الذي لحق بها، وظلّ يلاحقها في زمن السرّ الدائم حتّى الآن. هل اختار ليوناردو دافنشي ليزا جيرارديني من فلورنسا نموذجاً لملاك الأرواح؟ تلك اليد الخفيّة التي ستستلّ روحه بعد سنين، هذا ما صرت إليه كلّما اقتربت متأملاً اللوحة، عيناها الضّيقتان، نظرتها المحدّقة، ابتسامتها الغامضة، عطلها من الحليّ، زيّها الضارب إلى السواد، والدروب الموحشة الموحلة لتوسكانيا خلفها، والألوان التي تشعرك بدنوّ ساعة غروب الأجل، وتعللّه الدائم، بأنه لم يفرغ منها بعد (قبل أن تفرغ منه)، والقاعة الثالثة عشرة التي تسكنها في فضاء قصر اللوفر الأولى. وأظنّه نظر إليها يوم السبت الثالث والعشرين من نيسان (أبريل) عام 1519، بعدما فرغ من إملاء وصيّته، وظلّ ينظر إليها إلى أن فاضت روحه بعد بضعة أيام، في الثاني من أيار (مايو) بعدما استعدّ العالم فيه والفنّان لولوج البحر العظيم.

**جيوكندا دافينشي**

هل سبق لك أن رأيت الموناليزا وجها لوجه؟ سألت كلّ من شاهد زوجة تاجر الحرير الفلورنسي عمّا انتابه لحظة لقائها العين بالعين؟ أجاب بعضهم: أنّه شعر بسحر غامض يسرى في جسده، ولم يجد له تفسيرا. بُهتّ، قال أحدهم؛ "خيبة أمل كبيرة" قال آخر؛ بعضهم قال: خيّل لي أنّها قدّيسة تنزّلت من السماء؛ قال شاعر كبير: رأيت رجلا! وآخرون قالوا: لم تحرّك فينا ساكنا، فالفتاة ليست على حظ وافر من الجمال، إن لم تكن هناك جملة من العيوب: فالأنف طويل نسبيّا، والحواجب نسيتها ريشة الفنّان، والعينان ضيّقتان يعوزهما الكحل؛ وقال آخرون: كلّها جبين، أو خفيفة الشعر، إلى غير ذلك من مثالب.

مادالينا زوجة التاجر أجنولو دوني جلست ذات الجلسة في نفس التاريخ ونفس المدينة أمام الشاب رافائيل الذي كان متأثرا بدافنشي حتّى اختطف فكرته، وأنجز لوحته الشبيهة بالمادونا على عجل، دون أن يثير جلبة. واللوحة تمنحك صفاء في الألوان قلّ نظيره، كما أن مادلينا بدت مزيّنة بقطع المجوهرات على خلاف الموناليزا العاطل.

لا يكترث المهتّمون اليوم بموناليزا رافائيل المغمورة، بل بالحسناء العاطل، ولكنّهم يسألون: أليست العذراء عند الصخور، أو المادونا في أكثر من لوحة له، أو القدّيسة آن، أو ليدا المغرية، أكثر جمالا؟ ويعجبون، كيف قضى السنوات الباقية من عمره - وكان قد ناهز الخمسين- في لوحة أنفق عليها من ماله وروحه، إذ راح يسخّر لها فريقا من العازفين والمهّرجين، ليذهب عن نفسها الغمّ والحزن أو الوحدة والملل، وهي ماثلة في وضع ثابت لا يرفّ لها جفن.

 لقد أسهب فاساري في وصف جفنيْ الموناليزا، ولكن كل الاختبارات الحديثة التى أجريت على اللوحة لم تعثر لهما على أثر. فهل تراه رآها أو نقل ما سمعه عنها؟ وهل طالت الترميمات وعوامل الأكسدة طوال الخمسمائة سنة الماضية نهار اللوحة فبدّلته غروباً، إذ شكا الناس ذلك منذ مطلع القرن السابع عشر، وسوء ما آلت إليه اللوحة، إثر الأخطاء التي ارتكبها المرمّمون؟

وعلى الرغم من حماس البعض للموناليزا، إلا أنها لم تعدّ عملا خارقا أو استثنائيا. ولكن بزوغ نجمها بدأ في منتصف القرن التاسع عشر، وولد في شمال أوروبا بالتحديد، إثر موجة الافتنان بعصر النهضة في إيطاليا بشكل عام، وبعبقريّة ليوناردو المتعدّد المواهب بالتحديد. وكان اختيار السيّدة الفلورنسيّة قصر اللوفر سكنى لها في باريس منعطفا آخر لتلك الشهرة، إذ اختارت هذه النبيلة ودافنشي نفسه المنفى وطنا. ثمّ أسهم الأدباء في إعلاء شأنها بما دبّجوا بها من عبارات المديح والثناء. قال عنها الروائي والناقد الفنّي ثيوفيل جوتيه: عنقاء الجمال ذات الابتسامة المحيّرة، وأثنى عليها الشاعر ييتس بطريقته، وكذلك أوسكار وايلد، وسومرست موم، وفورستر الذي نعتها في روايته "غرفة ذات إطلالة" بقوله: تلك التي لا نحبّها، لأنها تضنّ علينا بما يجيش في صدرها من حديث.

**الموناليزا تبعث من جديد**

في يوم الاثنين الحادي والعشرين من أغسطس عام 1911، حلّقت الموناليزا في سماوات المجد، عندما خطفها لصّ في الحادية والثلاثين من العمر يدعى فينزنسو بيروجيا، رسّام ومرمّم وصاحب سوابق يعمل في اللوفر، كان يريد اختطاف الآلهة مارس وفينوس لمانتينا، ولكن اللوحة كانت أكبر من أن يحتملها كاهله، فاكتفى بالموناليزا الأصغر حجما والأخف حملا. ولفّ الحسناء التي استسلمت للثعلب في قماش، وخرج دون أن يثير أدنى ريبة. ولم يفلح المحققون في الكشف عن هويّة الخاطف، وطال التحقيق كثيرين من المشتبه بهم بمن فيهم بيكاسو الذي شوهد غير مرّة يحوم حول اللوحة. وفي أواخر نوفمبر 1913 أرسل فينزنسو رسالة إلى تاجر التحف الفلورنسي ألفريدو جيري يعرض فيها ردّ السيّدة الفلورنسيّة إلى وطنها لقاء نصف مليون ليرة، فأعلن التاجر قبوله العرض. وفي الثاني عشر من ديسمبر استقلّ بيروجيا بصندوقه الخشبيّ القطار إلى فلورنسا، واستأجر لدى وصوله غرفة في فندق خامل، سيعرف في ما بعد باسم الجيوكندا. وفي لحظة اللقاء الحاسمة فتح الصندوق أمام تاجر التحف الذي كاد أن يتوقّف قلبه، وأخرج زوجا من الأحذية القديمة، وبعضا من الملابس الداخليّة البالية التي تبعث على الغثيان، ثمّ جلا العروس التي طال غيابها. اعترف الفريدو بالمشاعر التي انتابته ساعة رآها، وكيف راح بورجيا يعرض اللوحة ويتقمّص دور دافنشي نفسه. "أميرتكم ردّت إليكم"، قال بيروجيا كمن حقّق مجدا مؤثلا، وها أنا أنتظر الثواب، عندها انقضّ رجال الشرطة من كلّ مكان وألقوا القبض على الثعلب فينزنسو وأودع السجن.

منذ ذلك اليوم تصطفّ طوابير الزوّار القادمة من كلّ فجّ عميق أمام الغرفة **13** في الدور الأول من القصر لتقديم واجب الاحترام للنبيلة الفلورنسيّة، حمدا على سلامة الإياب.

**فلورا والحرمل**

تداعيات المسافة في جنان لوحتين

أبدأ في لندن، قاعدة المملكة المتحدة، بما رحبت، فلقد كانت ذات يوم لا تغيب عنها شمس الله، وتمدّدت خارج الجزيرة آلافا من الكيلو مترات، وعمّرت من الحدائق والفراديس أعدادا كبيرة في كلّ مدنها، ناهيك عن الإقطاعيات التي تملكها العوائل النبيلة وغير النبيلة، ففعلت ما فعله آشور بانيبال من قبل عندما كان يعود من البلاد التي يغزوها ويستعمرها بأنواع من نباتاتها ويجتهد بغرسها في عاصمته، بالرغم من أن امبراطوريته كانت تغيب عنها الشمس دون تأخير.

أما البريطانيون فلقد جلبوا أنواعا عديدة من النباتات من بلاد قصيّة واجتهدوا في تدجينها وتهجينها وغرسها في حدائقهم التي تكاثرت بتكاثر البلاد التي وصل إليها نفوذهم، ومسرحيات شكسبير تزخر بالزهور وقاموس هذا البستاني منها غنيّ جدا. وبالرغم من قسوة الشتاء الذي لا يرحم، وقِصر فترة الربيع، إلا أنها مدة كافية لتزهر أعداد وأنواع لا تُحصى من الزهور، وهي التي قبض عليها شكسبير بكلتا يديه.

في المقابل، فإنك غالبا إذا ما سألت شاعراً عربياً أن يسمي لك باقة من الأزهار، فهو إما أن يسوق أسماءها مجردة فهو لم يرها، أو أن يحصي لك أسماءها على عدد أصابع يده الواحدة، فالعرب في تراثهم المكتوب تجريديون في ذاكرتهم غالباً لأنها تلتقط الشيء دون أن يكون في مقدورها أن تنسبه إلى شكل أو هيئة محددة.

خطر ذلك كلّه على بالي وأنا أقف أمام لوحة بوتشيلي التي صوّر فيها الربيع، وترى طائفة من نقاد الفن أنها من أشهر ما تركه لنا الفنان الذي عاش في فلورنسا، وهيتقدّم دليلا على صلته الوثيقة بالأوساط الأفلاطونية المحدثة، فباتفاق من النقاد ومؤرخي الفن كانت لوحتا "الربيع" و"مولد فينوس"، من وحي لورنزو دي مديتشي ابن عم "لورنزو العظيم.

تنتصب اللوحة في متحف الأوفيتسي بفلورنسا ويفد إليها نحو أربعة ملايين زائر كل عام، صوّر فيها الإله زفيروس رب الريح وهو يزفر الهواء من موضعه في أقصى يمين اللوحة، وأما الحورية التي تموجها الريح بين يديه فهي كلوريس، وتظهر فلورا إلهة الربيع مغطاة بالزهور، وأما الحسناوات الثلاث من اليمين الى اليسار فهن تباعا آلهات الجمال، والعفة، والمتعة.

ويظهر الإله مركوريوس رسول عطارد شابا بعباءة حمراء يقف إلى اليسار متقلداً سيفا ورافعاً يده في حركة تحث الربيع على المجيء. وتتوسط اللوحة الإلهة فينوس إلهة الحب والجمال عند الرومان، ويحوم حول رأسها كيوبيد على هيئة طفل مجنّح مصوّباً أحد سهامه نحو آلهات الحبّ وهنّ يرقصن.  
وتمثّل اللوحة تعبيرا جليا عن أعماق فكر عصر النهضة الذي كان مشغولا بكل ما هو حسّي.

يرد عن بوتشيلي أنه كان على وشك أن يتلف أعماله بسبب خطب سَافونارولا التي هاجم فيها الفن والفنانبن بشراسة ونسبهم إلى الوثنية.

تعدّ لوحتا بوتشيلي "مولد فينوس" و"الربيع" علامتين فارقتين في تاريخ الفن، فهما تَفصلان بين عصرين، أحدها كان على وشك أن يولّي الأدبار، أما الآخر فهو آت، وأعني بهما ما قبل الرينيسانس وما بعد الرينيسانس.

يشار إلى أنّ بالإمكان تمييز 500 نوعٍ من النباتات في اللوحة، وحوالي 190 زهرة مختلفة. وإنَّ 130، على الأقل، من الـ190 نوعاً من الزهور المصوّرة في اللوحة ذات تسميات محددة.

والمظهر العام في اللوحة يشبه كثيراً المنسوجات الفلمنكية التي كانت شائعة في ذلك الوقت. وبلا ريب فلوحة "الربيع" تعد من أكثر اللوحات التي تناولها النقاد في تاريخ الفن، وقد لا يتقدم عليها في ذلك سوى لوحة الموناليزا.

وبينما أنا أتأمل إلى ربيع بوتشيلي تذكرت جلسة جمعتني بجدي خليفة رحمه الله سألته خلالها: هل يوجد عندنا زهور؟

ولعل ما دفعني إلى سؤاله تلك الزهرة التي غزت طفولتي بظهورها المتكرر على علبة حليب مبستر كنا قد نشأنا عليه بالرغم من أنه يعد نوعا غير صحيّ، وقد عرفت لاحقاً، أن اسمها الكارنيشن، وهي ترمز لديهم إلى الحب والإخلاص.

زهرة يتيمة تختزل في ذاكرتي ومخيلتي جنان الأزهار.

أما إجابة جدي فكانت: نعم، ثم أخذ يحصيها عليّ حتى قارب عددها الأربعين زهرة. لكن هذه الزهور التي أحصى جدي أسماءها لم أر منها شيئا طيلة حياتي بسبب أنها موسمية وترتبط بالمطر ولا تصمد كثيرا عندما يحتبس عنها.

لقد نشأت في بيئة ليس فيها إلا الغاف، والسمر، والحرمل، وهو الذي اشتقّ اسمه من الحرّ والرمل، لذا فإن وجودي أمام لوحة بوتشيلي شبيه بالوقوف أمام واحة حقيقية، أنا الذي قدمت من جغرافية اللازهر، ومن مفازات طالما ضلّلت من دخل في أحشائها الرملية، إلى جنة فلورنسا التي استمدت اسمها من إلهة الربيع فلورا.

إنها، بلا شك، حالة تكثّف فيها الزمن مثلما تكثّف فيها التاريخ واجتمعت الجغرافيا، فأنا الآن في الجهة الأخرى القصية من هذه الصحارى التي تنفتح على بعضها مثل فم عملاق، أو كالمسافر أو العابر الذي انتقل من قحطٍ إلى عدن، أو من قحطان إلى عدنان. بوتشيلي برباته وأربابه وربيعه الطلق جعلني أقف قبالة نفسي لأحصي في مراياه أزهار طفولتي.

**أتدري كيف أحبك؟**

**بين شاهدة وحديقة**

في فلورنسا مررت بمنزل اليزابيث براوننغ وهي زوج الشاعر العظيم روبرت براوننغ، في طريقي انعطفت يسارا محاذيا نهر آرنو إلى أن بلغت الجسر القديم، فعبرته إلى بيازا دي بيتي ومنه إلى شارع فيا ماجيو هناك تقع شقة الشاعرين وقد تحولت اليوم إلى متحف صغير. وفي طريق عودتي عبرت الجسر القديم، قاصدا المقبرة الإنكليزية لإلقاء التحية على الشاعرة صاحبة الشقة الراقدة الآن هنا تحت شجرة الصنوبر، ويرقد زوجها تحت قبة كنيسة في لندن.

في المقهى المطل على ساحة الورود في حديقة «ريجنت» حيث كان يلذ للصديق الراحل «نزار قباني» الخلو مع الطبيعة، جلست وصاحبي نتبادل أطراف الحديث عن اليزابيث الشاعرة التي طالما ترددت على هذه الحديقة الملكية وآنست النزهة فيها، ولعلها في ما قضته من أوقات هنا شاهدت ما شاهدنا من كائناتها الجميلة، ولربما تكون نظمت من وحي تلك الأوقات بعض روائعها الخالدة، ورحت أنشد صاحبي من إحدى قصائدها ما ترجمته:

**أتدري كيف أحبك؟ دعني أتحرى السبل.**

**أحبك إلى أقصى ما يمكن لروحي أن تبلغ من أمداء،**

**عمقاً.. واتساعاً.. وسمواً...**

**حيث يتجاوز الشعور حدود البصر**

**إلى نهايات الكينونة واللطف الإلهي.**

**أحبك ملء حاجة اليوم إلى شعاع الشمس ونور الشمعة.**

**أحبك بحرية الرجال الجاهرين بالحق**

**وأحبك بنقاء الزاهدين بالثناء.**

**أحبك بعاطفة تجيش لتقهر كل ما في طفولتي من أحزان.**

**أحبك، أحب فيك كل ما قدست من حب وفقدت.**

**أحبك بالأنفاس وبالابتسامات والدموع وبملء كياني أحبك،**

**وإذا ما اختارني الله يوما فلسوف أمضي وحبك يمضي ويكبر معي في الآخرة.**

عند نافذة غرفتها اللندنية في الطابق العلوي في غلوستر بلس تناهبتني الخواطر عن اليزابيث الشابة العليلة المبتلية بالمسكنات تهدئة لآلامها... كان عزاؤها الوحيد هو الشعر، ولما انتهى إلى روبرت بعض شعرها ألح على مقابلتها. كان ذلك اللقاء فاتحة لتبادل رسائل الحب التي استمرت عاما ما بين 1845-1846.

"لأ**نه ما من أحد سواك في هذا العالم يمكن أن يضمني ويهبني الحياة، فقد عدت إليك وحدك، ألبي نداء صوتك لأنني وجدت فيك من يحتاجني جئت لأقضي معك ما تبقى لي من عمر. أحبك وأشكر الله على هذه النعمى فأنت لي أكثر مما استحق.".**

كانت إليزابيث في الأربعين من العمر عندما تزوجت سراً من روبرت براوننغ وفرا معاً إلى إيطاليا بعيداً عن قبضة أبيها القاسي وسجنه المظلم، وفي مدينة دانتي سوف ينجبا صبياً يسميانه روبرت.   
على بعد خطوات من البيت الذي ولدت فيه اليزابيث وعاشت سنوات حياتها المريرة تقع كنيسة مارلبورن التي عقد فيها قرانها على روبرت وهي الكنيسة التي ترددت على زيارتها وصحبي مراراً خلال تجوالي اللندني. المؤلم في قصة حياة الشاعرين أن اليزابيث توفيت في السادسة والخمسين من العمر، وعاش براوننغ بعدها عقدين ونيف من السنوات ومات في البندقية ونقل رفاته ليدفن في ركن الشعراء في كنيسة ويستمنستر آبي في لندن.

**جنيفرا التي رأيت**

**في حضرة لوحة لليوناردو**

وجهها شاحبٌ، مستدير ومكتئب، إنّه يشّع في شجيرات العرعر القاتمة، مثل قمر يبزغ من بين الغمائم. الضوء البعيد يتلألأ فوق المياه، ويمسُّ الأشجار الرقيقة التي تبدو مثل الأطياف، وقد يكون ضوء القمر أيضاً، فمن المفترض أنَّ الوقت في اللوحة هو لحظة الغسق.

يظهر التثاقل على جفنيّ السيدة الجالسة، وعلى نظرتها يظهر التجريد. وأيا يكن ما تنظر إليه هاتان العينان الجميلتان السارحتان، فلا يبدو أنّ بمقدورهما التركيز. إنّها تنظر بعيداً، وليس في الإمكان معرفة مدى هذا البعد. شعرها أشقر أو كستنائي اللون صفف بعناية، وبدا ناعماً ولامعاً وفي هذا إشارة لاستخدامها زيتاً معطراً لتثبيت الشعر. وبدت خصلاته حلقات ودوائر صغيرة في محيط وجهها. في وسط هذا السكون السحري للوحة، تمنحنا تلك التجعيدات الدائرية الملتفة والمبرومة إحساساً مباغتاً بالتحرر من القيود والتخلص منها. تلك دفعة من الحيوية الغامرة تجلت من خلالها عبقرية الفنان.

في الخامس عشر من يناير 1473، وهي في السادسة عشرة من عمرها، تزوجت "جنيفرا" من تاجر أقمشة يدعى "لويجي دي بيرناردو نيكّوليني"، وقد شاع اعتقاد بأنَّ لوحة "ليوناردو" كانت بمناسبة الزفاف، وكان تكليفه بها من قبل زوجها، لكن "جنيفرا" ارتبطت، وبشكل لا يخفى على أحد، بالدبلوماسي الفينيسي اللامع "بيرناردو بيمبو"، ويشير أحد الأدلة الحديثة إلى أنّه هو الذي كلّف "1475م، كان في بدايات أربعينيات عمره، وله زوجة وولد في الثانية من العمر، وعشيقة وابن منها في مكان آخر من حياته، ولكنه سرعانَ ما ألقى بنفسه في علاقة أفلاطونية علنية مع "جنيفرا" التي قضت أرملة بلا أطفال. جينفرا هي أول لوحة كلف بها ليوناردو، وهي تمنحنا العالم، مرئياً بنوع من النشوة، من خلال عينين مرمريتين ميزتا وجهها ذا السمة الحالمة، حتى لكأن صاحبته ليست من البشر تماماً.

**نزهة ربيعية**

**القدمان في** **كاتشيني والخطوات في أبوظبي**

نعمت بصحبة في نزهة رائعة نهار اليوم، اخترقنا متنزه كاتشيني الذي بللته أمطار شباط، نحن في سعد بلع، وتحديدا دخلنا ما يعرف بأيام العجوز التي ذكرها الجغرافي والرحالة المسعودي وسرد أسماءها يوما يوما:

**كُسِعَ الشِتاءُ بِسَبعَةٍ غُبرِ أَيّامَ شَهلَتِنا مِنَ الشَهرِ**

**فَإِذا انقَضَت أَيّامُها ومَضَت صِنُّ وَصِنَّبرٌ مَعَ الوَبرِ**

**وَبِآمِرٍ وَأَخيهِ مُؤتَمِرٍ ومُعَلِّلٍ وبِمُطفِئِ الجَمرِ**

**ذَهبَ الشِّتاءُ مُوَلَّياً هَرَباً وأَتَتكَ واقِدَةٌ مِنَ النَّجرِ**

ولمّا بلغنا سوق الأحد رأينا البضائع المتباينة التي عرضها باعة هم ضروب مختلفة من الجنسيّات، عدد من الأفارقة من أولئك الذين كتبت لهم النجاة في عبور البحار هربا من جحيم أوطانهم، أردد كلمّا رأيت جموعهم قول أبي الطيّب:

**تجمّع فيه كلّ لِسنٍ وأمّةٍ فما تُفهِمُ الحدّاثَ إلاّ التراجمُ**

قال صاحبي بعد أن قضم قطعة كروكانتي وهي حلاوة من الفول السوداني، أنه قرأ عن شائعة متداوله عن بولجاري تاجر المجوهرات الشهير في كتاب "لماذا يحبّ الإيطاليّون الحديث عن الطعام" لإيلينا كوستوكوفتش أنّه لمّا اختطف كان معصوب العينين فلم ير مختطفيه ولا المكان البعيد الذي حُمل إليه، ولمّا أطلق بعد دفع الفدية عاد إلى منزله آمنا وأخبر الشرطة عن شكل الخبز ونكهته الذي تناوله عند الخاطفين وكذلك طعم الصلصة، فقبض عليهم نتيجة ذلك، وأضاف، كلّ قرية في إيطاليا لها وصفتها.

نحن الآن في سعد الأخبية، أو كما يُعرف عند البعض بالحميمين، أتجول في متنزّه كاشيني، في جو تبلغ حرارته 18 مئوية، لمحت سحليّة اسطنبول الخضراء، إنّها من جنود سعد. ولقد وطّنت نفسي على ارتداء ملابس سميكة كلما غادرت خارجا، وها أنا أشعر بالغليان كما لو أن سعد الأخبية دثّرني بأخبيته كلها حتى بدا لي وكأن الحرارة بلغت الأربعين مئوية، فخرج لي طيف جدي خليفة رحمه الله وهو في ظلال نخيل بستانه في الجيمي.

قال بجذل وهو يشير إلى شجرة هنبا مانجو هنا غرس ابني أحمد (والدي) هذه الشجرة، نمت بعد أن رمى بصلّامة مانجو كانت محض نواة، وها هي الآن شجرة باسقة.

كم ظلّلتْ هذه الشجرة طفولتي بأغصانها الوارفة، بيد أنها لم تعد موجودة الآن، فلقد سقطت إثر هبوب ريح. وكم أحببت ثمارها، وانجذبت إلى العبق الشذي في الهنبا العماني.

كان جدي خليفة يحب والدي ويقرّبه ويؤثره على أولاده ولم يكن يطيق صبرا على فراقه. وعندما دخل الوالد معتركات السياسة والحياة وأصبح وزيرا للخارجية، لم ينقطع عن محادثة والده بشكل يوميّ، ولكن الهاتف، هذه الآلة التي كانت على أيام جدي بمقبض يأخذ شكل اليد، تجعل الجد رحمه الله يمسك بها كما لو كانت يد والدي ذاته، فيتحدث وهو يوقن أنه ممسك بالشيء الوحيد الذي من شأنه جعل ابنه الأثير قريبا منه، بل ويتشارك معه المجلس نفسه.

ولقد ذكر الوالد أن جدي كان أثناء المهاتفة يصمت بين فترة وأخرى، وقد يطول صمته كعادة ما يتخلل المجالس من سكوت. فلقد كان يحدّثه كما لو كانا لا يزالان معا، ولم يبرح المجلس. فالصمت في المجالس يطلق نوعا من الأحاديث الداخلية التي تستكمل الحديث الفعلي.

ولأن الشيء بالشيء يُذكر، فلقد ذكر لي صديق أن شيخين من كبار السن في ليوا جمعهما مجلس، وحانت منهما التفاتة الى التلفاز، وكان يعرض مسلسلا اجتماعياً، فسأل أحدهما صاحبه: هاذيلا (هؤلاء) ما يسكتون؟، كيف توالمهم (تلائمهم) الجلسة؟.

فردّ صاحبه: والله إن معاك حق، هاذيلا ما يوقفون رمسه (يتوقفون عن الكلام)

لأن المجالس تشتمل على مساحة من الصمت لم يجدها الشيخان في المحاورة التلفزيونية.

في مملكة نبات طفولتنا لم تكن هناك سوى شجرة مانجا وشجرة سدر كنا نأخذ منها ثمر النبق. والنبق نوعان أحدهما المحليّ الطيب الطعم والرائحة، والنوع الآخر هو الذي دخل الأسواق من بلدان أخرى ويكون حجمه كبيراً، ولكنه يفتقد إلى الطعم والرائحة اللذين ألفناهما في سدرة مزرعة الجيمي.

كانت تنتصب بالقرب منهما شجرة ليمون ونطلق عليها (اللوميّة) وكان هناك اليخاخ وهي التسمية المحلية لشجرة الأترنج، ونطلق عليه ترني. وإذا كان لي أن أضيف شيئا من الفواكه النادرة فسوف أدرج الموز، وهو الذي لم أره مثمرا من قبل أبدا، وشجرة اللمبو التي تعدّ من الفواكه بالغة الندرة في طفولتنا. وأتذكر ما قاله العم سعيد من أن والده أحمد بن خلف جاء بالصرم (صغار النخل) من البصرة في سفنه، ولقد كانت أبو ظبي في تلك الآونة جزيرة قاحلة.

أما اللوز البنجابي الذي ينتشر في أبوظبي وباقي الإمارات الآن، فوجوده حديث عهد، وأصبح طعمه مختلفا عما عهدناه في تلك الأيام، فهو يتخذ حيزاً بين الردئ والأردأ، والقليل منه فحسب ذو مذاق طيب، وهو مبتلى بآفتين، أولاهما أنه سريع التفسّخ، وآفته الأخرى هي الديدان، إلا تلك الشجرة التي لا زالت تمدّ جذورها في ذاكرتي، كانت في قصر الحصن، وكنا نقصدها أنا وثلّة من الأصدقاء كقبيلة من الجن بعد انتهاء اليوم الدراسي، فنرابط على باب القصر وماهي إلا برهة حتى يفتح الحرس الباب، وكان والدي يومها رئيسا للديوان الأميري، فأشرع بتسلّقها. لم أذق أعذب ولا أطيب طعما منها، وهي أيضاً لم تعد موجودة.

وكلّما تداعت إليّ تلك الأيام، أدعو لها بالسقيا وأردّد قول الشاعر:

**سقى الله أيام الصبا ما يسرها  ويفعل فعل البابليّ المعتق**

أسير في متنزّه الكاشيني وغبار الطلع يرتفع في الجوّ ويهب على الطريق كندفٍ من الثلج، هو المشهد ذاته الذي صوّره فلليني في روما ذات يوم، ولعله أن يكون أيضاً المشهد الذي دفع الأقدمين إلى الاعتقاد أن عشتار ربّة الخصب هي التي تقف وراء هذا الطقس الأزلي للطبيعة، فأقاموا لها عيدا في هذا الفصل وأسموه عيد عشتار، لقد سلبت العصور اللاحقة الإلهة عشتار عيدها فصار الإيستر هو عيد قيام المسيح.

**عشاء عيد الفصح في بلاجيو**

كانت ثريّات مطعم البالاجيو الباذخة في فندق الفورسيزونز من المورانو الفاخر، بدت لي أشبه ما تكون بثريات قصر فيوليتا في أوبرا لاترافياتا. قلت لصاحبي: إنها من ذلك الزجاج الذي نفثت فيه الروح، إنه حيّ ينبض، وكنت شاهدت ذلك بأم عيني في زيارتي لجزيرة مورانو قبل أعوام، وبالاجيو كلمة باللهجة الفلورنسيّة تعني: حيّ، تذكّرت قولا لقريب لي: زهّدني في الألماس إنّني لا أميز بينه وبين الزجاج، والمورانو إذا ما أجيد صقله ضاهى الألماس، وتزيد قيمته بازدياد عمره.

عقدنا العزم على اختبار قائمة العشاء التي أعدّت بمناسبة عيد القيامة (الإيستر) والكلمة في الأصل مشتقّة من عيد عشتار آلهة الخصوبة قبل مجيء الأديان السماويّة، ولقد سلبت الربّة عيدها وأهدي للمسيح، قالت سيدة من المسيحيين الأرثدوكس: هاتفني صديق وقال: مبروك قيامته (يعني المسيح)، فردت عليه بظرف : المسيح ما قام، مازال نائماً، أمّا السيدة الفلورنسيّة الرقيقة الإيمان كما يقولون فقد ردّت على موظّف الإستقبال في فندقنا وكان قد أكثر من ترديد: بونا باسكوا أي: فصح سعيد، قائلة: لقد أكثرت يا هذا التهاني حتّى كدت أشعر أنّ في لدني بيضة، والبيض، وتلوين البيض في هذه المناسبة جلب إلى هذا العيد من طقس إحتفالي قديم أصله من شمال أوروبا.

بدأت اوركسترا مطبخ البالاجيو بعزف نشيد الأطباق التي بدأت بالكانابيس طماطم وريكوتّا وتارتار القاروص بالبرتقال. في هذا المناخ الاحتفالي الغامر خلت أني أسمع دويتو فيوليتا وحبيبها الفريدو من أوبرا لاترافياتا لفيردي:

**حرة وطليقة"**

**أتنقل من فرح إلى فرح"**

كان موعد طبق البازلاء مع شوربة الفول الأخضر بالحنطة مع شريحة سمك السلطان ابراهيم المحروقة قليلاً قد حضرت وكانت رائعة تؤكّد أحقيّة الشيف فيتو بنجمة ميشيلين وجائزة الجريدة المحليّة 24 ساعة الواسعة الانتشار.

**آني فيولد والنجمات الثلاث**

لا يمكن لي أن أتحدث عن ثقافة الطعام في إيطاليا من دون أن أعرج على سيرة سيدة معتبرة في عالم المائدة وأعني بها الإيطالية المولودة في فرنسا آني فيولد، مالكة مطعم إنوفيكا بينكيوري في فلورنسا، فهي أول امرأة في إيطاليا تحصل على ثلاث نجمات ميشيلين. ولدت آني قرب مدينة نيس الفرنسية وجاءت إلى إقليم التوسكان للدراسة، لكنها لم تغادره مرة أخرى.

واليوم تدير آني مطعمها الشهير مع زوجها جورجيو، ويقع المطعم في قصر بقلب المدينة يعود بناؤه إلى القرن الثامن عشر. يفخر هذا المطعم الأشبه بصالون ثقافي باحتوائه على واحد من أفضل خمسة مخازن للنبيذ على ظهر البسيطة.

تقول آني فيولد إن أبويها كانا فندقييْن، يعملان ليل نهار، وتعترف أنها لم تكن لتتصور يوماً أن تختار مثل هذه المهنة الصعبة التي بالكاد تترك وقتاً لحياة عائلية.

 والذي ساقها إلى هذا القدر شروعها في السفر بدافع إجادة لغات تحبها أولا إلى لندن وباريس، ومن ثم إلى إيطاليا حيث قابلت جورجيو بينكيوري في فلورنسا، وقد كان اللقاء موعدا لحب من النظرة الأولى. في ذلك الوقت كان الحبيب يعمل ساقياً حيث يقع اليوم المطعم الذي تديره. وكان المكان يحتوي على قبو ممتاز للنبيذ، وقد أحضر الزوجان من فرنسا إلى إيطاليا النبيذ الذي كان الإيطاليون يسمعون عنه ولا يحلمون به. وجورجيو هو نفسه صاحب تقديم النبيذ بالكأس في المطعم. واليوم أصبح هذا التقليد سلوكاً عاماً، وكان شيئاً جديداً تماماً في ذلك الوقت.

انخرطت آنيفي عالم الطبخ على إثر دعوة وجهها لها أحد أصدقائها القدامى وكان ناقدَ طعامٍ يدعى إيدواردو راسبيلي، لتحضير وجبة مبتكرة على التلفاز في السبعينيات. يومها شعرت بالحرج، لكن الصديق الناقد قال لها: " استمدي الوحي من طبق توسكاني" وكان ذلك بالضبط ما فعلته آني، فحضرت وجبة سوفليه كبد الدجاج مع البريوش، وتلك كانت هي البداية، ومذ ذاك لم تتغير القيم الأساسية لذلك الطبق، فتلك الوجبة اللذيذة كانت مفتاحاً لطبق توسكاني بلفتة عصرية. في هذا السياق تقول آني: "أفكر الآن على سبيل المثال بشوربة الحنطة البرية مع الجمبري الأحمر على السيخ، وملفوف في لحم خنزير براما، مع ورقة غار، أو البيشي المصنوعة من فتات الخبز". وتضيف معلقة: "طريقتي في تحضير الوجبات تمثل التطور العصري للاطباق التوسكانية التقليدية.".

مع مرور الوقت تطور أسلوب آني وازدادت ثقتها بنفسها. وفي خريف 1981، وبينما كانت صحبة زوجها في جولة على الأقدام في المدينة، توقف جورجيو لدى بائع جرائد، واشترى دليل ميشيلين: وبينما هو يقلب الصفحات، فجأة، شرع يرقص على الرصيف. كانت تلك أول مرة تدرك فيها مجلة "لا روج" للتميز وجود هذا الثنائي المبدع في عالم الطعام الإيطالي المبتكر. وقد وصلت النجمة الثانية في السنة نفسها، وتبعتها الثالثة بعد عشر سنوات. هذا التقدير الاستثنائي لابتكارات الزوجين جعل آني فخورة للغاية، ليس فقط لأنها كانت المرأة الإيطالية الوحيدة التي تحصل على اعتراف بهذه الأهمية، ولكن أيضاً لأنها احتلت المرتبة الرابعة في العالم. لم يحصد أحد قبلها على الإطلاق كل هذا النجاح منذ أن حصل أول مطعم مير بمدينة ليون على جائزة في الخمسينيات. وعلى حد قولها فإن المجتمع الإيطالي كان دائماً شوفينياً في معاملته للمرأة، ولكن الأمور كانت آخذة في التغيير وإن ببطء. تقول آني: "لم أرزق بأطفال، ولكني أريد أن أقول أنني أكنّ إعجاباً هائلاً لكل أولئك الأمهات اللواتي استطعن أن يصبحن طاهيات إلى جانب رعاية أسرهن.

 تعتقد آني أخيراً أن المائدة الإيطالية الحديثة سوف يكون هنالك طلب دائم عليها، ما دام في الدنيا ذواقة قادرون على تقدير الجمال، والأكل الطيب، وسوف تتراجع عندما يختفي البحث والإبتكار. وترى آني أن من السليم أن نضع أولوية لما يحدث في المطابخ في البلدان الآخرى، ولكنها تؤمن بأنْ لا حاجة لإيطاليا على الإطلاق؛ للبحث عن الأفكار من الشعوب الأخرى. ففي إيطاليا تتوفر كل الاسباب: الأسلوب والمنتجات الاستثنائية مثل زيت الزيتون البكر الممتاز على سبيل المثال. فهذه البلاد الجميلة تتميز في كل شيء.

**عشاء عند كاستللو ملك البحار**

قصدنا كاستللو مطعم السمك الشهير وهو للأسرة نفسها التي تملك مطعم لوكالي الذي سررنا بوجبتة الشهيّة وجوّه، ولدى وصولنا استقبلتنا إميليا مالكة المطعم بدفء وقادتنا إلى طاولة انتخبتها بنفسها، تقدّم النادل وحيّانا وطلب منّا التفضّل لمعاينة صيد اليوم على حدّ قوله، وكان هذا التقليد من أسباب ذيوع صيت المكان، ثمّ قدّم لنا قائمة الطعام، فإليكم بعض أطباقها:

تمبورا سمك الترس مع نبات الهليون في صلصة البرتقال، وكمبوت الفول وسلطة الجرجير مع رقائق "لسان القط" المصنوعة من البطاطس.

إسكالوب زبد الزنجبيل مع المحار وأوراق الذهب، إضافة إلى الزعفران الإيراني والبامية المطبوخة على البخار.

سمك باس البحر المنقوع بالشمر البري وبذور الريحان الموضوع على طبقة من الكينوا مع الخضار المشكّل والبطاطس ومايونيز الشمندر.

سرطان البحر المطبوخ على البخار وبوري فاكهة زهرة الآلام مع سلطة الخوخ وحلوى الخضار وأرز نبات الكمأة.

محار مع الريكوتا الطازجة مخفوقة مع سلطة كرفس مقرمشة ومكعبات ليمون سورينتو مع كرستالات غرانيتا بتلات الورد.

كارباتشيو سمك باس البحري البري المنقوع بشكل خفيف في طبقة من خبز البانزانيلا التوسكاني مع الخضار والفواكه الغريبة.

كارباتشيو التونا مع الأناناس، والشمر والتفاح الأخضر فوق قنفذ البحر، إلى جانب خردل العسل وكمبوت البصل الربيعي وخبز الغريسيني مع ملح المالدون.

في الاختيار آثرت ترتار الطونا طبقي الأول، وسمك القاروس المشوي طبقاً ثانياً. واختار صاحبي إسكالوب زبد الزنجبيل، وتمبورا سمك الترس. ولم لم تخيب أطباق كاستيللو الظن.

**في فرسكو بالدي**

قصدنا منطقة نيبوتزينو شرق مدينة فلورنسا، طالبين مزارع فرسكو بالدي، كانت في استقبالنا السيدة ستيفانيا مندوبة العلاقات العامة، رحّبت بنا وقالت بشيء من الاستغراب: أنتم أوّل أحد يطلب زيارة مزارع ومراعي فريسكو بالدي للتعرّف عليها عن قرب، ساصحبكم إلى السيد سلفانو المشرف على مراعي الأبقار، وقادتنا عبر طريق موحش غير معبّد، توقفت السيارة بنا، وإذا برجل طويل عملاق قدّم نفسه على أنه سلفانو، ولو قال أنا زوربا لصدقته على الفور، قلت في نفسي: لعل هذا الرجل فارع الطول هو الأخ الإيطالي لزوربا اليوناني.

جلت ببصري في أنحاء المكان، وشعرت لوهلة كما لو أن الوقت ارتدّ بي إلى زمن التوراة، فقد يخرج على حين غرة شمشون من خلف حجارة ضخمة تتبعه دليلة وهي ترفع شعره عن الأرض بكلتا يديها، كان المكان خلوا من أثر الحضارة، وسلفانو ذاته بدا وكأنه فلاح طالع من كتب التاريخ. كان معه مساعدون في إدارة مراعي أبقار كيانينا الذائعة الصيت، وهي من أشهر أبقار فلورنسا.

كل ما في المكان هنا يجعلنا نرتدّ أجيالا إلى الوراء، من قطعان الأبقار، إلى صياح الديكة وأرانب من سلالات شتى تلوذ بمخابئها، فصرت أترقب خروج بقرة صفراء فاقع لونها لتنضم إلى قطيع السيد سلفانو الذي قادنا إلى مزرعته ومن حوله معاونوه، دخلنا على زوج من عجول كيانينا، فقال وهو يشير إليهما بثبات: هذان يستعدان ليكونا في الغد على طاولة السيد فريسكو بالدي، انظر إليهما، إنهما مستغرقان في تأمل معنى الحياة. ثم أردف مبتسماً، في الحقيقة الموت مرّ وكلنا متعلقون بأهداب الحياة ونحبها.

شعرت كما لو أنني في درس فلسفيّ وإن الذي أمامي ليس راعي القطيع السيد سلفانو، بل يوحنا فم الذهب، وقد تنكّر في هيئة راعي أبقار على مقربة من شرق فلورنسا.

في الغرفة الأخرى شاهدنا قطيعا من العجول ذوي الشهرين وربما الثلاثة، وعندما سألته: إن كانوا يذبحون العجول في مثل هذه السن أجاب: بل نبقي عليها حتى تبلغ ثلاث إلى أربع سنوات. بدت العجول، وهي ما تزال في شهورها الأولى، بحجوم عملاقة قياسا بالأبقار التي في مراعينا.

وفي غرفة أخرى صادفنا ثوراً، فقال سلفانو وهو يتكلم عنه كما لو كان صديقا لدودا: يلقى هذا الثور قدرا كبيرا من الرعاية والإجلال، فثوران في قطيع واحد من الأبقار ينتهي الأمر بهما غالبا إلى أن الجنون، فما أن نبادر إلى فصلهما حتى تتنزّل عليهما السكينة فيهدئان ويستغرقان في مرعاهما كما لو أنهما وردا عين ماء سحرية.

في تلك الجولة دخلنا على بقرة كيانينا هائجة، تذود عن عجلها الصغير الذي بدا في قرابة الشهر، وكلما همّت بالهجوم علينا حالت القضبان التي تفصلها عنا دون ذلك، فينهرها سلفانو فتتراجع بضع خطوات قبل أن تستجمع نفسها لجولة أخرى، وكلما استشعرت خطرا محدقا، نفثت علينا الزبد والسوائل من فمها، وكان ذلك أضعف إيمانها مبعدة خطرنا عن صغيرها. قال سلفانو: نجد مشقة كبيرة في فصل الأبقار عن عجولها، فنترك العجول ترعى بضع شهور حول أمها، ثم نفصلها عن أمها بضع شهور أخرى فتسلاه ولا تكاد تتعرف عليه.

انتقلنا بعد هذه الجولة لتناول وجبة غداء أعدت لنا في منزل العائلة الفلورنسية والذي تحول مقرا للشركة يُحتفى فيه بالضيوف وتنعقد فيه المؤتمرات. اشتملت الوجبة على لحوم أبقار الكيانيني والباستا والمقبلات والحلويات.

بعد الغداء تجولنا في المستودعات حيث سراديب تخزين النبيذ، وهم يغرسون أصنافا من أشجار العنب وينتجون نحو عشرة ملايين زجاجة من شتى صنوف الأنبذة بين حمراء وبيضاء وكذلك النبيذ الغازي.

سألت عن حجم مبيعات مزارع العائلة، ويبدو أن للسيدة ستيفانيا معضلة مع الأرقام، فتحدد رقماً، ثم تعود فتصححه، ولقد استغرقت السيدة ستيفانيا بعض الوقت لتقول أخيراً أنها: 100 ألف يورو. ثم استدركت قائلة: بل مئة مليون يورو. كان التفاوت بين الرقمين هائلا!

سألتها عن زيت الزيتون، وهو من النوع الفاخر، أطلقوا عليه اسم لاوديميو، وتندرج تحت هذا الاسم أنواع تنتجها مزارع فرسكو بالدي، ومعنى لاوديميو "العصرة البكر" وتعود التسمية إلى عهد بعيد عندما درج الفلاحون على تقديم هذه العصرة للمالك امتنانا وعرفانا.

وهم يستخلصون الزيت من أربعة أنواع من الزيتون، فالنوع الأول هو فروتويو، ويشكّل 60% من قوام الزيت وتشكّل الأنواع الثلاثة الأخرى نسبة 40% منه، وهي فوندولينو، ولكشينو، ومرايولو، ويُعدّ هذا الزيت من أفخر الزيوت التي تنتجها إيطاليا.

بعد تلك الجولة قصدنا مضافة أو استراحة، هي عبارة عن فيلا صغيرة مكونة من أربع غرف فاخرة جداً، تقع في المنطقة الشرقية من فلورنسا غير المأهولة بالسياح كما هو شأن الجنوب الذي يربط فلورنسا بكيانتي وفيرونا، لذا كان أجرها بغرفها الأربع 500 يورو في اليوم فحسب، وهو مبلغ يساوي أجرة غرفة لليلة واحدة في أحد فنادق دبي.

الغرف الأربع أطلق على كل واحدة منها اسم نوع من الزيتون، أما جناح الفيلا فأطلق عليه اسم فروتويو، وهو جناح جميل جدا احتفظوا فيه بالمعصرة القديمة للعائلة. في نهاية الزيارة شكرنا السيدة ستيفانيا على رفقتها، وقصدنا متجر المزرعة لاقتناء بعض منتجاتها.

في طريق العودة، تأكد لي أن زيت الزيتون الفاخر ليس ما تعرضه الأسواق من زيت مجهول المصدر، بل الزيت الذي تنتخبه من مزرعة تعرف أصحابها ومصادر زيتونهم وطرق عصرها وطبيعة وتاريخ علاقتهم بهذه المهنة.

أردت من وراء هذه الزيارة الميدانية معرفة الهاجس الذي يلاحقني في شأن مصدر ما أتناوله أو أشربه، فلقد ألقى هذا العصر الذي يمطرنا بأنواع شتى من المأكولات مجهولة المصدر، وقصدت من وراء مجموعة الزيارات الميدانية التي قمت بها في بلدان عدة إلى إدراك المصادر الأصلية لما نتناوله، لأتمكن من مقاومة ثقافة الوجبات السريعة والغثّ من المأكول والمشروب كما يقاومها الطليان، بمطبخهم العريق، وأصالة منتوجاتهم، وحرص بعض مزارعهم على حفظ موروثاتهم في بيئات عائلية مغلقة، وهو أمر لطالما شغلني وتطرقت له في كتاباتي.

وبرغم هذا فإن آفة المأكولات مجهولة المصدر تطارد بدورها شرائح واسعة من المجتمع الإيطالي نفسه كما هو الحال بالنسبة إلى مجتمعات أخرى شرقا وغربا، لذا تجدهم يقاومون ذلك بما ملكت أيديهم من خلال حركة أطلقوا عليها اسم "سلو"، أي: تمهّلْ

ولو شئت الخروج بخلاصة من جولاتي على هذا الصعيد، فيمكنني القول إنها، في الجوهر منها، نوع من البحث عن جنة عدن التي تنتج أطايب الطعام وأزكاه.

**القلعة الحصينة**

**ليت الفتى كالبدر جدد عمره يعود هلالا كلّما فني الشهر**

كتب على شاهد قبر شاعر المعرّة قوله:

**هذا جناه أبي علي**

**وما جنيت على أحد**

. ولما سئل: هل من سبيل لقهر الموت؟ أجاب: الاّ تلقموه المزيد من الأبناء. وراح ينشدهم:

**وما العمر إلا مثل حول قطعته وكان سواء فيه يومك والشهر**

**حكت سفناً في لج بحر جسومنا تسير بأرواح وغايتها الكسر**

**وكل طليق في الحياة تظنه أسير حِمام لا يفك له أسر**

في فلورنسا ذهبت للقاء دافنشي في مستشفى "سانتا ماريّا نوفا" وقفت معه أمام جثّة رجل، فقال: قال لي هذا الرجل العجوز قبيل ساعتين من موته، أنّه عاش أكثر من مائة عام، وأنه كان بصحّة جيّدة لولا ضعف جسمه، وأنه كان بكامل قواه العقلية، لم تخنه الذاكرة يوما في حياته المديدة. ثم رأيته كيف مضى إلى العالم الآخر، دون أن تظهر عليه مسحة حزن أو شكوى ألم. وراح ليوناردو يعمل فيه مباضعه، فقلت له: ماذا تفعل؟ أريد أن اتقصّى سرّ هذا الموت الوديع، قال. وبد أن فرغ من العجوز راح يشرّح بعده جثّة طفل مات عن عامين، فسألته ماذا وجدت؟ فقال: انظر إلى طراوة العروق التي تغذّي الجسم وغضاضتها مقابل الجفاف والذبول عند الرجل المسن، وتأمل سمكها وتلّويها في كلّ منهما، وحمرة كبد الطفل يقابلها سواد كبد الشيخ، ثمّ ذهب بي إلى غرفة له ودعاني للجلوس، وأخذ يعرض عليّ رسوما في علم التشريح لم يسبقه إليها أحد. رسوماً عن الأحنة في البطن وروسوماً للجماجم وأخرى لعضلات الجسم، ورفع صورة رسمها لجهازي التناسل عند الرجل والمرأة، وقال مشيرا إلى الفرج: انظر إلى هذه الهوّة السوداء، هذه هي القدر التي وراء عمار العالم ودماره، هذا هو الطريق إلى برزخ الحياة، إنّه اشبه بقلعة حصينة يحاصرها الرجال، يدفعهم إصرارهم، على اقتحامها، مدبّجين لبلوغها أعذب القصائد، جاهلين أنهم سيكرهون مرغمين يوما على عبور برزخ الحياة عبر هوّة سوداء شبيهه، سمّها رحم الأرض، ثمّ ابتسم ابتسامة ساخرة وقال: لعلّ شاعركم كان محقّا عندما قال: لن يقهر الموت حتى تدكّ تلك القلعة الحصينة، أو أن يرفع عن أسوارها الحصار.

**مولد فينوس**

في حضرة لوحة

في فلورنسا سألت دليلتنا السياحيّة إن كان في وسعي التعرف إلى بعض من بقي حياً من نسل المديتشي. فقالت أنه انقطع بموت الأميرة آنا ماريا لويزا المدتشي في 1743، وهي حفيدة لويس الرابع عشر وزوجة الأمير "يوهان فيلهلم" الذي حال مرضه بالسفلس دون أن يعقّب أحدا منها. كانت آنا هذه آخر العنقود من بيت المديتشي، رعاة الأدب والفنّ في عصر النهضة، ورثت كنوز العائلة الفنيّة من لوحات وتماثيل وتحف لا تحصى، إضافة إلى فيلاّت وقصور كالأوفيزي، المتحف الذي يضم آلاف الأعمال لكبار فنّاني عصر النهضة، وقصر البتّي في فلورنسا. أوصت بجميع الثروة بعد وفاة أخيها جيان جاستوني عام 1737 بأن تعود إلى ولاية توسكانيا، على أن لا تخرج أي من التحف الفنية إلى أي جهة إلاّ بإذن من الشعب.

سألني صديق عن ماهية تلك الأسباب التي جعلت الحديث لا يكاد ينقطع عن لوحة "مولد فينوس" لبوتشللي، وهي صورة فتاة عارية تتظاهر بالاحتشام تخرج من محارة ذهبية في البحر، ولا تجد في متناول يدها سوى غدائرها الطويلة الشقراء لتنوب عن ورقة التين، والتي من فرط اهتمامه بها احتفظ بنسخة كبيرة عنها في منزله.

قلت إن الأمر في جوهره كان مرتبطاً بالفصل بين حقبتين تاريخيتين، فهي بلا ريب تعد مفصلاً بين فنون العصور الوسطى وعصر النهضة، فلم تكن تقاليد الرسم الشائعة قبلها تحتفي بامرأة على نحو ما احتفت بالعذراء. وما فعله الفنان بفينوس أنه خرج من البعد اللاهوتي الذي كرسته الكنيسة وشخص ببصره وريشته إلى ربة من روما، فحلّت فينوس الوثنية محل مريم العذراء أمّ الرب، في موضوعة تتقاطع كلياً مع التقاليد التي عملت على منح ذلك العصر هويته، فكان العمل محاولة جادة وحقيقية لاقتراح هوية أخرى، فليس هناك من ملائكة مجنحين يحفون بالعذراء ويسوع الذي يتخذ هيئة وقورة في حجرها.

هذه اللوحة التي باركها لورندسو وجوليانو آل مديتشي، ولعنها سافانارولا، جعلت الفنان يتردد طويلاً بين أن يتخلص منها حرقاً، أو أن يصغي إلى لونيرو ويمنحها الفرصة لتخلق تلك المفارقة التاريخية. إنها اليوم من موجودات مبنى الأوفيزي، بل صارت مقصد جميع عشاق الفن من كل حدب وصوب.

ولكن ما يجب تأكيده أن لشهرتها الطاغية أثراً ربما يكون عكسياً على نحو ما في إهمال عمل آخر لا يقل عنه أهمية وحضوراً في ذاكرة تاريخ الفن، وهي لوحة "الربيع". إذ تقف فينوس كما ألمحنا من قبل في وسط الصورة يحف بها كيوبيد مصوّبا قوسه نحو ربّات الحسن الثلاث؛ ويظهر فيها عطارد على هيئة جوليانو وهو يتناول تفّاحة ليقدّمها إلى واحدة من ربّات الجمال الواقفات إلى جانبه نصف عاريات؛ وإلى اليسار زفير، ربّ الرياح، يمسك بكلوريس التي بدأت تتحول إلى غصون من الورد تخرج من فمها، استنادا إلى تحوّلات أوفيد. وأمامها فلورا، وفي اللوحة نثر بوتشللّي مئات الأزهار المختلفة.

والآن كلما تطلعت فيها تساءلت: ماذا لو اختلط الزمن وعرف البابا الكرتوزي من كابري بأمر هذه الأصناف؟

ربما سيتعين عليه أن يوظف قبيلة من الكيميائيين المهرة ليستخلصوا روح العطر ويعدوا له قائمة غامضة بأسمائها وسلالاتها. وستكون تلك، بلا ريب، أسبابا مقنعة لا يمكن التردد في شأنها لتترك الملكة جيوفانا حمّاماتها الشهيرة في ريجينا حيث اعتادت أن تدقّ أعناق عشّاقها فوق تلك الصخور التي تركتها خلفها لتستقر في جزيرة كابري غير بعيد، تؤازرهها السيرانات في إزهاق أرواح العشّاق.

**مايكل انجلو: "ليلٌ ونهار، غَسقٌ وفجر**"

قصدنا كنيسة "سان لورنزو" في فلورنسا لزيارة النصبين اللذين عكف على إنجازهما الفنّان "مايكل أنجلو" "نهارٌ وليل، غسقٌ وفجر".

كانت الحراسة مشدّدة على المكان، وكان عدد الزوّار كبيراً، هنا قبور العائلة التي رفلت في ثراء قلّ نظيره. قلت لصاحبي: صارت قبورهم قبلة للزائرين، وبعد برهة دخلنا غرفة النصبين في الدور الأول.

وقفت الشخصية المحورية على قبر "جوليانو دي ميديشي" (حكم 1513-1516م)، ويداه على جانبيه، وساقاه متباعدتان بشكل مريح، وبنيته تشير إلى دوقٍ مرح، سخية في كل من العقل والروح. يحمل الشكل في يده عدَّةّ عُملات، كما لو كانت هدية مُعدَّة. يلعب الضوء بحريَّةٍ على وجهه الجميل، ولكن يبدو أنَّ الشكل يفتقر إلى الطاقة، ويبدو فاقدًا للسيطرة تحت عبء الدرع الروماني. لم يخطط "مايكل أنجلو" لهذه المنحوتة، ولا لــ"لورنزو" ليُكوِّن صورة شخصية يمكن تمييزه للدوق، ولكن ليكون ثناءً أيديولوجيًّا من خلال جماله وكرامته المعزَّزة.

ليل هي الوحيدة بين الشخصيات الرمزية الأربع، وهي المستلقية على التابوت في الكنيسة يمكن تمييز هويتها بوضوح من خلال سماتها، وليل التي تصاحبها بومة، قناع، وقبضة من الخشخاش. القمر على إكليلها. يعكس جسدها ذو العضلات، عادة "مايكل أنجلو" لعمل نموذج ذكوريّ لإناثه العاريات. في الواقع، العديد من رسومات الفنان لليل، التي استخدم فيها نموذجًا ذكوريًا، ما زالت محفوظة.

أشبع "مايكل أنجلو"، شكلَ ليل في قبر "جوليانو دي ميديشي" بكثافة درامية، تغاير صفاء وجهها بالوقفة الملتوية والواقعية العضلية لجذعها. فالتفاصيل البارعة الموضحة في تصويره لليل على قبر جوليانو كسبت مكانتها باعتبارها الأكثر إثارة للإعجاب من الشخصيات الأربع على تابوت "ميديشي".

وفي منحوتة غسق على قبر لورنزو دي ميديشي (حكم 1516-1519م)، أعطى مايكل أنجلو هذه الشخصية تعبيرًا محزنًا باعتماد سطح غير مكتمل لوجهه، مغايرًا للمساته الأخيرة المصقولة للغاية لبقية جسده. من خلال حجاب من الرخام، يمكن رؤية تعبيره المتألم وهو يتخذ سمة مؤرقة.

بينما يتشابه القبران في تكوينهما العام، يقدمان تناقضًا بارعًا، وبطرق عديدة يشرحان المظهر العام لكل رجل. وبينما يقف "جوليانو" متقدما، يصور "مايكل أنجلو" "لورنزو" متراجعًا في الظلال: جسده مغلق، ساقاه متقاطعتان، وذهنه متعمق في التفكير. وهو شكل يستحق لقبه: Pensieroso "الرصين".

في الشخصية المركزية على قبر "لورنزو دي ميديشي"، يعطينا "مايكل أنجلو" صورة لرجل استبطاني بشكل غامض. الضوء، تتخلله خوذته الشخصية ويكبح بيده اليسرى، ليفشل في الوصول إلى أي جزء من وجهه. كوعه الأيسر يتكئ بمناعة على صندوق المال المغلق المزيَّن بقناعٍ شرس.

كلٌ من هذه الشخصية، وشخصية "جوليانو" أيضا، تفتقر إلى نار وطاقة التماثيل السابقة.

أحد التفسيرات لهذا التغيير في عمل الفنان هو الإرهاق البدني والعقلي. على الرغم من أنه كان في الأربعينات من عمره فقط في ذلك الوقت، كان مايكل أنجلو يشعر بعمره تحت وطأة مهامه العديدة، وعلَّقَ أنه إذا عمل ليوم واحد فعليه أن يرتاح لأربعة.

خلال رفع الحجاب عن رأسها، توحي شخصية غسق ببزوغ الضوء من عباءة الظلام. فقد صورت كامرأة شابة بنهدين صلبين ومشرئبين تفيض أنوثة، ولكنْ بوجهٍ شاحب حزين.

اعتنى "مايكل أنجلو" باستكمال وجوه اثنين من الشخصيات النسائية في هذه السلسلة، معطيًا البكر غسق طلعةً مأساويةً مثقلةً، تتناقض مع الصفاء الناعس لليل.

**غرفة ذات اطلالة**

على خطى الكاتب الإنكليزي الكبير فورستر سرت متعقّبا الأمكنة والحيوات الداخلية المتراكبة لمدينة فلورنسا، والتي سردها وأشار إليها في روايته الذائعة "غرفة ذات إطلالة" تُرجمت الرواية إلى اللغة العربية يالعنوان نفسه وصدرت في دمشق، وكان فورستر قد تناول فيها إطلالة على الطبقة الانكليزية الارستقراطية وتوثيق لتقاليد المسامرة وحفلات الشاي الارستقراطية في آواخر القرن الثامن عشر، كما تؤرخ لبداية ظهور جيل ثائر على هذه التقاليد.

وهو الأمر الذي بوسعنا التعرّف عليه في سيرة فورستر ذاته، فلقد اندمج مع حلقة بلومزبري أثناء دراسته في جامعة كمبردج، وكانت قد ضمّت عدداً من الفنانين والأدباء المتمردين على القيم الفكتورية ومنهم فرجينيا وولف. سافر إلى بلدان عدة مثل اليونان وإيطاليا وكان يعكف على تدوين ملاحظاته التي دفعها لتكون الجسم الرئيس لرواياته التي تحكي في الغالب قصص السياح الإنكليز في الخارج. كتب في الصحافة وعمل في المكتبة الوطنية وشارك في نشاطات ثقافية كثيرة وكان أول رئيس لجمعية الكتاب الإنكليزية.

ولفورستر مجموعة من المؤلفات التي رصدت ببصيرة متيقّظة ومتسائلة مجموعة من التحولات التي أفرزتها قيم المجتمع الفيكتوري، ولعلّ من أكثرها تأثيرا كتابه "معبر إلى الهند" والذي صدر عن دار بنجوين عام 1924 ونال استحسانا كبيرا وتقديرا عاليا وبيعت منه مليون نسخة ورصد فيه الصراع بين الثقافتين الإنكليزية والهندية.

الرواية المذكورة صورت فيلما أخرجه جيمس آيفوري عام 1985 وتجري أحداثه في عصر المللك أدوارد عن شابة بريطانية من الطبقة الأرستقراطية تدعى لوسي تصل إلى مدينة فلورنسا الإيطالية رفقة عمتها شارلوت بارتلت لقضاء إجازة وسياحة الثقافية للاطلاع على الفن والروح الايطالية وكانت هذه الرحلة جزء من طقس يطلق عليه (جراند تور) الرحلات الكبرى، وهي ذات الرحلة التي قام بها غوته وبايرون من قبل. في قاعة الطعام في فندق بيرتوليني. تتبرّم لوسي بسبب أن الغرفتين اللتين خصصتا لهما في الفندق لا تطلان على نهر آرنو حسب اتفاق الحجز، وإنما تطلان على ساحة لا حياة فيها تبدو وكأنها جرداء.

فيتدخل صحافي متقاعد اسمه إمرسون بصحبة ابنه جورج في حديثهما، ويبدى استعداده للتضحية بغرفته ذات الإطلالة لهما، فتمتعض السيدتان النبيلتان من استراقه السمع إلى حديثهما، لكنهما تقبلان بالعرض لاحقاً.

ثم تتعرف لوسي وعمتها على مجموعة من أفراد النخبة اللندنية في الفندق فيخرجون في رحلة إلى برج ديل غاللو، وفي الرحلة التي صحبهم فيها الكاهن والصحافي وابنه جورج يبدو جليا صراع الطبقات والثقافات، وفيها يحدث أن تعجب لوسي بجورج الذي حدس بدوره أنه متيّم بها.

تعود لوسي وابنة عمها إلى ضاحية "ويندي كورنر" وهي تتنازعها مشاعر مؤلمة بسبب استغلال توقها إلى الحب، وكانت بها رغبة في أن تكبر بسرعة.

ثم تتعرف إلى الشاب المثقف سيسيل فايس الذي كان باردا ومعتدا بنفسه على النقيض من جورج البوهيمي والجذاب، ولكن سيسيل أحبّها لأنها تشبه نساء ليوناردو دافنشي فينال حبها وإعجابها. فتحاول لوسي من جهتها أن تقرأ لتنال قسطا من الثقافة يؤهلها للحاق بسيسيل، أما هو فيعمد إلى إستجار منزل مجاور لصديقه القديم امرسون وابنه، فيجمع خصمه العاطفي، جورج مع خطيبته لوسي على غير دراية منه.

وفي إحدى رحلات الريف يختلي جورج بلوسي ويكشف لها عن حبه محاولا إقناعها بأنها مخدوعة بسيسل.

وبعد عدة مجريات ينشب في داخلها صراع لابد من حسمه بالانحياز إلى أحد الشابين، فإذا اختارت سيسيل، فلربما ستكون حياتها استمرارا للأشياء ذاتها التي عرفتها وأدركتها دائما، فحفلات الشاي الرتيبة أمر لابد منه، وستنحني بلباقة فيكتورية أمام ضيوفها وسيتعيّن عليها أن تبتسم من أجل الطرائف الباردة، ولكنها على الجانب الآخر إذا انحازت إلى جورج فسيمكنها أن تعبر جميع سواقي المياه في ضاحية ويندي كورنر التي انشأها أبوها المحامي وهي تعدو دون توقف، وستجرب الوقوف تحت المطر دون مظلة أو وصيفة.

ثم تحسم الصراع داخلها باختيار جورج وتهرب معه إلى الفندق الذي رأته فيه أول مرة، غير آبهة بالتهديدات التي أطلقتها أمها وأخوها. تمكن جورج من أن يفتح شرفة في قلب حبيبته لتطلّ منها على العالم، فساعدها بذلك على الاستجابة للنداء الداخلي الذي هتف بقلبها، والفرار من تقاليد القرون الوسطى.

عُرض للمرة الأولى في إنجلترا عام 1986، وحصل على العديد من الجوائز بينها ثلاثة أوسكارات. ومنحه الناقد روجر إيبرت نجماته الأربع.

**تجوال في بيمبيوني**

**شجرة ماسيما مارتيما**

خرجنا من سنالونغا بعد قضاء ليال أربع حالمة في أماروزا إلى بيومبينو، عبر جنّات ذات أنهار وعيون وزيتون وأعناب، مررنا على ماسّا ماريتما لمشاهدة الشجرة التي أثمرت في بلدتهم قضبانا. كانت الجداريّة الجصيّة تحت الترميم، وأقيم لحمايتها جدار من الزجاج.

عشرات من القضبان بأشكال وأحجام مختلفة، بخصيّها معلّقة على الغصون في الهواء الطلق. اكتشفت اللوحة الجصبة التي تعود إلى القرون الوسطى في عام 2000 مصادفة اثناء قيام فريق من المرممين. في البدء نشأ اعتقاد بأن اللوحة ترمز إلى الإخصاب، لكن جورج فيرزوكو الخبير في الدراسات التوسكانيّة يجزم بأنها ذات مغزى سياسيّ، اذ كانت تتنازع تسكانيا طائفتان هما: الجلفانيّون والجبليّون، والصّورة الجصيّة - يقول الخبير- رسمت كتحذير من الجلفانيّن لرعاياهم من تفّشي البدع: شذوذ جنسيّ ولواط وهرطقة وشعوذة وسحر، وهذه الشجرة إنما هي رمز لثمرة أعمال هؤلاء الخصوم إذا ما تمكنوا من الوصول الى السلطة. أذكر هنا أن دانتي كان ينتمي إلى الجلفانيين، ولكن عندما انشقوا على إثر انتصارهم على الجبليين، انقسموا إلى فريقين سود وبيض، السود يؤيدون السلطة المطلقة للبابوية، أما البيض الذين انتمى إليهم دانتي فقد كانوا ينادون بدرجة أكبر من الاستقلال عن البابا لفلورنسا. وبانتصار السود سنة 1302 كان مصير دانتي النفي من فلورنسا.

**بيومبينو**

توجّهنا إلى فولونيكا علّنا نفوز فيها غداء من فاكهة البحر، ففولونيكا عروس تطلّ على المتوسط، فما جادت علينا العروس الاّ بشطيرة من الجبن والطماطم والعيون المحدّقة المتسائلة عن سبب قدومنا الى هذه الناحية القصيّة، فأغلب المتاجر مقفلة، فنحن في الشتاء وموسم السياحة لا يبدأ قبل إبريل. مضينا إلى بيومبينو القريبة، ودخلناها بسلام. ما الذي حملنا على الوصول الى هذا الطرف النائي من إيطاليا؟ فنحن لا ننوي العبور الى جزيرة ألبا، ولا الإقامة في هذه البلدة الصغيرة، كلّ ما أردناه هو مشاهدة البحر، بحر بيومبينو، والإطمئنان على أنّ القوارب التي شغلت بال ليوناردو فيها ما زالت بخير.

في أكتوبر من عام 1504 حلّ ليوناردو دافنشي ضيفا على أمير المدينة جاكبو دي أبيانو حليف فلورنسا، وكتب ملاحظة مؤرخة في أحد كراريسه " في عشرين أكتوبر قلعة بيومبينو"، وأخرى في الأول من نوفمبر في عيد جميع القدّيسين، تقول: "قدّمت لوالي بيومبينو هذا العرض"، ولم يسمّ ما عرض، لعلّه كان يعنى مشروع تجفيف المستنقعات في بيومبينو، ويوجد له رسم تخطيطيّ في صفحة من إحدى كرّاساته، وفي اليوم نفسه كتب الملاحظة اللطيفة التالية: " 1504 في بيومبينو في عيد جميع القدّيسين، بينما الشمس تجنح للمغيب، رأيت ظلالا خضراء للحبال والسارية وذراعها على سطح جدار أبيض، لم تكن الظلال التّي لوّنت سطح الجدار بسبب أشعة الشمس، ولكن بسبب لون البحر الذي يقابله". قلت لنفسي أيّ طفل كان يسكنك يا ليوناردو؟ يا من جئت لعرض مشروعك الكبير في بيومبينو ولم تفتك ملاحظة الضوء الأخضر الصغير المنعكس على جدار أبيض في المدينة. وكتب بعد سنين متذكّرا مشهدا كان قد رآه في بيومبينو:

عن رياح بيومبينو في بيومبينو: "زوابع من الريح والمطر، اقتلعت الأشجار وكسرت الأغصان، وقوارب تفرّغ من المياه."

هذا المقطع البسيط من النثر، كلوحة الموجة العظيمة للفنان الياباني هوكوساي، ثبّت به ليوناردو لحظة من الزمان في عمر بومبينو، فعل ذلك في لوحة العشاء الأخير، هل كان ينوي رسم ذلك المشهد؟ لا أعلم، كلّ ما أعلمه انّنا دخلنا المدينة بشغف من سيلاقي الفنان هناك وهو يرصد الظلال الخضراء على جدار أبيض.

كانت المدينة تنعم بنهار مشرق -17 درجة مئويّة-، وكان البحر أزرق كقطعة سجّاد أصفهانيّة، قابلت سيّدة سبعينيّة وأنا افتّش في المدينة عن جدار من تصميم الفنّان "هكذا يزعمون" قالت السيّدة، "وما أهميّة أن يكون هناك جدار من تصميم ليوناردو"! قالت دونما اكتراث. قلت، وأنا ألمح مبنى حديث الطراز يشوّه طابع المباني القديمة: لعلّ العجوز محقّة، فبومبينو لم تعد اليوم بمينائها الضخم سوى جسر عبور إلى جزيرة ألبا. التقطنا بعض الصور وزرنا القلعة التي زارها الفنّان، ثم اتجهنا الى فندق تومبولو في منتجع تلاسّو لقضاء الليلة هناك.

**وجوه في توسكانا**

عرجنا على مونتالتشينو، فاستقبلنا مصطفى في مطعم لِهْ بوتاتسينِهْ Potazzine Le  
كان استقبالاً حافلاً شبيهاً بمن تقطّعت به السبل وعاد إليه أهله بعد غيبة طويلة. جلسنا لتناول وجبة غداء في هذا المطعم العائلي الذي نتردّد عليه ونزوره كلما عرجنا على "سِنالونغا".   
صادفنا ريحاً باردة في هذا المكان، فعدنا بذاكرتنا إلى سام في مطعم "ليدبيري" في لندن حيث تعرفنا على "عنب سان جوفيزي" للمرة الأولى.   
وقبل ذلك بيومين، كنا قد قصدنا بورتوفينو في رابالّو، فاستبقنا الأصدقاء إلى لقاء باتريتسيا التي عرّفتنا إلى الفنان التشكيلي توماسو، فاقتنينا بعض أعماله. أما باتريتسيا، فشكت إلينا ما آلت إليه أمور ابنتها التي اقترنت بمغامر إيطاليّ يهوى ركوب الرياح.  فسألتها عن عمله، فقالت ليس له عمل. فقلت ومن أين لهما المال اللازم لحياتيهما وهواياتهما؟ فأدركنا أنه وزوجته لا يزالان يعيشان على نفقة والده المحامي. قلت في نفسي: لقد ركب الهواء هذا المغامر مع ابنة باتريشيا ولن يقبض سوى الهواء.

ذهبت (هـ) التي وصلت متأخرة لتتقصّى أجور التنقّل من بورتوفينو إلى رابالّو بعد أن عرجت علينا ولم تجدنا، وكنا مع السيدة باتريتسيا في منزلها نصغي إلى معاناتها مع زوج ابنتها الهوائي، فاكتشفتْ أن أجرة التاكسي من "بورتوفينو" إلى "رابالّو" تساوي عشرة اضعاف الرحلة بالباص.  
ثم عثرت بيسر على سيارة تقلّ خمسة أشخاص، عندما تعذّر ذلك على موظفي الفندق لسبب غير مقنع وطلبوا عربتين بدلا من واحدة.

أخبرنا مانويل السائق أن جميع موظفي الخدمات (الكونسيرج) في الفندق يعملون مثل المافيا، فهم يقفلون الهاتف في وجوهنا ما أن نسألهم عن زبون. كان جوزيبِّهْ وابنه يتقاضيان أجراً مضاعفاً لقاء تنقلنا بسيارتيهما، طلب جوزيبِّهْ أجراً قدره 630 يورو، لقاء الرحلة من "رابالّو" إلى مطعم "جوليانو" في "سيستري ليفانتِهْ" ذهاباً وإياباً، أما مانويل، فقد عرض 250 يورو مع إمكانية انتظارنا طيلة السهرة هناك. 

**الأمير في سانت أندريا**

عرجنا على داره في سانت أندريا، ولم نطل المكوث، فباب داره مغلق، والأضواء مطفأة، وحياة المدينة هادئة خاملة، لعلّه يتنزه في إحدى الغابات المجاورة، أو يمضي بعض الوقت مع قاطعي الأشجار. ولعلنّا لو أطلنا المكث هناك لصادفنا القوم الغلاظ الذين لعبوا معه النرد: صاحب الفندق، والقصّاب، والطحّان، وصانعَي الطوب.

بعد حياة خاضها ميكافيللّي في شؤون السياسة ومغامراتها شهد في عام 1507 انتصار مبدأ من مبادئه الأساسية. فقد كان من زمن بعيد يقول إنه ما من دولة تحترم نفسها تقبل أن تعهد بالدفاع عن أراضيها إلى جنود مرتزقة، وذلك لأنها لا تستطيع الركون إليهم في الأزمات، ولأن في مقدور العدو المسلح بالقدر الكافي من الذهب أن يبتاعهم هم وقائدهم. ولهذا يرى ميكافيللي أنه يجب إنشاء قوة حرس وطني من أبناء البلاد، والأفضل أن تكون هذه القوة مؤلفة من الفلاحين الأشداء الذين ألفوا المشاق وعاشوا في الهواء الطلق. ويجب أن تكون هذه القوة على الدوام حسنة التجهيز والتدريب، كما يجب أن تكون هي آخر خط للدفاع القوي الثابت عن الجمهورية. قبلت الحكومة هذا المشروع بعد تردد طويل، وعهدت إليه أن ينفذه. فلما كان عام 1508 قاد حرسه الوطني إلى حصار بيزا، حيث أظهر براعة فائقة، وسلمت له بيزا، وعاد ميكافيللي إلى فلورنسا وقد بلغ ذروة مجده.   
وجاءت التجربة الكبرى لحرسه الوطني قبل الأوان. ذلك أن يوليوس الثاني قد استشاط غضبا من فلورنسا لأنها رفضت الانضمام إليه في طرد الفرنسيين من إيطاليا، فأمر جيوش الحلف المقدس في عام 1512 أن تسقط حكومة الجمهورية وتعيد آل ميديتشي إلى العرش. وهزم حرس ميكافيللي الوطني الذي عهد إليه الوقوف في خط الدفاع الفلورنسي عند براتو، وانتصر آل ميديتشي، وفقد ميكافيللّي سمعته ومنصبه الحكومي، وبذل كل ما في وسعه لاسترضاء المنتصرين؛ ولكن ألقى القبض عليه، وعذّب أربع دورات على الراك وهي آلة تعذيب تشد بها المفاصل؛ ولكنهم لم يجدوا دليلا على اشتراكه في المؤامرة فأطلق سراحه. وخشي مكيافللي أن يقبض عليه مرة أخرى، فانتقل هو وزوجته وأبناؤه الأربعة إلى بيت أسرته في سانت أندريا، حيث قضى السنين الخمس عشرة الباقية من عمره ما عدا السنة الأخيرة منها، يعاني الفقر معللا نفسه بالآمال، ولولا هذه الكارثة لما سمعنا به قط، لأن هذه السنين العجاف هي التي ألف فيها الكتاب الذي هز مشاعر العالم كله وضمن له الخلود. ولما فرغ من تأليف كتابه ذائع الصيت "الأمير" كتب إلى صديق:   
*منذ أن حلت بي الكارثة الأخيرة، وأنا أحيا حياة هادئة في الريف. أصحو في مطلع الشمس، وأسير إلى إحدى الغابات حيث أقضي بضع ساعات أراجع فيها عمل الأمس؛ ثم أمضي بعض الوقت مع قاطعي الأشجار وأجد لديهم على الدوام متاعب يفضون بها إليّ سواء أكانت متاعبهم هم أو متاعب جيرانهم. فإذا غادرت الغابة ذهبت إلى نبع ماء، ثم إلى حظيرتي التي أصطاد منها الطيور، وتحت إبطي كتاب دانتي أو بترارك أو أوفيد... أقرأ في هذه الكتب عن عواطفهم الغرامية وقصص حبهم، فتذكرني بتاريخ حبي؛ ويمر الوقت وأنا مبتهج مسرور بهذه الأفكار. ثم أمضي بعدئذ إلى الفندق القائم على جانب الطريق، أتحدث إلى المارة، وأسألهم عن أخبار الأماكن التي أقبلوا منها، وأستمع منهم إلى ما يحدثونني عنه وهو كثير، وألاحظ مختلف الأذواق والأوهام المستكنة في عقول بني الإنسان. وأصل بهذا إلى ساعة الغداء فأزدرد في صحبة من معي ما عسى أن أجده في هذا المكان الصغير من طعام غير ذي شأن يفى به ما ورثته عن أبوي من مال قليل. وأعود بعد الظهر إلى الفندق حيث أجد في العادة صاحبه، وقصاباً، وطحاناً، واثنين من صانعي الطوب، فأختلط مع هؤلاء الرجال الغلاظ طول النهار، ألعب معهم النرد وغيره، وتثور بيننا آلاف المنازعات، ونتبادل كثيراً من السباب، ونتشاحن على أتفه النقود حتى تصل أصواتنا إلى بلدة سان كاستشيانو. ويؤدي انغماسي في هذا الانحطاط إلى ضعف قواي العقلية، فأصب غضبي على القدر وبلواه... وأعود إلى داري في المساء؛ آوي إلى حجرة مكتبي، وأخلع عند بابها ملابسي الريفية الملطخة بالطين والأقذار، أستبدلها بثياب رجال البلاط، حتى إذا لبست ما يليق بي من الثياب دخلت الأبهاء القديمة لقدماء الرجال الذين يرحبون بي أحسن ترحيب، ويطعمونني الطعام الوحيد الذي أحبه وأرتضيه؛* ***وكنت أهلا له*** *لا أستحي من التحدث إليهم وسؤالهم عن بواعث أعمالهم، وتصل بهم إنسانيتهم إلى أن يجيبوا عن أسئلتي، وأقضي على هذا النحو أربع ساعات لا أشعر فيها بملل ولا أذكر فيها متاعب، ولا أعود أخشى الفقر أو أرهب الموت، لأن كياني كله يكون مستغرقاً معهم. وإذ كان دانتي يقول إنه لا وجود لعلم دون أن يحتفظ الإنسان بما يستمع، فقد سجلت ما حصلت عليه من حديثي مع هؤلاء العظام وألفت منه كتيباً سميته "الأمير" ذهبت فيه إلى أبعد مدى أستطيعه من التفكير في هذا الموضوع، وبحثت فيه طبيعة السلطة، وعدد أنواعها، وطريق الوصول إليها، والاحتفاظ بها، وسبب ضياعها؛ ويجب أن يرحب بعملي هذا على الأخص كل أمير حديث العهد بالإمارة."*

أهدى ميكافيللي كتابه الأمير الذي فرغ من تأليفه في ديسمبر سنة 1513، إلى لورينزو دي ميديتشي الثاني آملا أن يستعيد مكانته التي فقدها ويعاد له الاعتبار. لكن لورنزو الصغير هذا لم يكن على مستوى من الوعي الذي تمتع به الاب والجد، فلم يلتفت إلى الكتاب الذي وضع أسس علم السيّاسة الحديث، ولم ينشر الكتاب إلا بعد أن قضى المؤلف والحاكم. والأمير الذي لم ينشر إلا بعد عشر سنوات من تأليفه سوف يغدو واحداً من أعظم المؤلفات التي أثّرت في الإنسانية.

**جريفي خسرو درة كيانتي**

عرجنا على محلّ لبيع اللوحات الفنيّة في جريفي لؤلؤة كيانتي. وهناك في أقصى المحلّ جلس السيّد صالحيّ خسرو الذي هبّ لاستقبالنا، فجريفى تشكو قلّة السيّاح في الشتاء. كانت الشمس في منزل الحمل عندما أرسل السيّد صالحي أول صرخة احتجاج على مكان الميلاد (إيران الكرد). اقتنينا بعض اللوحات والإطارات الخشبيّة التي تناسبها. "هذه فيناماجيو" قال خسرو، المكان الذي شهد مولد الموناليزا، لعلّكم سمعتم بالموناليزا! هو ليس بعيدا من هنا. وراح يقصّ فصولا من حياته: كان لي بيت في فيينا على طراز منزل فاجنر، بعته واشتريت مزرعة هنا وبيتا كان مقرّ بنك أفلس ولكنّه فسيح أحببته. لم يكن القرار خاطئا أبدا، وإن كلّفني زوجتي التي لم تكن مثلي على قناعة بهذه المغامرة. يا أخي، إذا كان لديك بعض المال اشتر بيتا هنا، فهذا أجمل مكان في الدنيا.

خسرو مهاجر من أكراد إيران، قال: كرديّ، أقولها بفخر، ولكنّي لست فارسيّا لأنني درست في طفولتي في طهران، فقال لي زميل من الأسرة الحاكمة يوما ما: "يا كرديّ يا نذل"! تركت له البلاد وهاجرت. ثمّ بدّل الله تلك الأسرة بقوم من الإكليروس حكموا البلاد ونهبوها هم أيضا بجشع رجال الدين الجائعين، أليسوا ظلّ الله في الأرض في كلّ زمان ومكان؟ خسرو مهاجر قدم إلى إيطاليا منذ واحد وأربعين عاما، وأضاف: اعتدت برد كردستان حتّى صار شتاء توسكانا عندي صيفا.

"أين يمكننا تناول الغداء؟" أجاب: البيرجو مطعم قريب يقدّم ريبولاتو طيّبة أنصحكم بها. في المطعم المذكور، اخترنا بعض الأطباق: المكرونا بالطماطم والدجاج المشوي على الطريقة التوسكانيّة وغير ذلك، لم يكن هناك طبق في البيرجو يضاهي طبق الريبولاتو الرائعة التي اقترحها السيّد خسرو.

ما طفق الحمل يخبّر عن أشيائه الخاصّة حتّى عرض علينا فاتورة كهرباء بيته التّي بلغت ستّمائة يورو، وهي جملة مشترياتنا منه ذلك النّهار.

وأضاف: ابعدوا عن جنون الشرق، جريفي أرض أفضل، إنّها الجنّة، وأنا اخترتها منذ أربعين عاما ولم أندم. إن الأخبار المتواترة من الشرق أكاد أن أشمّ منها رائحة البنادق.

**تافرنيللي** **كيانتي يحرسها الله**

لو أوتيتْ الفورد لسانا لعاتبتنا عتاب حصان أبي الطيب صاحبه في شعب بوان. شارع ستاتالي (222) هو (السيرانات) تغرينا إلى قلب عدن تلك، الجنّة التي خلقها الله بيديه. أقمنا في فندق كاستللو ديل نيرو في تافرنيللي في الغرفة 411 وأفقت على مشهد للطبيعة رأينا به وجه الله؛ أجل فميلانو يحرسها ليوناردو العظيم، والبندقية قديسها ماركوس، ونبتون يحرس بولونا، والقديس فرانسيس أسيسي، وفالانتاين تيرني، وبورتو فينير تحرسها فينوس، وروما جوبيتر، وأما كيانتي فيحرسها الله.

**أماروزا لوكاندا السيمرغ\***

في يناير وصلنا إلى "أماروزا"، هذه اللوكندا ذات الغرف الثلاثين في "سِنالونغا، وكأن بعددها يكتمل "السيمرغ"، بحسب فريد الدين العطار الذي جعل العدد 30 دالاً على اكتمال عناصر البحث عن الحقيقة المطلقة. إنها "لوكاندا السيمرغ" أيضاً. وهنا اكتملت إحدى أكبر حقائقها، عندما فوجئنا بالشيف دانييل كاميللا الذي تقلد مهامه في "أماروزا". كان السيد دانييل قد أنقذنا العام الماضي عندما قصدناه في "رابولانا تيرني". فلقد كنا في مطعمه في ذلك اليوم الذي بدأ مشمساً ورائعاً في أول الأمر لدرجة حملتنا على اصطحاب آلات التصوير معنا. ثم قصدنا مطعمه، وفوجئنا بعاصفة ثلجية كانت في مخاض طيلة اليوم، فهبّت وعصفت ولم تترك شيئاً إلا ومنحته بياضها.

وعندما خرجنا وقصدنا سيارتنا، لم نتمكن من تحريكها، وكان المكان مرتفعاً، فوقعنا في حيص بيص من أمرنا. فما كان من دانييل إلا أن جاء لنا بسلاسل وربطها حول دواليب السيارة. ثم، وبصعوبة بالغة، تمكنا من إنزال السيارة إلى أسفل الطريق، وقصدنا "أموروزا" فبلغناها بمشقة كبيرة.   
وفي الليلة الأولى، تناولنا فيها العشاء معه، قدّم "باستا بيتشي" مع "راغوُو البيف"، أي صلصة اللحم، والكيانينا- لحمة توسكانا، وطلبنا منه في ذلك المساء أن يعد لنا طبق الدجاج المشوي لعشاء الليلة التالية.

**أريتسو الأم غير الرؤوم**

المدينة الإيطالية «أريتسو»، هي الأم التي لم تكن يوماً رؤوماً قطّ، وفعلت كل ما من شأنه جعل أبنائها ينفرطون بعيداً منها كحبّات مسبحة. إنها مدينة تشبه رحماً يلفظ أبناءه، ما إن تقطع عنها حبلهم السريّ. لقد دفعت إلى الحياة نوابغ أمثال فرنشيسكو بترارك وبييترو أريتينو وجورجيو فاساري، ولفظتهم كما يلفظ فم عجوز النوى، فمن يلومهم إذا ساروا في الأرض؟ زرتها وكأني ذهبت أفتّش عن الأسباب التي جعلت نوابغها يتقلبون في البلاد، ودفعني ذلك إلى شعور من التّوجس من سبب ما، لعلّه في الهواء، أو في الجغرافيا، أو لعلّه الماء، أو الشمس.

لكنها مدينة لا تفتقر إلى الجمال ولا إلى البهاء، ولا الهواء المنعش، ولا من الخضرة المحدّقة بك، ولا ساحتها، وهي مع ذلك ما زالت في القلب من توسكانيا، مخبوء في أزقتّها القديمة، في جدران بيوتها أو في الكيميرا وجه الأسد وذيل الثعبان ورأس الماعز تنبثق من الظهر، رمز مدينتهم، وحيوانهم الأسطوري الذي جاء على ذكره هوميروس في إلياذته.

دخلت آريتسو متعقبا ما بذره بترارك وصحبه في طريق السالكين إليها، كنت أفكّر أن رجالاً كهؤلاء منحوا العالم طريقتهم في الحياة، لا بد أن تكون بقايا منهم علقت في طرقات أريتسو وسبلها الضيقة وساحاتها ومصاطبها. خطر ببالي شيء طريق أيضا... وهو تبرم بترارك من كثرة الشعراء وقلة الشعر:

كتب في إحدى رسائله شاكياً: المحامون ورجال الدين وحتى خادمي قد عمدوا كلهم إلى قرض الشعر، أخشى أن لا يمضي وقت طويل حتى تشرع الماشية في الخوار شعرا.

ومن عندي أضيف: لعل الشاعر لم يكتب رسالته لزمانه وحده ولكن لكل الأزمنة.

حانت ساعة الغداء، ورحنا نفتّش عن مطعم نلوذ به، فشدّتنا لوحة عريضة، ومدخل نصب كالفخ لطريدة مثلنا، فدخلناه.

لم نكن نعرف قراءة قائمة طعام بالإتروسكية، وليس لنا سابق معرفة بالمكان وروّاده، فقد دفعتنا إليه المصادفة المحضة، وتلك اللوحة البغيضة التي نصبت للسائرين.

كان الناس من حولنا متجهمين غلاظاً، يعكفون على ازدراد الطعام بنهم، تقول ملامحهم إنّنا نتحدّر من جدود إتروسكيين. لم نكن نشعر بالجوع الذي دفعنا إلى جحيم دانتي هذا بلا شفقة، فاختار صاحبي طبقاً واخترت طبقاً آخر، وعندما نبّهني أن طلبي مكوّن من ثلاثة أطباق على التوالي، حاولت استدراك الأمر على عجل، فقلت لصاحب المطعم بهمس بعدما سألته الاقتراب: سأكتفي بالطبق الرئيس ولا حاجة لي بالطبقين الآخرين.

حدّق بي الرجل بغلظة، ونفاد صبر، وقال بإنجليزيّة مهشّمة لا تكاد تفهم ما معناه: لا يمكنك ذلك، فالطباخون كادوا أن ينتهوا من إعداد أطباقك، ولقد انتهوا هم أنفسهم من تناول وجباتهم، وما عادوا يطيقون أكل المزيد، وأنا كذلك. أما الزبائن فكما ترى منهمكون بتناول الطعام، فأين ستراني أذهب بأطباقك؟ فقلت له: "هون عليك، سأسدد الثمن". وكنت أريد بذلك ألا يبالغ بسورة غضبه، وأن أعمل على تهدئته، ولكنه كان يبدو كمن أعدّ نفسه لمثل هذه الخطوب، فقال وقد بالغ بنفاد صبره أكثر من ذي قبل: الأمر لا يتعلّق بثمن ما طلبت، بل بما طلبت أنت بنفسك، أين سأذهب به، ماذا سأفعل بأطباقك الثلاثة، إن لم تأكلها؟ شعرت في تلك اللحظة بأن الرجل قد خرج من عباءة أريتينو، أو أن لإريتينو أحفادٌ ما زالوا يداولون حرفة الابتزاز، واستعدت على نحو غير متوقّع في موقف كهذا صورة أريتينو، ويده المقطوعة الأصابع، وتماثل الشبه بين لحيتَيِ الرجلين، فقلت في نفسي: إن لحية أريتينو وحدها لا تكفي.

لقد تحققت أسوأ كوابيسي، وحدث ما كنت أخشاه من حيث لم أحتسب، فقد كنت متوجساً من مصادفة رجلٍ كهذا في مدينةٍ كهذه. ثم استدار ناحية زبائنه وصار يحدّثهم بالإيطالية مما جعلني ملفوفاً بغلالة من الحرج الشديد، وهكذا اضطررنا إلى التظاهر بالأكل. كان الأكل غليظاً كالمطعم وصاحبه. وخرجنا من المطعم عدواً، بل من أريتسو كلها كما خرج من قبلنا بترارك وفاساري، وفارقنا المكان ولسان حالنا يقول، كما يقول الطليان: «لذ فراراً من فُوجّا، لا من فُوجّا نفسها، ولكن من أهل فُوجّا.

**العودة إلى جنة كيانتي**

صباحاً في الطريق إلى ~~"~~غريفِهْ"، وهي واسطة عقد "كيانتي"، كان عبوراً باذخاً. وكيف لمن يشهد "رادّا"، و"غايولِهْ إن كيانتي" و"كاتسللينا إن كيانتي"، و"فيلا آ سيستا"، و"بانزانو إن كيانتي" أن لا يكون عبوره باذخاً؟

أليست هذه جنات عدن تجري من تحتها الأنهار؟

إنها نوع من المدن التي تتناسخ في داخلك في صور وأشكال شتى. فبالرغم من أنني زرتها وتجوّلت في جنباتها من قبل مراراً، إلا أن كلّ مرة في "كيانتي" كانت - في حساب الجمال- 0

الفصل التاسع:

أسيسي

**السلام عليك أيّها القدّيس؟**

صرنا إلى أسّيسي البلد الموسوم بالتوحد مع الطبيعة والعزلة مع الله والسماء، فبدت كنيسة القدّيس فرانسيس من بعيد كعملاق يجثم في الأفق. ها هي ثاني أقدس مدينة بعد الفاتيكان تقترب، حيث يرقد القدّيس فرانسيس صاحب إنجيل الدعوة إلى الزهد. في الوقت الذي كانت سيوف الصليبيين تسيل دما من المذابح التي اقترفوها باسم المسيح، ولد في أسيسي في 26 سبتمبر عام 1182م، قبيل خمسة أعوام من استرجاع المسلمين القدس بيد صلاح الدين الأيّوبي. وبينما هو طريح الفراش ذات يوم من أيام عام 1204م وهو في خدمة جيش البابا، وجسده ينتفض من الحمى إذ خيّل إليه أن صوتاً يناديه: "لم تهجر الإله إلى الخادم، والأمير إلى تابعه"؟ فسأل ذلك الصوت:"رباه ماذا تريدني أن أفعل؟" فأجابه الصوت: "عد إلى موطنك، وهناك سيقال لك ماذا تفعل". وبينما هو يصلّي في اسّيسي ذات يوم إذ خيّل إليه أنه يسمع المسيح يتحدث إليه من المذبح، يتقبل حياته وروحه قرباناً له. وأحس منذ تلك اللحظة أنه منذور إلى حياة جديدة. ولما استدعي للمثول بين يدي محكمة الأسقف في الميدان، مثل أمامهم في خشوع وحوله جمع حاشد ينظر إليه. أعلن أنه يريد التخّلي عن كلّ أمواله والتبرؤ من أبيه، إذ لا أب سوى أبيه الذي في السماء، وآوى إلى حجرة قصيّة في قصر الأسقفية، وما لبث أن عاد عارياً كما ولدته أمه.

من هنا بدأت السيرة المؤثرة لأشهر رجل سلام في إيطاليا. بدأ هذا الواعظ يزّين للناس حبّ التسوّل على جمع المال، واتخّاذ الأكواخ سكنا على المنازل، والصبر على شظف العيش، والجوع في سبيل المسيح. وراح فرانسيس وأتباعه يخرجون كل يوم حفاة، ليس معهم شيء من المال، يعظون الناس. وكانوا في بعض الأحيان يغيبون عدة أيام، وينامون في المخازن، أو مستشفيات المجذومين، أو تحت أبواب الكنائس، فإذا عادوا غسل فرانسس أقدامهم وقدم لهم الطعام. وكانوا يحيون بعضهم البعض، التحية الشرقية القديمة: "سلام الله عليكم".

 وممّا أُثر عنه هذا الدعاء الذي لا يبتعد عن دعائنا:

"**إلهي، اجعل من رحمتك وسيلة أبدّل بها الكراهية حبّا، والشكّ يقينا، والخطأ صوابا، واليأس أملا، والظلام نورا، والحزن فرحا**". وراح يلقي مواعظه على الأتباع الذين التّفوا حوله. وربّما ألقى مواعظه على الأشجار، والطيور والحمائم إلى أن أدركته المنية في اليوم الثالث من شهر أكتوبر من عام 1226م ولم يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره.

 كنت وصاحبي نجوب زقاق المدينة ونقتني بعض الصنادل التي تحكي صنادل القدّيس وبعض المسابح والتحف التي صارت تجارة مربحة لسكّان المدينة، قلت له: "إن أكثر ما يشدّني إلى الفرانسسكيّين الأوائل أنّهم لم يتّهموا الناس بالضلال، بل راحوا يعظون الناس عظات بسيطة في شؤون الدين، ولم يكونوا يطلبون إلى المستمعين أن يأخذوا أنفسهم بالعفة، والفقر، والطاعة التي وهبوا هم أنفسهم لها، بل كانوا يسألون الناس تجنب الشر، والمثابرة على الخير".

ثم تساءلت ما إذا كان الأخ الياس، أحد زعماء المذهب المحبين للترف، قد أنصف القدّيس الذي آثر مصلّى لا يزيد طوله على عشرة أذرع، إذ ابتنى له هذا الصرح المارد، أو أن المريدين الإسبان قد وفّوه حقّه عندما أسسّوا باسمه سان فرانسسكو، أعظم مدينة للمثليّين في العالم.

**معبد منيرفا**

بلغنا معبد منيرفا، كان غوته قد انتهى من لجاج مع زعران من بيروجيا ظنّوا أنه جاسوس، وعندما ولَّوا قافلين كتب يقول: تابعتهم بناظري. في مقدمة المشهد، يسير أربعة زعران، ووراءهم في المؤخرة، معبد منيرفا يطل عليّ في حنان، كما لو أن منيرفا نفسها تريد مواساتي. التفت ببصري إلى كاتدرائية القديس فرانسيس الواقعة إلى يساري، وهممت بالسير في سبيلي، حين انفصل رجل أعزل عن جماعة الأربعة، وعاد أدراجه ليقترب مني في شيء من المودة، وقال: "عزيزي أيها الغريب، يجب عليك على الأقل أن تعطيني بخشيشاً، لأنني أؤكد لك أنني عرفت للتو بأنك إنسان شريف، وقد أقنعت أصحابي بذلك، لكنهم حادو الطباع، سريعو الغضب، لا يعرفون ما في الدنيا. ولا بد أنك لاحظت أنني كنت أول من رحب بكلماتك، وأيدك في أقوالك." أثنيت عليه موقفه، ودعوته إلى أن يعمل في المستقبل على حماية أي غريب قد يفد إلى أسيسي بدافع الدين أو الفن، خصوصا إن كان معمارياً يروم أخذ قياسات معبد منيرفا ورسم مخطط عنه، فصورة هذا المعبد لم تحظَ بتخطيط أو حفر على الخشب. وقلت: "إن مثل هؤلاء الزوار الأجانب سوف يكللون هامات البلدة بالمجد، وأنه لو قدم لهم يد العون، فإنهـم لا بـدّ أن يعـبروا لـه عن امتنانهم".

وعند هذه الكلمات وضعت في يده بضع قطع نقود فضية، أثارت سروره، لأنها فاقت كل ما يتوقع. رجاني أن أعود لزيارة أسيسي قريباً، إذ لا يجوز لي مهما كان السبب أن أفوّت على نفسي فرصة وليمة القديس، الحافلة بالتبجيل والتسلية. وقال أيضا، لو أن رجلاً بهي الطلعة مثلي يود الاختلاء بأنثى حلوة، فإن معظم النساء الجميلات المحترمات في أسيسي سيبدين الاستعداد لاستقبالي بتوصية منه. واستأذن بالانصراف بعد أن وعدني وعداً جاداً أنه سيذكرني هذا المساء في دعائه عند ضريح القديس، وأن يتضرع في صلاته داعياً لي بالتوفيق في رحلتي.

وهكذا افترقنا، وزال الكرب بعودتي إلى الوحدة مع الطبيعة والاختلاء إلى نفسي. إن الدرب المؤدي إلى فولينو، الذي يمضي بمحاذاة الجبل ويطل على الوادي، طريق جميل. وإن سيري على هذا الدرب الذي استغرق نحو أربع ساعات، هو من أجمل النزهات الساحرة في حياتي كلها.

هنا استوقفت الشاعر الكبير قليلا وسألته التريّث قبل أن يواصل سرد حديثه عن المعبد، ورحت أقطع الطريق الموصل إلى فولينو الذي قطعه، دون أن أجد لهذا الطريق جمالا وسحرا استثنائيين يدعوان إلى هذا الثناء المفرط الذي يجعل نزهة الشاعر أجمل النزهات الساحرة في حياته كلها. ورحت أحدث النفس عن أحجية بثّها بين سطور رحلته إلى إيطاليا، ظلّت عصية على الفهم إلى يومنا هذا، أحجية تبعث في نفسي شيئا من التساؤل فيما إذا كان الرجل الأعزل قد برّ بعرضه أو أن منيرفا نفسها قد نزلت من عليائها لترافق شاعر العذراء حصّة من ذلك الطريق.

**منيرفا تهبط من عليائها**

هناك أمر لا يبدو أن أحدا من المهتمين بحياة غوته وآثاره سيدركه أو يتعرّف عليه عن قرب، دون أن يستقلّ الوسيلة حتّى يقف في مدينة القدّيس فرانسيس وأمام معبد منيرفا نفسه، وعلى مقربة من الكاتدرائية التي لم يرغب بها واعظ الحمام قط، في حياته القصيرة.

ما السبب الذي دعا غوته أن ينأى بنفسه عن القديس فرانسيسكو ويدعه نهبا لعزلاته، ليلقي مواعظ هندسية صارمة بشأن الأمكنة التي يصادفها في سياحته الغامضة.

إن ما دفعني إلى زيارة أسّيسي هو ذاك الدرب المؤدي إلى فولينو، وهو يمضي بمحاذاة الجبل ويطل على الوادي؛ إنه طريق جميل، وقد استغرق الشاعر في مشواره نحو أربع ساعات، اعتبرها أجمل النزهات الساحرة في حياته كلها، تلك الحياة الحافلة بالنزهات الجميلة والفتيات الجميلات والقدّيسين والمتفكّرين والشياطين الهاربة من فتحات القباب وثقوب الأبواب.

ولكنّني

فعلت ما لم يفعله غوته، ورأيت أن مشاركة قدّيس عزلته أمر سيجعل غوته يتحسّر بلا ريب على تردده.

كنت أشعر دائما أن غوته ترك في رحلته رموزا عصيّة على الفهم، ربّما لظروف زمانه، أو لظروفه الخّاصة، ولكنّنا على وشك فكّ لغزها بعد قرنين من الزمان.

لقد تقاطعت معه في أكثر من مكان، وتحوّلت دوافع الرحلة وجغرافيتها كنتيجة حتمية لتعدّد الأمكنة التي وجدتني محاطا بها. فلقد تقاطعت معه في معبد منيرفا، وشعرت أننا نشترك في عبور واحد، وربما أثارتنا التفاصيل ذاتها، وأثار المكان فينا أسئلة متشابهة، ثم انتهيت إلى أنني أشترك معه في أن مهمتي تكمن في صنع الأسئلة، لا توفير الإجابات، وهي مهمة أكثر مشقة لاقترانها بالإبداع، بعيدا عن كل اتباع.

ثم وجدتني أتقاطع معه ثانية في الكنيسة التي دخلها من قبل. ولكن كيف لي أن أصل إلى الشارع الذي يربط أسيسي بفولينو؟

قصدت المكتب السياحي وسألت عن الطريق، فلم تسعفهم مصادرهم وكتبهم الإرشادية أو تلك التي تجعل الأمكنة مشروحة ومبوّبة، بل ولفرط دهشتي أدركت أنهم يجهلون الحادثة والطريق الذي صنعها، فكلّ ما كان في وسعهم تقديمه هو المكان الذي واجه فيه غوته الكنيسة، أي الساحة التي نقف عندها.

كانت تلك خيبة أمل يمكن تفاديها بطريقة واحدة فحسب، وهي أن أقصد المكان بنفسي وأسلك الطريق ذاته بحسب ما توفّره نصوص غوته عنه، وهو ما فعلته في اليوم التالي، وذهبت من فوري يملؤني فرح غامر، لأسير في الطريق الذي سلكه غوته راجلا قبل قرنين من الزمان.

وإذ لم أجد شيئا مجانسا لوصفه، كررت الرحلة ثانية في اليوم التالي، ولم تكن النتيجة بأفضل من الأولى. وهذا ما دفعني إلى التفكير بما كان يرمي إليه من مقاصد، وهو الذي دأب على جعل رحلته تحفل بالفخاخ والكمائن، وحدست أنني وقعت على مفتاح لأحد مغاليق النصّ، ورجّحت أن يكون الأمر مرتبطا بحكايته مع الرجل البيروجي الذي قدّم عرضا سخيّا للشاعر عندما وضع في يده قطعا من الفضّة قائلا: لو أن رجلاً بهي الطلعة مثله يود الاختلاء بأنثى حلوة، فإن معظم النساء الجميلات، المحترمات في أسّيسي سيبدين الاستعداد لاستقباله. وإذ لم يكن غوته متعففا عن مثل هذا العرض وهو لم يبلغ الأربعين بعد، وله تجارب جمّة شبيهة بهذه في أمكنة شتى حفلت بها رحلته. وبحسب معطيات كهذه قلت: إما أنّ الرجل البيروجي الأعزل قد برّ بعرضه وعاد بحسناء أسيسيّة لا تجيد إلقاء المواعظ على الحمام، بل على جسد الشاعر حتى جعلته يدّخر تلك الحماسة التي قادته إلى أن يقطع الطريق راجلا.. وليست منيرفا الجمال الذي هبط ليرافق الشاعر في ذلك الطريق الخامل.

في نهاية الأمر كنت مستعدا لأن أتجنب فخاخ غوته وكمائنه، وأفعل ما لم يفعله لأسباب مازلنا لم نقطع بها بعد، فعرجت على الكنيسة التي أمعنت في تشديد عزلات القديس.

وما إن مكثنا فيها نحو نصف ساعة حتى باغتنا حارس غليظ القلب والعصا، لا يعوزه في تلك اللحظة سوى أن ينفخ في البوق، وصار يطرد كل من في الكنيسة متذرعا بحلول موعد إغلاقها.

فقلت في نفسي، ربما كان هذا مما دفع غوته أن لا يدخل الكنيسة، وهو الذي ذهب إلى أماكن أقلّ شأنا منها بكثير. لا بدّ أن يكون أحد أسلاف هذا الرجل بغلظة قلبه ذاتها، وببوق كلّما نفخه طار الحمام وفوّت على القديس موعظة جديدة.

**بحيرة تراسيمينو**

ما السرُّ في تلك الأمكنة التّي ما إن نغادرها حتّى تغادرنا، وتلك التي تخطف ألبابَنا وتظلّ تُنادينا. تلك الأمكنة التي لا نمنحها إلا ظلّنا العابر، وتلك التي نخلَع عليها بعضاً من روحنا!

قال غوته: لمّا غادر "بيروجيا" في صباح مجيد: "شعرت بنعمة الخلوة بنفسي من جديد. إنّ موقع البلدة جميل، ومنظر البحيرة ساحر. سأختزن صورهما في البال أبداً". ها نحن نمثل في نهارٍ مشرق للمرّة الثانية أمام منظر البحيرة الساحر، لم نميّز شاعر إنجلترا الكبير بايرون في زورقه حتّى سمعنا هدير رفيقه ستندال يقول: "أربعة أو خمسة أيّام من فلورنسا تحتاجها لبلوغ روما بكلفة أربعين أو خمسة وأربعين فرانك. أحبّذ طريق بيروجيا على طريق سينّا، بمقدورك زيارة أريتزو التي ما كاد يطرأ عليها جديد منذ عهد دانتي، ثمّ مشاهدة ما يلفّ بحيرة تراسينيمو من جمال. تناولنا وجبة غداء خفيفة في مطعم إلمولو.

قبل ثلاثة أعوام، جلست في المطعم ذاته امرأة مثقلة الصدر "شايله مثل شيشات العرق" كما قال "بن لعبون"، وراحت تنقر بكعبها الأرض نقراً كسوط عذاب لم يبارح بال صاحبي حتى كاد أن يربط ذكرى الطاولة والمطعم والبحيرة بالكعب.   
اسم "تراسيمينو"، الأمير ابن الملك التروسكاني، والبحيرة ارتبطا إلى الأبد. فعندما حلّ الأمير ليستريح من وعثاء السفر هناك، صادف عقيلة (أجيللا) الحوريّة التي كانت تسكن إحدى جزر البحيرة الثلاث فوقع في غرامها، ولم يفترقا إلى أن وافته المنيّة، فنَعتْهُ زمناً طويلا، وخلعت على البحيرة اسمه. يحكى أنّه ما إن تداعب النسائم العليلة، في ليالي أغسطس من كلّ عام، صفحة ماء تلك البحيرة حتى يُسمع نواحها ترجّعه النسمات في انتظار أوبته.

في ربيع عام 217 قبل الميلاد، روّع حنابعل (القائد القرطاجي المحنّك) هذه البحيرة بفيلته التي عبر بها جبال الألب، وقضى على الجيش الروماني البالغ عدده ثلاثين ألفا في هزيمة ساحقة خلّدها التاريخ. فلول الجيش الهاربة، ورجالها الذين كانوا يحملون الأغلال ليسلكوا فيها الأسرى الذين كانوا يأملون ببيعهم في أسواق روما بيع العبيد، ذبحوا على شواطئ الجزيرة حتى تضرّجت مياه البحيرة بالدماء، وهيمن "حنا بعل" على شمال إيطاليا حتّى أترعت منه روما رعباً.   
سأل صاحبي عن أصل كلمة "حنا بعل" فقلت: بَعْلُ هو الإله، وحنّا من حنان أو فضل، كأن تقول اليوم: حنان الله أو فضل الله، أما سمعت قوله تعالى: "وحناناً من لدّنا"... ما زال الاسم حيّا في مجاز الأسماء.

**الفصل العاشر:**

**روما**

**هكذا حدثني غوته**

**مرة بصوته وخطواتي ومرة بصوتي وخطواته**

مدخل "البورتا ديل بوبولو"

"أخشى أن أكون سادراً في حلم، فلم أصدّق عيني حتى اجتزت البوابة الشمالية للمدينة". غوته يسكنني منذ زمن، وها هو يعود إلى إيطاليا من جديد ليسافر معي تحت سمائها المباركة صحبة صديقين نظيرين لـ هيردرHerder وتيشباين Tischbein اللذين رافقا غوته في رحلته الإيطالية.

نجتاز الباب الشمالي للمدينة، وأقرأ على صديقيّ: "ها أنذا أنهي صومي عن الكلام" المدون في 1 نوفمبر 1786. ولكننا الآن في يوم من أيام العقد الثاني من الألفية الثالثة، فما الذي تغير؟ روما من المدن الأبدية، التي مهما طرأ عليها تحتفظ بروحها العظيمة، أما ما طرأ على المدينة بين كونها عاصمة لامبراطورية سادت على أجزاء كبرى من العالم القديم شرقاً وغربا، وشمالاً وجنوباً، وبين روما عاصمة إيطاليا اليوم فهي حكاية متعددة الأوجه، ولها في صفحات هذه اليوميات صور شتى تروى تارة بصوتي وقلمي وتارة أخرى بشذرات مما تستعيده يومياتي من رحلة غوته، مسافراً على خطاه في الديار الإيطالية.

على يسارنا كنيسة القديسة مريم- سانتا ماريا ديل بوبولو Santa Maria del Popolo - التي تقوم على قبر الطاغية الكبير نيرون الذي بقر بطن أمه وأحرق روما. قام البابا باسكال الثاني Paschall II بنبشه واجتثاث آخر بقايا رموز الوثنية، على حد زعمه.

دخلنا الكنيسة المتواضعة للسلام على لوحتي كاراڤاجيو Caravaggio - تـحول القديس بولس إلى المسيحية Conversion of Saint Paol وصلب القديس بطرس Crucifixion of St. Peter، في عتمة المعبد يكاد زيتهما يضيء ولو لم تمسسه نار. يا للجمال.. ويا للرهبة.

انتصف النهار. نحن الآن على تلّة الكويرينالي Quirianale، أعلى تلال روما السبعة، نطأ الأرض التي وطأتها قدما شاعر ألمانيا الكبير قبل قرنين ونيفٍ من الزمان، في القديم كان معبد إله الحرب كويرونوس يشمخ هنا، أما اليوم "فقصدنا مصلّى البـابا بيو السادس Pio VI (1775 - 1799) كان الحبر الأعظم رجلاً وسيماً، وقوراً، أما الكرادلة فمن شتى الأعمار والقامات.

وحين رأيته يكتفي بالطواف في مذبح المصلى وهو يتمتم الكلمات مثل أي قسٍّ عادي، تحركت الخطيئة المتأصلة للبروتستانتي الكامن فيّ، فلم أجد أيّة متعة في القدّاس. ألم يَعمد المسيح، وهو طفل، إلى الجهر بأعلى صوته؟ ولما بلغ شبابه لم يلجأ بالتأكيد إلى نشر تعاليمه أو أداء معجزاته صامتاً. قلت لنفسي: ما عسىاه يقول حين يرى إلى ظلّه في الأرض وهو يذرع مذبح المصلّى جيئةً وذهاباً؟"

روى لي غوته هذه الحكاية عن استخفاف رجال الدين في روما:

"حضر الكاردينال ألباني قداساً، فتوجه أحد الطلاب الأجانب إليه وقال بلسانه الغريب: كناجا، كناجا، فكانت أقرب إلى كانجيا، كانجيا، أي وغد.. وغد.

التفت الكاردينال إلى رهطه وقال:

مؤكدٌ أن هذا الشاب يعرفنا!"

على هذه التلّة عاش رهطٌ من الأدباء والفنانين، كالكاتب مارشال والفنانين بونزيو وفونتانا وبرنينتي وغيرهم، وابتنى البابا جريجوري الثامن منزلاً صيفياً يلوذ به من حرّ الفاتيكان.

عرّجنا على النافورة الأشهر في روما التريفي Trevi، التي صمّمهـا «نيــكولا سالڤي Nicola Salvi» وأنجزها عام 1762. يقف نبتون شامخاً في الوسط، وإلى جانبيه رب البحر يجاهد في السيطرة على حصان صعب المراس، وآخر يقود فرساً سهل الانقياد، وهما يرمزان لمزاج البحر. يلقي جمهرة السيّاح قطع النقود، بعد أن يسألوا الآلهة الأمنيات. تمتمنا بكلمات، ورمينا بدورنا قطع النقد، ومضينا.

زرنا المدرج الإسباني الذي اشتق اسمه من وجود السفارة الإسبانية فيه، ودلفنا إلى بيت الشاعر الرومانسي الإنجليزي «كيتس» الذي عاش عاما هنا في منزل أنيق يطل على المدرج.

قبل الغروب، توجهنا إلى شارع الفيلا ماداما حيث جلس الشاعر يراقب غروب الشمس البهّي، صعدنا جبلاً تحفّ به أشجار الزان والكستناء والحور والبرتقال، وتوقفنا عند بوابة تسدّ الطريق، سألنا حارسها المرور، اعتذر قائلا: عليكم أخذ تصريح من وزارة الخارجية.

ذهبنا بعدها إلى الضفة الأخرى من الجبل حيث يجثم فندق الهيلتون الفخم مطلا على مدينة روما، ومن نافذة خلفية شهدنا الغروب. كانت الأبراج المعدنية للاتصالات وأسلاك الكهرباء الضخمة تفسد وجه الشمس التي وصفها الشاعر.

وفي صباح اليوم التالي، علمنا -عن طريق قنصلنا- أن الخارجية وافقت على زيارتنا القصر في «الفيلا ماداما»، على أن يكون ذلك صباحاً! فأجبت: أن ليس قصدنا القصر، بل السير قبيل الغروب تحديداً على الطريق التي سار عليها غوته. كيف لوزارة الخارجية في روما أن تدرك حنين شاعرٍ يعود إلى الطريق ذاته بعد غياب مئتين وعشرين سنة؟

مباركة سماء إيطاليا، يمكن لي على الأقلّ أن أقول إنني لم أكن قط على هذا القدر من الإحساس المرهف بأشياء هذا العالم، كما أنا الآن، والمآل المبارك لهذا على ما أعتقد، سيمس حياتي المقبلة بأسرها.

فـي المساء عمدنا إلى مطعـم صغيـر عريق اسمه أوستاريا دا بيترو يقـدّم البوكـاتيني آل أماتريسـيانا Bucatini All Amatriciana الرائعة، وسلطة الطماطم بالبلسامك وزيت الزيتون الشهي، والخرشوف الروماني الذي لا يفوت فطريقة إعداده في هذا المطعم مميزة، ولا ألذ هناك من لحم الضأن الذي يرعة في سهول في ظاهر روما ولهم في تحضيره طرائق شتى.

في الأيام القادمة، سنزور البانثيون العظيم الذي ملأ غوته إعجاباً ونشاهد أطلال قناطر قناة الماء العظمى التي قال فيها: «ما أنبل الطموح الذي تمثله هذه القناة المرفوعة على قناطر وجسور عملاقة لتزويد الناس بالماء».

في المدن الأخرى يتعيّن على المرء أن يبحث عن المواضع المثيرة للاهتمام، أما هنا فإن هذه المواضع تحتشد حول المرء بغزارة.

أضاف غوته:

"ثمة حكاية عن صياد سمك فاجأته العاصفة ليلاً، فبذل جهده الجهيد لتوجيه دفة القارب إلى الميناء، تشبث به ابنه اليافع وسأله: أبتاه، ما هذا الضوء الغريب الصغير الذي أراه تارة في الأعالي وتارة في الأسفل؟ وعده الأب أن يعطيه الجواب في اليوم التالي، واتضح أن ذلك الضوء هو الفنار، الذي بدا لعيني الصبي، في القارب المتأرجح مع الموج العاتي، تارة يعلو وتارة يهبط. وبالمثل، أوجه دفة قاربي صوب الميناء وسط بحر عاتي الموج، مثبتا بصري على شعاع الفنار. رغم أن هذا الضوء يلوح لناظري، متغير الموقع، إلا أني سائر في هديه حتى أصل البر سليماً معافى. "

استسمحت الشاعر أن أتوجه إلى فنار سلمونه، علي أن أقدّم واجب الطاعة للشاعر الكبير أوڤيد. اتجهنا إلى الشرق عبر تلال خضراء ووهاد، إنها جنان إيطاليا. السحبُ تكلل هامات الجبال، والنسيم ينبعث رقراقاً عبر الخمائل المبثوثة إلى أقصى المدى.

سلمونه، موطن الشاعر أوڤيد ومهد صباه، تستقبلنا بعرس جماعي، علمنا سلفاً أن الشاعر أعده لنا لنتعرف إلى الوجوه الصبيحة التي وصفها في "فن الهوى" و"قصائد حب". قرأت له ترجمتي العربية لقصيدته الخالدة "إخلاص" وإليكم القصيدة:

**إخلاص**

**أنا لا أسأل الإخلاص من امرأة حسناء**

**حسبي من الحقيقة اتقاء الألم**

**أنا لا ألزمكِ التحّلي بالعفاف**

**بل أناشدك التكتم في الأمر**

**إن امرأة تدّعي الطهر لهو الطهر نفسه**

**يا للجنون**

**أن تعترف نهارا بآثامك ليلا**

**وأن تدلي علنا**

**بما اقترفت سراً**

**المومس التي توشك أن تضاجع**

**رجلا من قارعة الطريق**

**تحكم رَتْجُ الباب**

**فهل ينبغي لمثلكِ الجهر بمعصيته**

**لتقيمي على نفسك الدليل**

**الزمي الحكمة**

**وتعلّمي محاكاة الفتاة العفيفة**

**ودعيني أصدّق أنك خيّرة**

**ولو لم تكوني كذلك**

**دعي الطيش للفراش**

**نحّي هناك الفستان جانبا**

**وليلتفّ الفخذ على الفخذ**

**لتهب الشفة القرمزيّة قبلها**

**وليعبّد الهوى ألف طريق للرغبة**

**لتنهمر الكلمات الآسرة والآهات**

**إلى أن تسري في السرير رعشة لعوب**

**اخدعيني**

**واخدعي جميع من حولك**

**دعيني في جهل من أمري**

**أمضي في الحياة كالساذج السعيد**

**ما جدوى علمي برسائلك ذاهبة وآتية**

**ما جدوى مشاهدة أثريكما في السرير**

**أو فوضى الشعر؟ وتلك فوضى لا تتسق والنوم**

**بل ما جدوى تلمّس الكدمات في جيدك؟**

**وإذا دفعتك الخيلاء**

**بالفجور على مرأى مني ومسمع**

**فارحميني وارحمي سمعتك**

**أجنّ وأموت عندما تجهرين بالخطيئة**

**أنضح عرقا من الرأس إلى القدم**

**حينها أحبك وأقلاك**

**وبلا جدوى**

**أتمنى زوالي وزوالك**

**ولئن جنحت للكتمان فلن أتحرّى ولن أراقب**

**سأسدي الشكر للمكر والخديعة**

**وحتّى لو وقعت على الحقيقة**

**ورأيت فعلك الفاحشة بأم عيني**

**ستنكر العين ما رأت عيانا**

**ستنالين نصرا سهلا**

**من امرئ ينشد الخسارة**

**ولكن تذّكري شيئا واحدا فقط**

**قولي: "لم أفعل".**

**ولأنك ستحرزين قصب النصر بجملة قصيرة كهذه**

**أحرزيه على عاتق القاضي**

**إن لم تكن القضيّة.**

عند النصبِ المقام في ساحة المدينة، أقف منشداً الشاعر قصيدتَه العربية، ها قد افترّ الثغر عن ابتسامة، "الآن أشعر أن السكينة ستلازمني في حياتي كلّها".

دلفنا المكتب السياحي، فاستقبلتنا فتاة زوّدتنا بكتيِّبات تعريفية عن سلمونه وأخرى عن أوڤيد، وسألتنا من أي بلد أنتم؟ فقلنا لها: عرب، فابتهجت، وأردفت إنها أول مرّة تلتقي فيها عرباً هنا "وودعتنا بابتسامة عذبة".

يقول الشاعر التشيكي ياروسلاف سيفرت: "كثيرة هي الوجوه التي نلمحها كل يوم وسرعان ما تمّحي، والأفكار التي تداهمنا فما نهمّ بكتابتها حتى تتبددّ."، ولكن الوجه الذي رأيته بالأمس على مفترق الطريق، ماثل أمامي لا يزول، ووجه الفتاة في مكتب سلمونه الإعلامي لا يفارقني أبداً. تجولنا في المدينة، والتقطنا الصور. شاهدت صبيّا وسيماً يعدو أمام فتاة شابة لعلها أمه. قال لي أوڤيد فيما بعد: أنا هو ذلك الصبّي.

تفتخر سلمونه بأمرين: الأول، أنها أنجبت أوفيد، والثاني أنها بلد الحلوى المسماة بالكونفتّى وهو جوز مغلف بالسكّر، قلت لمحدثي بل تشتهر بأمر واحد فقط! شربنا نخب شاعر الهوى ويمّمنا الأدرياتيك إلى بسكاره، حيث استحّم الصبي ذات يوم. وتعمّدنا بمياه البحر على الشاطئ الشرقي لإيطاليا. وإذ أرخى الليل سدوله عدنا إلى عاصمة الرينيسانس.

"لا يسع المرء إلا أن يقدّر روعة النزهة في روما تحت ضوء القمر، ما لم يجرب ذلك بنفسه. فالكتل الهائلة من الضوء تبتلع كل الموجودات ولا يبقى منها سوى الخطوط العامة. لقد تمتعنا حتى الآن بثلاث ليال صافية بديعة، وبدا مبنى الكوليسيوم جميلاً جمالاً أخّاذاً.".

حدثني الشاعر مضيفاً:

"النار التي أضرمها الشحاذون في طابق الكوليسيوم الأرضي، حمل النسيم الخفيف دخانها إلى الحلبة، فأسدل الدخان ستاراً على الأقبية السفلى، ولم يبقَ أمام النظر سوى الكتل الهائلة من الطوابق العليا، التي كانت مشرئبة في العتمة.

رحنا نراقب القمر عالياً منيراً في كبد السماء، أخذ الدخان يتسرّب تدريجياً، من خلال الثقوب والمنافذ، فبدا في ضوء القمر مثل ضباب خفيف، كان المشهد مذهلاً، هذا هو نوع الإنارة التي رأينا فيها البانثيون والكابيتول والساحة المطلّة على كنيسة القدّيس بطرس وغير ذلك من الساحات العظيمة والشوارع.". قلت لمحدّثي: "هذا المشهد الرائع أفسدته الكهرباء، ولن يستطيع أن يراه ثانية إلا من قرأ رحلتك في إيطاليا، أو جلس منصتاً إليك.

في نهار اليوم التالي قصدنا الفاتيكان، ولم نصدق ما رأيناه، فالطابور يمتد أميالاً. امتعضت للمشهد، وسألت الأصدقاء أن نعود في صبيحة الغد قبل وفود الناس، وفي اليوم التالي، قصدنا المكان ذاته في الثامنة لنفاجأ أن الطابور يمتد أميالاً أيضاً. هنا شعرت بالضيق والحنق، أنغادر البلاد غداً دون زيارة سقف كنيسة القديسة سيستينا والتزود بالنظر إلى البييتا؟ كان لتشباين رأي آخر. علينا التوجه إلى المدخل لا الاصطفاف في الطابور! قلت له معترضاً: لا يمكن فهذا أمرٌ محرج للغاية. فأجابني: أنت في إيطاليا.

زجّ تشباين بنفسه بين الصفوف التي أرهقها الانتظار فعادت لا تدفع عن نفسها شيئاً. لمحت أحد الحرّاس يوبخ سائحاً ويأمره بالعودة إلى آخر الطابور، تشباين ينضّم إلى الصفّ القريب من الباب ويومئ لنا بالتسلل إلى المدخل. ها نحن في قلب الفاتيكان بعد دقائق لا تزيد على الخمس، ياللمعجزة، امتثلنا لصاحب الفكرة، معذرة غوته، معذرة إيطاليا. كان لا بدّ من عمل شيء للظفر بلقاء مع مايكل أنجلو، أضاف الآخر: "هكذا ينبغي دخول الفاتيكان..."

الآثار الرومانيّة، تمثال هرقل البرونزي، أفروديتي ربّة الجمال، منيرڤا ربة الفنون، جونو ربّة الآلهة، جوبتر ربّ الأرباب.. صفوف لا تنتهي من التماثيل الرخامية الرائعة تناديك، ثم اللوحات الزيتية. مئات ومئات، ثم السجاد الحريري، وكيفما التفت ستخطفك الميدوسا. ولكن ليس اليوم. اليوم، نحن على موعد مع فنان واحد فقط، واحد لا غير. وإليك بما حدثني به غوته:

"بلغت فيّ الحماسة لمايكل أنجلو في الوقت الحاضر شأوا أنساني تمتعي بالطبيعة، لأنني عاجز عن النظر إليها بعيني عبقري، كما فعل هو. آه لو ثمّة سبيل لحفر مثل هذه الصور عميقاً في الذاكرة. غادرنا المصلّى، وتوجهنا إلى جداريات موزاييك رافائيل، ورغم أني أجد صعوبة في الاعتراف بالحقيقة، ينبغي لي القول أني لم أعد أرغب في النظر إلى موزاييك الجدارية هذه. لقد توسعت عيناي وأدمنتا على أشكال مايكل أنجلو العظيمة، ولم تعودا تجدان أية متعة في تفاهات الموزاييك وحكايات الأناجيل التي نقشها رفائيل، فهي، رغم جمالها، لا تضاهي أعمال مايكل أنجلو. ما أعظم المتعة التي سأصيب لو أن الوقت سنح لي أن أرى أعمال الاثنين مراراً، وأن أقارن بينهما في تجرّد نظراً لأن انطباعات المرء قمينة بالتحيّز."

أحدّق في سقف السستينا بوله، ما أروع هذه المشاهد! فصل النور عن الظلمة، خلق الشمس والقمر والنجوم، خلق آدم، خلق حواء، الطوفان، الأنبياء، الغلمان، العرافات، ويوم الحساب. ما أسمى اللفتة المفاجئة لعرافة دلفي، وما أعمق النظرات التي تطالعنا بها، بل ما أجمل العباءة التي تبدو كأنها شراعٌ خفاق. ترى، ما أمر الصبيّين خلفها، أهما مصدر وحيها أم أراد بهما العقل والإرادة. ما أروع زكريا الوقور الملتحي يطالع رؤيا تنبئ بدخول المسيح إلى أورشليم. وهناك العرافة الليبية توشك أن ترفع مجلداً ضخماً لتضعه فوق حجرها كي تدوّن فيه ما يكشف عنه هاتف الغيب، كم هي ثرية بتنوعها التشكيلي. أما العشرون غلاماً فهم أهم ابتكارات مايكل أنجلو المثيرة للغموض. ففي أحجامهم الضخمة العارية يستحضر الفنان نقاء الإنسان الذي خلق على غرار صورة الإله، وكأنه كائنٌ وسيط بين الرب والبشر.

لقد طوّع مايكل أنجلو الجسد البشري لفرشاته لكونه استوعب كنْه ترابط أعضائه، وهذا هو سر عظمة رسومه. يمكن أن نعد الغلام المسترخي في مشهد فصل النور عن الظلمة أرقى الأشكال جميعاً، لا لوسامة ملامحه وما تنطوي عليه من سكينة فحسب، بل لانطوائه أيضاً على تباينات حادة في لفتته وفي وضعيته غير المألوفة وفي انحناءة رأسه إلى الأمام، الأمر الذي يترك تأثيراً بالغاً في المشاهدين، لقد جعل الغلمان العراة يجسدون المستوى الحسي، فهم من السحر والفتنة بحيث يضاهون أجمل الكواعب لا في بشراتهن المجلوة، ولا في رقة ملامحهن، ولا في استدارة مناكبهن، ولا في رشاقة سيقانهن، ولا في نهود أثدائهن، وانسدال شعورهن فحسب، بل في قدرتهم على التثني والتأود واتخاذ اللفتة الداعية المترددة بين الجسارة والحياء.

لقد نهض مايكل أنجلو وحده بهذا العمل الخارق دون أية مساعدة. أحتاج إلى عمر جديد لاستيعاب كل هذه الحكايات وسبرِ غورها والإلمام بتفاصيلها وجمالياتها.

نحن في كنيسة القديس بطرس، نحن أمام البيتيا – الرحمة- The Pieta تمثال السيدة العذراء والمسيح مسجّى بين ذراعيها، لا ليست هذه صخرة صمّاء، بل السيدة مريم المفجوعة تكاد تجهش بالبكاء. أنجز مايكل أنجلو هذه المعجزة وهو ابن خمسة وعشرين عاما. نحن أمام الجدار الزجاجي العازل البغيض، آه لو عاد مايكل آنجلو ليرى الحجيج، وما آلت إليه رائعته الحبيسة! ترى، أيخلصها من ربقة أسر الفاتيكان؟ حريّ بهذه الجموع الزائرة الطواف حولها. "إنني لأعتبر أن حياتي الثانية، مولدي الجديد، وانبعاثي، إنما بدأ يوم دخولي روما.".

هكذا حدثني غوته.

**تجوال في روما**

ألقيتُ عصا الرحلة في روما، فألقت إليّ ببعض أسرارها. أول الأمر حللنا في فندق سبلندينو، وفي المساء ضيوفا على الطاهي ستيفانو مارزتّي في مطعم ميرابلو الذي يشتهر بأطباق الأسماك كالتونة المدخّنة والسمك ذو الأصداف المذهّبة وباستا الرفيولي المحشوة بجبنة البوراتا، وكذلك الكارباتشو، وهو طبق يشتمل على فاكهة البحر كالتونة والسلمون والروبيان.

**في متحف غوته**

في اليوم التالي، يممنا شطر متحف غوته، في المبنى ذي الغرف الأربع، والذي أقام فيه مع رفاقٍ له برغم قدرته على الإقامة في أمكنة فاخرة أخرى. لكن الرجل أراد أن يمكث متخفيا، وتحت اسم مستعار بعيداً عن عيون الرقباء.

استقبلتنا الدليلة اليساندرا، ولم تكن تلك زيارتي الأولى، ولكنني كلما صعدت الدرج الذي يقود إلى شقة غوته في الدور الثاني، شعرت بحضور طاغٍ لروحه، وكأن تلك الروح تملك قدرة غامضة على تحويلي إلى كائن أخفّ من ريشة وأنا أصعد السلالم، بل وكأنها هي من يصعد بي، فأتذكر وأنا في الحالة تلك ما كتبه أوكتافيو باز "الريشة عصفور حيّ". شرعنا في الطواف على أشياء غوته، بالوقوف أمام خزانة فيها كتاب "رحلة إيطاليا" الذي وضعه والد غوته.

قالت الدليلة إن ظلالا من كتاب والده وأحاديثه عن إيطاليا نجدها مذوّبة باتقان داخل نصّ غوته الإبن، ولا ريب أنه قرأ الكتاب وأدرك بنفسه الكثير مما ذُكر فيه. فسألتها ما إذا كانت اطلعت على الكتاب، فقالت أنها قرأته وهو شبيه في تقسيماته وموضوعاته بالدليل السياحي، فلم تُكتب للوالد حظوظ ابنه، فقد بزّ الابن بكتابه كتاب أبيه، وبات القراء يتناولونه فقط لمعرفة ما تركه الأب من تأثير في الإبن.

وهنا أضافت أن غوته شرع برحلته عندما كان في السابعة والثلاثين من عمره وهي سنّ متأخرة بالقياس إلى زمن كان متوسط عمر الإنسان فيه خمسين عاما. وكان سنّ العشرين هو الأنسب للقيام بالرحلات في عصر عُرف لاحقا باسم "عصر الجولات الكبرى".

وكان غوته يومها ذا شأن في البيئة التي خرج منها، فكان في فايمار برتبة مستشار للدوق في الشؤون الثقافية والسياسية، ذي حظوة كبيرة، أهلته لمساعدة الكتاب والفنانين يومذاك، بمن فيههم الراغبين بالقيام بالرحلات، والذين سيحتفون به خلال وجوده في إيطاليا، ومن بين من كان يشملهم برعايته الفنان تشباين.

وعندما عقد العزم على بدء رحلته في تلك السنّ المتأخرة، استأذن الدوق فحسب، ولم يخبر أصدقاءه ومعارفه بالأمر حتى لا يصطدم بمن يثنيه عن عزمه وقد صار أقرب إلى الكهولة.

استمزجت رأيها في الأسباب التي قادت غوته إلى أن لا يطيل مكوثه سوى ثلاث ساعات في فلورنسا. فرأت أن ذلك كان بسبب شوقه الشديد لبلوغ روما، فالأمران اللذان ملكا عليه عقله يومذاك هما روما الوثنية وعصر الرينسانس، واللذان سيجدهما أكثر وضوحا وحضورا هناك، وكان يؤمل العودة لاحقا إلى فلورنسا.

دخل غوته روما من البوابة الشمالية ، أقام يوما واحدا في فندق قبل أن ينتقل للسكن هنا في هذا المكان، ولعله اختار ذلك ليعتزل ويعكف على تدوين مشاهدات رحلته. وهكذا بدأت جولاته اللامعة في هذه المدينة والتي ستكون هاديا لي لأسترشد بها وأتعرف على روما، لا كما أراها بعيني وحدي، ولكن بعيني غوته أيضاً، اللتين رأتاها قبل ما يزيد على القرنين.

أخذني العجب من البورتريهات العديدة التي صوّرت غوته في مراحل من مختلفة من حياته والتي لا تشبه إحداهما الأخرى، وكأن غوته فاض بحيواته العديدة على الصور فمنح كلا منها حياة لا تشبه الأخرى.

ابتسمت الدليلة لملاحظتي، ووافقتني، "لم يعد بوسعنا اليوم أن نعرف الشكل الحقيقي الذي كان عليه غوته".

توقفت أمام البورتريه الذي رسمه له صديقه تشباين يُعدّ نسخة عن البورتريه الأصلي المعروض في متحف ميونخ.

أول ما استرعى انتباهي في البورتريه عدم تطابق رسم الحذاءين، وعلقت الدليلة على ذلك بقولها: رسم تشباين القدمين كلتاهما يسراوين، وأردفت: على كل حال لم يكن تشباين مايكل أنجلو.

ومن طريف ما شاهدنا في الجولة رسما كاريكاتوريا لغوته ويظهر فيه بملامح متبرمة، عاكفاً على تنضيد سريره، مخاطباً الوسادة بقوله: "حتى أنت أيتها الوسادة اللعينة!".

في نهاية الجولة وبعد أن أوشكنا أن نتم تعقّب ظلال غوته وعلاماته التي بذرها خلفه في المكان، شاهدنا محفورة طباعية لروما قبيل زيارته لها، فسألتها: لماذا لم يتطرق غوته إلى ذكر المدرج الأسباني وهو تحفة معمارية، وكان غوته قد شهد نصب إحدى المسلات المصرية التي أقيمت في أعلى السلم.

أجابت: لقد فاتني أن أقرأ أو أتعرّف على ما يخصّ هذه المعلومة الثمينة، ولكنني أرجّح شخصيا أن غوته لم يكن يكترث بالعمارة الحديثة في زمنه، والدرج الإسباني شيد معاصراً لغوته، وكان يومها في طرف المدينة وليس في مركزها كما هو اليوم.

لاحظنا في الصورة أن كثيرا من جسور روما لم تكن قد شيّدت بعد، ومن ضمنها المسلّة ذاتها التي شهد غوته تشييدها.

شكرت الدليلة على مرافقتنا في الجولة واقتنيت بعض الكتب، ومن بينها كتاب كان قد صدر حديثا عن اللوحات التي تشباين في إيطاليا.

**زيارة قصر دوريا بامفيلي**

زرنا مع الدليلة اليسندرا قصر دوريا بامفيلي الروكوكيّ الطراز، والذي شُيّد على الأرجح في أواسط القرن الخامس عشر، كما لاحظنا شعارا يعود إلى عائلة الديلا ريفري على ما درجت عليه عادة العوائل العريقة من وضع شعار الأسرة الخاص على بوابات قصورها، كان ذلك قبل أن انتقاله إلى أملاك عائلة الدوبرنديني في القرن السابع عشر، لتؤول ملكيته من ثم إلى عائلة البافيلي.

في طريقنا إلى القصر قالت اليساندرا أن الطرقات التي تبدأ من بوابة الشمال حيث دخل غوته تعدّ طرقا مستقيمة تقود إلى مجموعة من الكنائس أهمّها فياكورسي، وأصل اللفظة بمعنى شارع السباق، الذي أخذ تسميته من الأسر الثرية والموسرة ممن شيّدت قصورها الفارهة في ذلك المكان وكان في وسعها أن تشهد السباق من الشرفات المطلّة على الشارع. غرفة غوته في النزل الذي استأجره كانت تطل على الشارع نفسه، وفي ذلك الوقت كان يقع على أطراف روما.

يتكون القصر من مصلّى صغير وقاعة رقص كبيرة، وتزيّن جدرانه المئات من اللوحات الفنية والتماثيل. وفيه قاعة للمرايا تحاكي قاعة مرايا قصر فرساي.

ويشتمل القصر على أكثر من 400 لوحة يعود بعضها إلى القرن الخامس عشر، ومن بين المجموعة لوحة تمثّل البابا اينوسنت العاشر الذي ينحدر من عائلة بامفيلي والذي تسنّم الكرسي الرسولي بين عامي 1644 حتى عام 1655.

وتضمّ المجموعة عملا لتيشان وآخر لكارافاجيو يصوّر استراحة للعذراء ووليدها وزوجها يوسف النجار وهم في طريقهم إلى مصر، ولقد فُتِنت بصورة الملاك الذي يظهر في اللوحة. وهناك صورة للورنيزوليتو وأخرى لكويرجينو، وشاهدنا تمثالا نصفيا للبابا نفسه، ولاحظنا أن لبرنيني تمثالين للبابا، علمنا لاحقا أن التمثال الأول كان قد تشظّى وتعرض للكسر، فقرر برنيني نحت التمثال الآخر عوضا عنه.

ولكن أكثر ما ساءني هو تكديس الأعمال دون روية فوق بعضها البعض وافتقاد القائمين على القصر لمنهجية واضحة في عرض اللوحات، فتجد مثلا لوحة فنان كبير وبجانبها لوحة أقل جودة فنية لفنان مغمور. كما لاحظت أن أعمال تيشان لم تكن بالجودة نفسها للأعمال التي رأيتها له من قبل، وأقلّ أصالة.

كنت أتأمل القصور التي نفضت عن نفسها غبار السنين، ووقفت شاهقة وهي تعبر إلى زمننا بكامل زينتها وبهائها، عندما قالت دليلتنا: في حقيقة الأمر أن من يحكم روما هم أصحاب هذه القصور، فهم أشبه بقادة الجيش، يشكّلون زعامات على مستويات عدة مجتمعية واقتصادية وسياسية، فهم الزعماء الفعليون، وأما هواياتهم فلعلّ الصيد أكثرها حضورا لأنه نوع من التدريب الصارم على ممارسة السلطة بشكل حقيقي، إذ يشتمل على وجود صياد وطريدة، ونحن الشعب ضائعون بين صراعات عائلة وأخرى، فنحن بذلك أقرب إلى الطريدة منا إلى هؤلاء السادة الصيادين.

**كنيسة إكنازيو دي ليولا**

زرنا كنيسة إكنازيو دي ليولا التي شيّدها البابا غريغوري الخامس عشر في عام 1626 تكريما للقدّيس الجزويتي إغناطيوس من ليولا مؤسس جمعية الجزويت، والكنيسة مبنية بترفٍ على طراز العمارة الباروكية التي بدأت في القرن السادس عشر، وبحلول القرن السابع عشر شاعت في جميع أنحاء إيطاليا وأجزاء كثيرة من أوروبا. انتهج المعماري الباروكي طريقة أراد من خلالها أن يترك أثراً دراميًا في عمارته، فهي تزخر بالأشكال المنحنية والاستخدام المتقن والمعقد للأعمدة والمنحوتات واللوحات المزخرفة ذات الأثر التزييني.

تشتمل الكنيسة على الرخام النفيس والنادر وعلى الأحجار الكريمة، وأما قبّتها، فلقد تم تأجيل العمل عليها لنفاد الموارد فزُيّنت بلوحة ثلاثية الأبعاد خادعة للبصر، فلم تكن سوى سقف مسطّح.

**حمامات كركلا**

في طريقنا إلى حمامات كاركلا التاريخية، أقلّنا سائق تاكسي وبصحبتنا دليلتنا حنّا. كان السائق يهتز وهو يستمع لموسيقى أغنية سي تليفوناندو للمغنية الأشهر ميني. استيقظ الساحر الروماني إينيو موريكوني الذي استطاع بموسيقاه التي كتبها لأفلام رعاة البقر الإيطالية التي يسمونها أفلام السباغيتي، وطمس بها الإرث الموسيقى لأفلام رعاة البقر الأميركية. بل وصدر إليهم أحد عباقرة هوليود ممثلا ومخرجا وأعني به كلينت استود. وهو أيضا من ابدعت قريحته موسيقى "سينما براديسو" و"أسطورة "1900 لتورنو توري، و"ليالي عربية" لبازوليني و"1900 لبروتولوتشي" وعشرات الأعمال الأخرى الخالدة.

وأغنية ميني لحنها عام 1966 بأربع نوتات فقط تتكرر صعودا في السلم الموسيقي، حولت هذه الأغنية إلى الأشهر بين الأغاني الإيطالية في العصر الحديث، وهي الأغنية التي كان يهتز لها سائق التكسي طرباً

لدى سؤال الدليلة عن ماهية ارتباط روما بنوافيرها، باغتنا السائق على حين غرّة قائلا: يستهلك الفرد الروماني نحو 50 غالونا من الماء يوميا، أما في روما القديمة فكان يستهلك ضعف هذه الكمية. وأخذ يسوق لنا أشتاتا من تاريخ البلاد والعباد وأحوالهما ماضياً وحاضراً، حتى أخذنا العجب من هذا الأشيب كث الشعر كيف بوسعه أن يلمّ وهو سائق التاكسي، بكل هذه المعارف.

سألناه إن كان من سكان روما؟ فأجاب، نعم أنا من أبنائها.

فقلت في سري ممازحاً إياه، إذا كان الفرد في روما يستهلك نحو 50 غالونا من الماء في وقتنا الحاضر، ويستهلك أجدادكم ضعف الكمية، فلما نبذت ذلك كله ولم تستهلك ولو بعضا منه؟!

في تلّة سيلين، وفي إطلالة تشرف على الكوليسيوم، تقف حمامات كاركلاّ التي بلغناها، فتركنا السائق الذي ارتبت برومانيته يفتّش عن غالون ماء، بينما أخذنا منظر الحمامات التي شيّدها الإمبراطور كاركلا خارج روما، وما زالت آثارها الممتدة على مساحة قدرها 11 هكتارا قائمة حتى اليوم، وكانت تتسع لألف وستمائة زائر في كل وجبة استحمام.

تم بناء حمامات كركلا ما بين ٢١٢–٢١٦ للميلاد في عهد الإمبراطور الذي تحمل اسمه، والمتحدر من سلالة الاباطرة السوريين الذين حكموا روما، واستغرق بناؤها نحو 6 سنوات بعد أن قام المهندسون بالإشراف على تثبيت 2000 طن من المواد يومياً. والحمامات متاحة لكل الطبقات الإجتماعية، ولكن هذا لم يمنع أن يصطحب الأثرياء عبيدهم ومعهم الصندل والطيب ليقوموا بمهمة التدليك.

بقيت الحمامات مقصدا ترفيهيا لأهل روما حتى القرن السادس عندما استولى عليها القوط وهم من شعوب شمال أوروبا من الجرمانيين الذين انحدروا نحو الجنوب، فتم تدمير الكثير من منشآتها الحيوية. ولكنها وبرغم الأضرار التي لحقتها ظلت مفتوحة لعامة الناس، وهي تعمل بمبدأ حرق الفحم تحت الأرض لتسخين المياه، التي كانت تصلها من قناة أكوا مارسيا المكرسة خصيصاً لخدمة الحمامات التي مكثت تعمل بكفاءة حتى القرن التاسع عشر.

ولكي نعرف الجوانب الترفيهية التي راهن عليها الإمبراطور كركلا من أجل كسب ودّ شعبه وتخليده، فكانت أقرب للمجمع منها إلى كونها محض حمامات، واشتملت على مكتبة عامة فيها غرفتان متساويتا الحجم إحداهما مخصصة للنصوص اليونانية والأخرى للنصوص اللاتينية.

وفيها غرفة مركزية باردة تقع تحت ثلاثة خزائن، وغرفة ساخنة وصالات رياضية، حيث كانت رياضتا المصارعة والملاكمة تمارسان هناك. أما الطرف الشمالي للمبنى فكان يحتوي على بركة سباحة مكشوفة مع مرايا برونزية تعكس أشعة الشمس نحو منطقة حمام السباحة.

كنت مأخوذا بمنظرها المهيب وأنا أحدث نفسي: هل كان هذا الصرح من صنع إنس لجنّ أم من صنع جن لإنس؟.

قالت الدليلة، ما يُحسب لمهندسي الرومان قدرتهم على نقل ماء البحيرات العالية عبر قنوات مائلة قليلا إلى مسافات طويلة، وكان من آثار هذا الميلان الطفيف أن عمل على دفع المياه في القنوات بطريقة ميكانيكية نحو الأعلى، وهو الأمر الذي أثنى عليه غوته وهو يشاهد قناطر الماء وممراتها.

تتميز المنحوتات الموجودة في حمامات كركلا بجودتها الكبيرة وهي تمثل مشاهد من الميثولوجيا القديمة وأبطال الأساطير الرومانية على شاكلة تمثال هرقل المحفوظ الآن في متحف دي كابوديمونتي في نابولي بعد أن بذل فيه ملك نابولي المال واشتراه أثناء وجود غوته في إيطاليا، وهو ما دفع الشاعر إلى كتابة عبارته الشهيرة "روما مهددة بخسارة كبيرة".

ومن المؤسف أن كثيرا من رخام هذا الصرح العظيم تعرّض للنهب من قبل الكثيرين، ومنهم عائلة فيرنيزي في القرن السادس عشر لتزيين قصورهم، وهي إحدى العوائل الكبيرة التي بلغ أحد أفرادها منصب الكرسي الرسولي وأصبح بابا الفاتيكان.

أما اليوم، فيستقبل هذا الصرح الشامخ صيفا حفلات الأوبرا لفيردي وبوتشيني وبلليني، وتشهدها جموع غفيرة من دون أن يضطر النظارة إلى التفريط بخمسين غالونا من الماء، أو مائة غالون كما كان يفعل أجدادهم الرومان.

**تلة البلاتينا**

لا أستبعد أن تكون مفردة بلاط العربية من أصل لاتيني، ووصلتنا تحديداً من لفظ "بلاتينا" الدال على التلة التي أسّس عليها الأخوان التوأم رومولوس وريموس مدينة روما، وتشرف على نهر التيبر، وجل الرومان يؤمنون بأسطورة تحدرهم من الأخوين اللذين أرضعتهما ذئبة في أحد المغاور حتى شبّا، وأسسا مدينة روما التي لا تزال تحتفظ بحروف اسميهما منحوتة في لفظها.

ويرد في الميثولوجيا الرومانية أن أمهما هي الكاهنة ريا سيلفيا، أما الأب فهو مارس إله الحرب. ويذكر بلوتارخ في تاريخه رومولوس بوصفه أول ملك لروما.

وفي الفترة التي كان فيها غوته يقوم برحلته الإيطالية شاع أن الآثاريين والمؤرخين اكتشفوا جذورا حقيقية للقصة. مررنا في جولتنا على المبنى الذي يحتوي على آثار الحكاية المكتشفة في مغاور بلاتينا وهي عبارة شواهد تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد تؤيد في زعمهم حكاية التوأم.

كانت تلة البلاتينا من الأماكن المحببة للسكنى من قبل الأسر الثريّة، فكان للخطيب الروماني شيشرون بيت على التلة، أما الإمبراطور أغسطس فوُلد على التلة، ثم عاش في مكان متواضع، وكان يفترش الأرض، وهو الذي نفى أوفيد في سنة 8 ميلادية، ثم زرنا بيته الذي أقام فيه مع زوجته ليفيا.

خلف أغسطس مجموعة من الأباطرة الذين فرّطوا بطريقته المقتصدة والمتقشفة، كتبريوس وكاليكولا وآخرين ممن ابتنوا قصورا، منها على سبيل المثال قصر تيبريوس الذي يقع أسفل جنائن فيرنيزي التي أنشئت في القرن السادس عشر.

زرت ضريح أغسطس ومعي كتاب "التحولات" لأوفيد. قرأت في صفحته الأخيرة مسك الختام، تلك القصيدة التي تحدى بها الشاعر رب الأرباب جوبيتر في سرّ الخلود .

**اليوم أتممت عملا**

**لن يكون في وسع غضب جوبيتر ولا ناره ولا سيفه ولا حتى الزمن النهم أن يطمسه**

**دع ذلك اليوم المحتوم يأتي**

**فلن تكون له سطوة إلا على ما تبقى من جسد مجهول المصير**

**الشطر الأسمى فيّ سيولد من جديد ساطعا خالدا كالنجوم**

**وحيثما سادت حضارة روما في الأرض**

**ستنشد شعري أفواه الشعوب**

**شهيراً سابقى على مر العصير**

**إذا ما صدقت نبوءة شاعر.**

بت على يقين من أن صدور كتاب "فن الهوى" لأوفيد عام 2 ميلادية الذي ذاع صيته وتداولته النخبة الرومانية، وطار الحديث معه في طول البلاد وعرضها عن جرأة الشاعر وتهتكه وهو ما كان يتعارض مع سياسة أغسطس في الحث على الفضيلة في حياة الافراد والمجتمع.

ففي فن الهوى من الجرأة ما تحمر له وجوه العذارى، بل إن في بعضه لو جماله الأدبي ما يخدش الحياء:

"وإن انطوى التأني على خطر فلتضرب بكل مجاذيفك ولتدفع بالمهماز الجواد اللاهث، حتى يحث العاشقان معا المتعة مناصفة ولا تنسي همسات الغلبة وهمهمات اللذة ولا تكتمي ما يلح عليك من نابي اللفظ."

"فجميلة الوجه تضجع على ظهرها والمعجبة بأردافها تستلقي على وجهها. ".

"يروى أن ميلانيون قد رفع ساقي أطلانطا إلى كتفيه فإن نافست ساقاك ساقيها جمالا ضعيهما فوق منكبيه ولتعتلي القصيرة الرجل اعتلاءها الجواد".

"حتى اليد اليسى لا تستلقي جامدة فوق الفراش، بل تحبو باصابعها إلى مواضع من جسمي".

ولما كان أوفيد شخصية ثقافية وسياسية بارزة ومؤثرة فقد أثارن جرأة كتاباته حفيظة الامبراطور، ورأى في أفكار الشاعر تهديداً لمشروع الاجتماعي فلما صدر كتاب "التحولات" في سنة 8 ميلادية، وقصائده تصور بلغة شاعرية زهاء 250 أسطورة يونانية ورومانية اختتمها الشاعر بقصيدته التي أشرت إليها في تحدي جوبيتر، أدرك الامبراطور أغسطس أنه المعني بتحدي الشاعر للإله، فلم يجد بداً من معاقبة الشاعر في السنة ذاتها في السنة ذاتها بنفيه إلى توميس الخاملة في شرق أوروبا. وعبثا ذهبت توسلات أوفيد واعتذاراته المتكررة للامبراطور الذي صب على الشاعر غضباً فاق غضب جوبيتر.

**فيوجي، الإكسير السحريّ**

قال الشاعر ديسيموس جونيوس في القرن الأول قبل الميلاد: "حسبك أرباض روما نزلا، أي سلام يعمّ وادي الليري! بمقدورك اقتناء مسكن هناك بثمن بخس يساوي ثمن غرفة في روما. مسكن بحديقة وجب وقطيع من الغنم. هناك سوف تشعر بأنك إنسان تملك أرضا.".

واليوم، في الإحدى والتسعين قرية من إقليم فروسينوني، بعيداً عن صخب العاصمة، ما زال الأمر كذلك. كنت وصاحبي نجدّ السير في صباح بهي قاصدين المياه التي تداوى بها البابا بونيفاشيو الثامن ومايكل أنجلو من حصى الكلية. كان ذلك البابا هو من أذاع شهرة مياه فيوجي. وأُثر عن مايكل أنجلو أنه قال: "إنني على عشقي للحجر لأمقت حصاة الكلية".

وأما سبب ورودي إليها فلأمر بيني وبين غوته الذي وصل إلى إيطاليا وهو ابن السابعة والثلاثين، وأنا بحاجة إلى أن أعود عشر سنين إلى الوراء ليكون دخولنا إيطاليا معا في العمر ذاته. قصدت المياه التى تضمن لك هذا، فمياه فيوجي وحدها تستطيع إرجاع ساعة العمر عشر سنين إلى الوراء.

**صعود وسقوط آل بورجيا**

الفصل الغريب من تاريخ إيطاليا

**(عبور مسرحي مستلهم)**

كنت وصاحبي في قلب العتمة، عندما أضيئت أنوار خشبة المسرح وتقدّم رجل يدعى رودريغو، وصاح قائلا: جوليا، جوليا، جوليا فارنيزي، وأضاف الكاردينال الذي سيكون البابا الكسندر السادس: ما أن أرسلت هذه النبيلة الرومانيّة شعرها الذهبيّ إلى قدميها، حتّى أضرمت في قلبي اللهب، وهبتني لذّة الجسد الفارع البضّ، ونكهة اللوز، والفم الذي يقطر عسلا إن لثمت أو تحدّثت، وهبتني ابنيّ رودريغو وجيوفاني، وما الضير إن تنّقلت قبلي تلك اللبؤة من حضن عشيق إلى حضن عشيق.

 في إحدى حجرات القصر قلت لهم: صوّروا العذراء في ملامح جوليا وأنا خاشع بين يديها. كنت أَمْثُل أمام هذه الصورة وأصلّي كلّ مساء. أحببت من أجلها شقيقها الغلام إليساندرو رائحة التّفاح، فمن يلومني على عضّ التفّاح وقضمه.

ولمّا اشتركتْ في حفل راقص أُطلقت للشهوات فيه العنان، ومنع دخول أزواج الشابات المدعوّات وآبائهن وإخوتهن حتّى تحدّثت سيينّا كلّها عن هذا العمل الداعر، أنّبني البابا، فكتبت له اعتذارا وفي النفس منه أشياء، هو الذي كان له قطيع من الأبناء.

ثم جيء لي بولدي بيدرو وابنتي جيرولاما أول الثمار من نزوة عابرة مع تلك المرأة. أمّا فانتسا كاتاني الساذجة ذات الأربعة والعشرين ربيعا فلم أطق عنها صبرا، منذ أن عرفتُ الطريق إلى مخدعها حتّى ضاق زوجها دومينيكو ذرعا، ففّر من منزله الزوجيّ لا يلوي على شيء. كان ذلك في ربيع 1466، ثمّ حبلت بأبنائي، جيوفاني الحبيب، وشيزاري، ولوكريزيا، وأخيرا جوفري، ثمّ هيأتُ لها زوجا صالحا تأوي إليه.

صرت أغنى رجل في روما بفضل ما جمعت من مناصبي الإداريّة، وفي العاشر من أغسطس عام 1492 تمّكنت بما أغدقت على مجلس الكرادلة من رشى أن أفوز بالبابويّة، ولمّا خيّرتُ في الاسم الذي اتسمّاه، قلت: تيّمننا "الإسكندر الذي لا يقهر"، هكذا أردتها، بداية وثنيّة، لولاية دينية مسيحية.

ما أن انتهى رودريغو من أدائه حتّى أَعتمت الأنوار، لتضيء في الزاوية اليسرى من المسرح، إذ ذاك تقدمّ رجل ألمانيّ يدعى جوهان بيركهارد وقال: عملت رئيسا للتشريفات لدى البابا الإسكندر السادس، حبّرتُ دفترا صغيراً يحكي يوميّات البابا، أردته لتخليد شهرة مولاي، لا إساءة لسمعته، فقد دوّنت فيه كلّ ما شاهدته تقريبا، بما في ذلك الكثير ممّا كان البابا يودّ أن لا يطلّع عليه الناس، إليكم بعض فصوله:

 أقنع فريدناند زوج ايزابيلاّ ملك إسبانيا الإسكندر وفيرنتي ملك نابولي بالتفاوض، وخطب البابا لابنه جوفري سانشيا حفيدة ملك نابولي فوهبه الأمريكيّتين، ذلك أن كولمبس كشف جزائر الهند الغربية بعد شهرين من جلوس البابا. ثمّ دعم البابا فلورنسا للانضمام إلى الحلف المقدّس، لطرد الداعية المارق سافانارولا صديق فرنسا.

ترددت أخبار تفيد أن جيوفاني ابن البابا عرف طريقه إلى مخدع أخته الظريفة لوكريشيا، وكان البابا يحب ابنته كثيرا حتّى بلغ أن أحد المغتابين النمّامين قال: إبنة البابا، وزوجته، وزوجة ابنه.

ولد للبابا الحار الدم الذي لا يطيق العزوبة من عشيقته جوليا ابنان هما رودريغو وجيوفاني ولم يلبث أن زوّج العشيقة من أرسينو أرسيني، فسمّى الظرفاء جوليا "عروس المسيح"، وجيء له في 1498 بابن غامض من امرأة أخرى أسماه رومانوس وكان يحلو له مشاهدة التمثيليّات وقد جمع حوله لفيفاً من النّساء الرائعات الجمال، يجلسن على مقاعد منخفضة عند قدميه.

وفي عشاء أقيم في جناح شيزاري في قصر الفاتيكان، كانت الغانيات العاريات يتدافعن وراء حبّات الكستناء المنثورة على الأرض، والإسكندر ولوكريشيا ينظران إليهن.

كان يضحك ملء شدقيه حين يرى من نافذة غرفته، استعراضا للرجال المقنّعين ذوي أنوف مزيّفة طويلة كبيرة الحجم كقضبان الفحول.

قال لي ذات يوم: لا أرى تناقضا بين حياتي وبين مبادئ الأخلاق المسيحيّة، فالبابويّة في الظروف المحيطة بها تحتاج إلى حاكم سياسيّ، لا إلى وليّ من أولياء الله الصّالحين، وقال إنّه مضطّر إلى أن يعمل في كلّ خطوة من خطواته مع طغاة، دهاة، يعملون للكسب والسلطان، أو دبلوماسيّين غادرين لا ذمّة لهم ولا ضمير.

لم يفلح جيوفاني أن يكون رجل سياسة وحرب كأخيه شيزاري، كان يرى أن التحدّث إلى امرأة جميلة أغلى من فتح مدينة، ولمّا غاب بعد سهرة عشاء مع أمّه طلب البابا أن يفتّش عنه فوجدت جثّته في نهر التيبر/ التيفري، مطعونة في تسعة مواضع مختلفة، فحطّم الحزن قلبه، وأدى به إلى أن يغلق على نفسه باب غرفته الخاصّة، ويمتنع عن الطعام، وكان أنينه يترامى إلى الشارع المجاور.

ما أن أنهى بيركهارد كلامه حتّى أضاءت الزاوية الأخرى من المسرح، فانسحب الرجل، وتقدّمت امرأة تدعى لوكريشيا بورجي وقالت: كانوا يتعشون في الهواء الطلق والدي البابا الإسكندر وأخي شيزاري، في الخامس من أغسطس 1503 في بيت الكردنال أدريانو غير البعيد عن الفاتيكان، وبقوا جميعاً في حديقة المنزل حتى منتصف الليل، لأن حرارة الجوّ داخل الدار لم تكن تطاق. فلمّا كان اليوم الحادي عشر أصيب الكردنال بحمى شديدة دامت ثلاثة أيام ثم زالت. وفي اليوم الثاني عشر أصيب البابا وأخي بحمى وقيء واضطرا لملازمة الفراش. وتحدثت روما كعادتها عن السم، وقال النمامون إن أخي شيزاري أمر بدسّ السم للكردنال ليستحوذ على ثروته، وإن الضيوف كلهم تقريباً تناولوا من الطعام المسموم. لكن الأطباء الذين عالجوا أبي أجمعوا أنها عدوى الملاريا، سبّبها طول التعرض لهواء الليل في روما في منتصف الصيف. توفي الكردنال في الثامن عشر من أغسطس من هذا العام.

ثمّ خرجت لوكريشيا وتقدّم الكاردينال اليساندرو فارنيزي شقيق جوليا، وقال: ما لبثت جثة البابا أن أصبحت سوداء اللون كريهة الرائحة، تؤيد زعم من يشيعون بأنه مات مسموماً. حتّى أن النجارين كانوا يتفكهون، ويجدفون وهم يعانون من صعوبة حشر الجثة المنتفخة في التابوت الذي أعد لها. ويضيف الثرثارون أنهم رأوا شيطاناً صغيراً ساعة أن مات الإسكندر يحمل روحه إلى الجحيم. هذا هو شأن الإيطاليين، فعند انتخابه. لم يحدث أن كان ابتهاج الناس بانتخاب البابا مماثلاً لابتهاجهم بموته؛ وتجمعوا بسرعة لا يكاد يصدقها الإنسان، وتزاحموا حول جثة البابا الإسباني في كنيسة القديس بطرس، ولم يكن في مقدورهم أن يشبعوا عيونهم من منظر ذلك الأفعوان الهالك الذي طمس على قلوب العالم كله، وأعمى بصائره بمطامعه التي تجاوزت كل حد، وبغدره البغيض.

ثم خفتت الأنوار حتّى انبعث صوت من أقصى المسرح لميكافيللّى الذي لا يكاد يُرى، وهتف:  لم يؤثر عن البابا الإسكندر السادس إلاّ الخداع، وأنه لم يكن يفكر في غير هذا طول حياته كلها، ولم يقسم إنسان قطّ أيماناً أقوى من أيمانه بإنجاز الوعود، ثم ينقض هذه الأيمان فيما بعد، ولكنه مع هذا نجح في كل شيء لأنه كان ملماً كل الإلمام بهذا الجزء من العالم. وأما شيزاري فكان سيدا جليلا عظيما، كان يبلغ من الجرأة حداً يبدو معه كل مشروع مهما عظم شأنه صغيراً في عينه. وكان يحرم نفسه من الراحة ليظفر بالمجد ويستحوذ على الأمصار، ولا يجد الخطر ولا التعب إليه سبيلا. كان يصل إلى المكان الذي يريده قبل أن يدرك الناس المكان الذي غادره؛ وكان يكسب محبة جنوده، وقد اختارهم من أحسن الرجال في إيطاليا. وأدى هذا كله إلى نصره وقوته، وساعده على ذلك حظه الموفق حتّى يوم الحمّى الذي انفرط فيه عقد آل بورجيا وبدّلت الليالي البيض سعوده نحوسا.

ما أن أنهى ميكافيللّي حديثه حتى تقدّم ليوناردو دافنشي وقال: كان شيزاري أشقر شعر الرأس واللحية، كما يريد كثير من الإيطاليين أن يكونوا، حاد البصر، فاره الطول، لا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه، يستطيع أن يلوي حدوة فرس بيده العارية. وكان يمتطي صهوة الجياد الجامحة التي كان يذخر بها إسطبله. وكان يخرج إلى الصيد بتلهف الكلب الذي شم رائحة الدم. وقد أدهش جمعاً من الناس في أثناء عيد في روما حين قطع رأس ثور في مصارعة للثيران في أحد ميادين المدينة بضربة واحدة من يمينه. عملتُ لديه كبيرا للمهندسين، واستطاع أن يستعيد جميع الولايات البابوية في الحروب التي خاضها في ردح قصير من الزمان وأنا برفقته، بنيت له الجسور على الأنهار، وحوّلت له مجراها، وشيَّدت له الحصون بتجهيزاتها، صنعت له المدافع، والأبراج المتحرّكة، ورسمت له الخرائط التخطيطيّة، وكان يجتمع إلينا ميكافيللّي مبعوث فلورنسا، الشديد الإعجاب بالأمير. وعندما بلغني أمر الحمّى التي أصابته وموت البابا، عدت إلى فلورنسا، وأنا مغموم لما آل اليه أمر الأمير، ولم تستقم له حال بعد ذلك، على إثر حروب خاضها بعد أن تفرّق عنه جنده، أسر ونفي، وقتل في بلده إسبانيا عام 1507، وهكذا دالت دولة آل بورجيا وذهبت ريحهم.

عندما انتهى العرض أضاءت الأنوار واختفى كل من في المسرح، بقيتُ وصاحبي نرقب الصّمت، وقد لفّنا الذهول من ذلك الفصل الغريب من تاريخ إيطاليا. لمحت ورقة ساقطة على خشبة المسرح، حملتها ونحن في طريقنا للخروج، إنّها خريطة متقنة لإيمولا قرب بولونا صّورها ليوناردو دافنشي من السماء بعين الطائر عام 1502، هناك حيث التقت في تلك البرهة من الزمن ثلاث شخصيّات عظيمة في عصر النهضة هي شيزاري، وميكافيللّي، وليوناردو دافنشي.

**عزيزي برونو**

في قلب البيازا كامبو دي فيوري أو ساحة ميدان الزهور يقف نصب جيوردانو برونو في صمت وهيبة، في المكان ذاته تحلّقت حوله شرذمة من الغوغاء في صبيحة السابع عشر من فبراير عام 1600 لمشاهدة تنفيذ حكم محكمة التفتيش. جرّد الفيلسوف المشاغب من ثيابه، وربط لسانه السليط، وشدّ إلى خازوق من الحديد وأحرق فوق كومة من الخشب. قيل أنّه خاطب القضاة عندما تلوا عليه قرارهم، قائلا: "لعلّكم أشدّ جزعا، في هذا الحكم، منّي أنا الذي تلقّيته". لم يكن ذنب برونو أنّه ذهب مذهب كوبرنيكوس في أن الأرض ليست مركز الكون كما زعم بطليموس، وأن البابا ليس مركز الأرض، وأن الأرض ما هي إلا ذرّة في فضاء لا متناه، كون لا نهائي ليس له مركز أو محيط تنفث فيه الحياة روح واحدة. وخالف أستاذه قائلا: إن النجوم ، وذلك قبل مولد التلسكوب، غير ثابتة وأنّها تغيّر مواقعها على الدوام. وتساءل ما إذا كانت هناك نجوم تسكنها كائنات ذكيّة، فهل مات المسيح من أجلها أيضا؟ وأضاف: ما أشبه الشعب بالبهيمة، والحاكم بالطفل الذي يتحكّم بها فيوجّهها أنّى شاء بما يتفضّل عليها بالنزر القليل من المال، والذي هو في الأصل مالها هي. لم يحتمل الحاكم البابوي هذا التحريض فأسلم برونو إلى محكمة التفتيش بعد أن قبض عليه في البندقيّة، وذلك على إثر طوافه أوروبا لستة عشر عاما محاضرا في أرقى جامعاتها كأكسفورد والسوربون والكوليج دي فرانس، وحُمل بعدها أسيرا في مركبة إلى روما، وتعرّض في عاصمة الأنوار إلى الكثير من المهانة والإذلال من قبل عبيد البابا ورهطه قبل أن يصدر عليه الحكم بالهرطقة والموت حرقا.

وبعد ثلاثة وثلاثين عاما من هذا التاريخ، وخشية لقاء نفس المصير من محكمة التفتيش ذاتها، وقف الشيخ الكبير غاليليو بعد أن أبصر ورأى بمناظيره وعدساته أن الكون أكبر ممّا يظنّ البابا نفسه، فأعلن أمام المحكمة في روما بأنه نادم أشدّ الندم على هرطقته وزيف ما خيّل إليه أنه رآه، وأن كوبرنيكوس ما هو إلاّ مدلّس كبير! أقف أمام النصب الذي أقيم احتفاء بذكرى الرجل العظيم، والذي جمعت فيه التبرعات من كل أصقاع الدنيا عام 1889 في قلب ساحة الكامبو دي فيوري وأهمس للهيكل الذي يلفّه صمت ووقار: عزيزي برونو، أنت من أولي الفضل في ما بلغه الغرب من تقدّم، لا بفلسفتك وعلمك فحسب، بل بحدسك الشعريّ الذي حيّر الزمان. لعلّك تأسى أو لعلّك تبتسم لما بلغناه نحن، فنحن يا سيّدي بعد خمسة قرون خلت على رحيلك ما زال بعضنا يتوهم بأن الأرض مسطحة وما زالت مركز الكون وأن النجوم والمجرّات الضخمة ما هي إلاّ مصابيح تزيّن صفحة السماء.

**الهولندي الطائر**

في حضرة لوحة

زرت معرضاً فنياً لمن سأستعير أسطورة هولندية وأسميه بـ"لهولندي الطائر" وأعني به الفنان الهولندي ألما تاديما لورينس**،** الذي ولد في الثامن من يناير عام 1836، ودرس في أكاديمية أنتويرب، واستقر بإنجلترا في عام 1870، اشتهر في تجسيد عالميّ الرفاهية والانحطاط في الإمبراطورية الرومانية. وكان هذا الجدي الساحر يخرج لجمهوره فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء كلوحة ورود الجبالوس (إيل جبل) التي تصوّر الإمبراطور يخدّر ندماءه بورود سامّة تتساقط من سقف المجلس، بينما هو يرقب المشهد بلذة الملوك الذين دخلوا القرية. حكم الجبالوس السوريّ المولود في حمص عام 218 م إلى عام 222م واغتيل وجرى التمثيل بجثته، ولمّا يكن قد تجاوز التسعة عشر عاما. ولع المعجبون بفخامة لوحات ألما تاديما وبهائها، وبعد وفاته في 25 يوليو 1912 بألمانيا، قلت شهرته، ولكن في العقود الثلاثة الأخيرة انبعثت سمعته مرة أخرى ليعود ألما تاديما كأبرز رسامي القرن الثامن عشر.

زرت في روما متحفا ضم لوحة الجبالوس لتاديما وبذهني كم كانت روما مرتبطة بالشرق وكم من دروب الشرق كانت تفضي إلى روما.

**روح الطائر**

قبيل كل غروب، تداهمنا سحابة طيور صغيرة في سماء روما برقصتها الجماعيّة الغريبة الساحرة، تؤديها في نسق يبهج العين ويشعل الروح. على أن الفرح الذي تبعثه في النفس سحابة الطيور هذه لا يضاهي مرارة المّوت المحدّق بالطائر، فثمّة عدوّ متربّصّ يبثّ في قلبها الذعر، ويدفعها إلى تأدية رقصة الموت الأخيرة في لحظات الغروب. رحت وصاحبي نتابعها بإعجاب مشفوع بالشفقة، ونحن نسير على ضفاف نهر التيبر (تيفري)، حمل لي هذا المشهد العجيب تفسيراً لما أنبأني به نبيّ الفن والعلم قبل خمسة قرون خلت عندما كتب: "الطائر آلة ميكانيكيّة تعمل وفق نظام رياضيّ، بمقدور الإنسان محاكاتها بآلة تقوم بالحركات ذاتها، ولكن ليس بالطّاقة نفسها، آلة كهذه يصنعها الإنسان تعوزها روح الطائر، وهذه الروح يمكن استلهامها من روح الإنسان".[[9]](#footnote-9)

**الطوفان**

إذا كان للسومريين والبابليين والعبرانيين طوفانهم، فلم لا يكون لآلهة الأولمب، أو أرباب البانثيون الرومان، طوفانهم أيضاً؟ نعم كان لهم ذلك، ولكن قصّة الطوفان التي انتهت إلينا عنهم لا تخلو من حبكة فاقت خيال الأولين بتألق لا يستحقّه غير الإغريق والرومان أنفسهم.

عندما قرّر جوبيتر أن يبيد الجنس البشري بالمياه اختار أخاه نبتون لهذه المهمّة. وما أن أرسلت السماء مطرها مدرارا حتّى ضرب الإله بحربته الثلاثيّة الرؤوس البحر، فانشق أديمه وأفلتت الأمواج من قيودها، وفاضت الأنهار والينابيع حتّى غمرت الأمواه الأرض، وصار كلّ شيء محيطاً من الماء، ولم يعد لهذا المحيط شاطىء. دوكاليون وحده نجا بقاربه الصغير مع زوجته بيرّا (Deucalion and Pyrrha) بفضل صلواتهما. لم يُعرف رجل أكثر فضيلة من هذا الرجل، ولا امرأة تخشى الآلهة كمثل زوجته. ولمّا رأى جوبيتر أن الكون المغمور بالماء لم يعد يشكّل إلا بحراً، وأنّه لم يبق من آلاف البشر إلا رجل واحد، ومن آلاف النساء إلا امرأة واحدة، رفع الغيم وأزاح بريح الشمال ستار المطر معيداً إلى الأرض منظر السماء، وإلى السماء منظر الأرض. وألقى سيّد المحيطات حربته الثلاثيّة الرؤوس مهدئا الموج، فصار للبحر شواطئ، وعادت إلى مجاريها الأنهار، وبهذا جدّد بناء الكون.

وإذ شكا ديكاليون وزوجته الوحدة في هذا العالم الجديد قائلا: آه لو أستطيع ان أعمّر الكون بالناس من جديد كما عمّره أبي، وأن أنفخ الروح في طين تشكّله يداي! وتضّرعا إلى الآلهة، فأوحت إليهما السماء بهذه الكلمات: "ليطرح كلّ منكما عظام جدّته وراء ظهره". فأدركا بعد طول عناء أن الجدّة هي الأرض وأن الحجارة هي عظامها. ثم راحا يرشقان الحجارة وراء ظهريهما. أخذت هذه الحجارة تفقد صلابتها ومظهرها الجامد، وبدأت تلين قليلا قليلا، وتتّخذ فيما هي تلين شكلا جديدا. وفي مدّة وجيزة، أخذت الحجارة التي رماها الذكر شكل رجل، والحجارة التي رمتها الأنثى شكل امرأة. وهذه كانت مشيئة الآلهة.

**البانثيون**

إن كان ثمّة مكان يحتلّ الصدارة في قائمة الأماكن التي ينبغي عليّ زيارتها في إيطاليا، فهو مبنى الآلهة (البانثيون) واسطة عقد روما، وأحسن بناء احتفظ بشكله من أبنية العالم القديم، والذي لا تحتاج، على حدّ قول ستندال، سوى لحظتين لتصبح مسكونا بجماله: قف أمام رواقه، ثمّ سرْ بضع خطوات، وادلف الفضاء الذي يوحي للسائر فيه بإحساس من الحريّة، ثمّ ينتهي كلّ شيء. هنا يُختزل ألفا عام من الزمان بكل التفاصيل، ويزدحم أعلام ارتبط عبورهم بالمكان أو حديثهم عنه بكثافة: هادريان، تراجان، ماركو أنطونيو، أنكوس، ماركيوس، لوكوس، دافنشي، مايكل أنجلو، رافائيل، غوته. قائمة من الشخصيات العظيمة لا حصر لها وليست لها نهاية.

* الكلمات المنقوشة على مدخل صرح الآلهة هذا الذي شيّده ماركوس أغريبّا والتي تعزو إليه البناء مضلّلة، فالبانثيون الذي شيّد في27 قبل الميلاد، أتى عليه حريق روما عام 80م، ثم شيّد الإمبراطور دوميتيان معبدا لعّله لم يرضِ جوبيتر، فأرسل عليه صاعقة من السماء أحرقته عام 110م، ثمّ جاء البَنَّاء العظيم الإمبراطور هادريان عام 126م، فوضع بنفسه تصميم الصرح، وأمر بنقل الأعمدة الجرانيتية الكورنثيّة التي تزيّن مدخله، والتي يبلغ وزن الواحد منها ستّين طنّا، من جبل كلوديانوس في شرق مصر عبر النيل إلى الإسكندريّة ثم عبر البحر الأبيض المتوسط إلى ميناء أوستيا في إيطاليا، وبعد ذلك تم نقلها عبر نهر التيبر.

ولقد وصف تحفته هذه بقوله: "كانت رغبتي أن يحاكي صرح الآلهة هذا عالمنا الأرضيّ والفضاء الكونيّ، فالقبّة السماويّة تكشف السماء من خلال بؤبؤ ضخم يبيّن اختلاف الليل والنهار". هذا الصرح المفتوح والمغلق بطريقة غامضة في آن، بمثابة ساعة شمسيّة، ودائرة السقف التي صقلتها أيدي الحرفيين اليونان المهرة تشكّل ساعاتها. هناك يستقرّ قرص الشمس معلّقا مثل درع من الذهب. وما إن حلّ عام 609م حتّى وهب الإمبراطور فوكاس الصرح ودرعه إلى البابا بونيفاس الرابع الذي كرّسه للقدّيسة مريم وكلّ الشهداء، وفي 663م انتزع الإمبراطور البيزنطي كونستانس الثاني بلاط السقف الذهبي وصفائح الذهب التي تزّين الأبواب. وفي القرن الرابع عشر صار سوقا للدّواجن. وفي 1632م أذاب أوربان الثامن بقايا أروقة المعبد البرونزيّة ليرفع المظلّة فوق المذبح العالي في كنيسة القدّيس بطرس.

واعتقدت العامّة في القرون الوسطى أن المبنى كان مسكونا بأرواح شرّيرة، وأن مريم البتول هي التي طردت الشيطان الذي ضاق ذرعا بالحبس حتّى فرّ من فتحة السقف. وقال مايكل أنجلو، الناقد الحذر في فن المعمار في عام 1500م، عندما شاهده لأول مرّة: "هذا من صنع الملائكة". وقام بايرون بتدبيج قصيدة رائعة فيه، وكتب هنري جيمس لأخته بعد أن شاهده أول مرّة، بأنه مبعث أسى كلّ من لم يكن وثنيّا. واختاره رافائيل موضعاً لمثواه الأخير، وتبعه سائر ملوك إيطاليا. ولمّا رآه غوته فتن به، وقال: ترى كيف يتسنّى لنا، نحن الصغار، المعتادين على الصَغار، أن نضارع مثل هذا الكمال السامي؟

ترى هل دار في خلد هذا البَنَّاء العظيم كم من القرون وكم من العظماء سيتعاقب على صرحه هذا؟ وهل كان يدري أن قوله سيخلّد عندما سُئل: لِمَ لا يخلّد اسمه على أي من أعماله العديدة؟ فأجاب: "سيكون ذلك مبعث سعادتي، ولكنّني أكثر سعادة في نسبتها إلى المؤسسين الأوائل الذين لهم الفضل في ترسيخ دعائم الإمبراطوريّة".

هل كان هادريان يعلم أن هذا القول ستذكره القرون؟ كان هادريان أحد أعظم الأباطرة الخيّرين، كما أسماهم مكيافيللّي، عندما لاحظ أن الأباطرة الذين ارتقوا العرش عن طريق التبنّي هم أفضل شأناً من أولئك الذين ارتقوه عن طريق الوراثة. كان أغسطس يرى أن الولايات توابع لإيطاليا تفيد منها مالاً وثراء، وكان يحكمها حكماً صالحاً لتدر الخير على إيطاليا. أما هادريان فلم يعد يرى روما جابية ضرائب لإيطاليا، بل كانت الحاكم المسؤول عن امبراطورية يتمتع كل جزء من أجزائها بقسط من عناية الحكومة مكافئ لما تتمتع به سائر الأجزاء. لقد رأى هادريان قبل موته الإمبراطورية كلها بعينيه، وجمع شتاتها ووحّدها، وكان قد وعد أنه "سيتدبّر شؤون هذه المجموعة من الأمم تدبير من يدرك أنها ملك الشعب لا ملكه الخاص". وقد أنجز ما وعد.

**فيلا فارنِزينا**

قرأت وأنا في روما يوميّة غوته التي دوّنها في يوم 18 نوفمبر عام 1786 عن حكاية "تحولات النفس" في أسطورة لوسيوس (Lucius Tarquinius Prescus) التي طالما احتفظ بمحفورات طباعية ملوّنة عنها في غرفته، بيد أنه شاهد الأصل على هيئة لوحة جصيّة سقفية نفّذها فنان عصر النهضة رافائيل في فيلا فارنيزينا. وكدأبي في مثل هذه الأمور قلت: لأتحرّى هذا العمل، فأنا لا أفوّت شاردة ولا واردة لرافائيل، فقصدت في يوم فيلا فارنِزينا وشرعت أطوف في أجنحتها إلى أن بلغت صالة الاستقبال، وهناك بهتُّ لمشهد هذا العمل الباذخ والساحر، ورحت أفتّش عن مصدر الحكاية التي استمدّ منها رافائيل إلهامه، وأشدّ ما أدهشني أنني اكتشفت أن الفيلا كانت مملوكة في الأصل للتاجر الذّائع الصّيت أغوسطينو كيجي، والذي كنت قد كتبت عنه قبل سنوات، وتعجبت كيف لمثل هذه الفيلا أن يغمرها النسيان وقد كانت موائدها لا تكاد تنقطع وأطباق الذهب والفضّة تُرمى إلى النّهر للدلالة على فرط بذخ الرجل؟   
كيف سُلب اسمه وحلّ محله اسم آخر، وهو راعي رافائيل وباني الفيلا؟ كيف يمكن أن تُنسب لمن أتى بعده ويمسي هو نسياً منسيا؟

جانب آخر من الحكاية، يممنا لاجل الكشف عنه شطر الجزائر لنبلغ المكان الذي ولد فيه أبوليوس كاتب حكاية "تحولات الحمار الذهبي" التي استلهم رفائيل من وحيها عملا فنيا رائعاً . والكاتب البونيقي ذو الثقافة الهيلينستية عاش ما بين عامي (125- 170 م) وترعرع في مداوروش في سوق أهراس شرقي الجزائر، وكان وخطيباً وفيلسوفاً وعالم طبيعة وشاعراً.

وروايته التي كتبها" باللغة اللاتينية القديمة في 11 جزءًا، روى فيها مغامرات شاب يُدْعَى لوسيوس، شاءت المصادفة أن يُمسخ حمارًا، بعد أن أراد أن يتحوّل إلى طائر. فصار يتنقَّل من مكان إلى مكان، وهو يُمعْن النظر في غباء البشر وقسوتهم. وأخيرًا، تنجح الإلهة المصرية إيزيس في رده إلى هيئته البشرية. وتحتوي الرواية عدة حكايات قصيرة خارج الخط الروائي الأصلي، أشهرها قصة كيُوبيد وأبسيك، وهي التي صوّرها رافائيل في قصر راعيه أغوسطينو كيجي.

أخيراً حطّت بنا الطائرة في مطار عنّابة، وقصدنا سوق أهراس ومداوروش، وهي المدينة التي شهدت ولادة الرجل الذي جعلنا غوته نتلقّف المفتاح للعثور على حكايته، بينما نفض رافائيل غبار الزمن عن الرواية، ومنحها بهاءً عالياً يليق بها، فلا يمكنك الآن أن تتطلع إلى أسطورة التحولات من غير أن ترفع رأسك إلى سقف فيلا أغوسطينو كيجي وتحيي الجزائري أبوليوس.

**صفعة البابا** **في** **أَنانّي**[[10]](#footnote-10)

لطالما شغلتني لحظة التحول الفارقة من السطوة الإلهية للكنيسة إلى زمن استقلال ملوك أوروبا بسلطانهم وثروات ممالكهم ومقدرات شعوبهم.

في ناني التي عرجنا عليها استعدت الواقعة التي رد فيها الملك الفرنسي فيليب على حرمان البابا بونيفاشيو الثامن له ووصفه بأنه ظالم، وساحر، وكافر، وأمر أن يخلعه مجلس عام الكنيسة، فبعث الملك فيليب وليام نوجاروت كبير رجال القانون لديه، إلى روما ليبلغ البابا مطالب الملك. وكان الحبر الأعظم وقتئذ في القصر البابوي بأناني، فأعلن بأن البابا وحده من يحق له أن يدعو مجلساً عاماً، وأعد مرسوماً يحرّم فيه فيليب ويصب اللعنة على فرنسا، وقبل أن يصدر مرسومه وصل كل من وليام نوجارت وشارّا كولونّا على رأس ألفين من الجنود المرتزقة واقتحما القصر، وسلما البابا رسالة فيليب، وطلبا إليه أن يوقعها وذلك في 7 سبتمبر سنة 1303 فرفض بونيفاشيو هذا الطلب. وتقول رواية "موثوق بصحتها أعظم الثقة" إن شارّا صفع الحبر الأعظم على وجهه، صفعة كادت تودي بحياته. وكان بونيفاشيو وقتئذ في الخامسة والسبعين من عمره، ضعيف الجسم، ولكنه وقف يتحدى خصومه. وبقي ثلاثة أيام سجيناً في قصره والجنود المرتزقة ينهرونه وينهبون قصره. ويلوح أن سجّانيه لم يقدموا له طعاماً على مدى الأيام الثلاثة السابقة على تحريره، لأنه سأل وهو واقف في السوق: إن كانت هناك امرأة صالحة ترضى أن تقدم لي صدقة من النبيذ والخبز، فإني أمنحها بركة اللّه وبركتي". واقتيد إلى روما ثم إلى الفاتيكان، وهناك انتابته حمّى شديدة مات على إثرها بعد أيام قليلة. ونصّب بعده كلمنت الخامس 1305. وأنذره الكرادلة بأنه لن يكون آمناً على حياته في روما، فنقل كلمنت كرسي البابوية إلى أفينون القائمة على الضفة الشرقية لنهر الرون، وربما كان ذلك أيضاً بعد أن وصله اقتراح مغر! من فيليب.

بعد تلك الصفعة، يقول ديورانت بدأ عصر "الأسر البابلي" للبابوات ودام ثمانية وستين عاماً، وهو ما شرّع للفكر الأوربي بوّابة عصر النهضة على مصراعيه.

**موسى مايكل آنجلو أسيراً**

زرتُ كنيسة سانت بييترو في روما وطفت أرجاءها باحثا عن تمثال موسى، إحدى روائع مايكل آنجلو التي أنجزها سنة 1515، وبعد طواف على روائع غيرها عثرت عليها أخيرا حبيسة في في ركن من الكنيسة مظلم وموحش. تناهى إلي همس صوت يشكو ظلم الكنيسة: أنا في حبس البابوات منذ خمسة قرون في كنيستهم الخاملة سان بييترو في فينكولا مصفّداً في ركن يضاء بمصباح لدقيقة واحدة كلّما ألقم زائر قطعة نقود في حصّالة. وشكا جحود قومه الذين خلّصهم من نير الفرعون وما من مخلّص له بينهم من نير البابا، قال: كنت أنام ملء جفوني في قطعة من الحجر، ثم قام ساحرهم الكابريسي ليقضّ مضجعي، لقد نغّص بضربات إزميله لذّة الرقاد. كان لا يكلّ من العمل، ينام بضع سويعات عند قدميّ ثمّ ينهض ويتابع ضوضاءه، وكم ساءني أن جعل لي قرونا كالشيطان إذ التبست عليهم كلمة "كاران العبرية" التي وردت في سفر الخروج، وهي تعني الضياء كما تعني القرون أيضا. وقد صوّرني وأنا أحمل لوحي الحجر اللذين كتب الله عليهما وصاياه قبيل كسرهما لمّا رأيت القوم يعبدون العجل. ولمّا فرغ من عمله، ضرب ركبتي اليمنى بسنّ إزميله صائحا بي: (انهض!) وما زال أثر الضربة ماثلا إلى اليوم.

**في إست الحوت**

إذا تمنّى لك أحدهم خيرا في إيطاليا يقول: في إست الحوت، وإذا قال لك في فم الذئب تردّ: يموت الذئب، ويعدّون مسح أنف الخنزير البّري بركة، وكذلك النّقر على الحديد، والنقر على الرأس، ومسح ظهر الأحدب، ويعتقدون أن ربّة الحظّ ستسرّ إذا قفزت في الهواء عندما ترى قسّا، وأن المطر في العرس يعدّ فألا حسنا. ومن أمثالهم اللطيفة قولهم: لا تنظر إلى فم الفرس المهدى إليك لمعرفة سنَه، أي اقبل الهديّة على علاتها. وقولهم: ابذل لهم الإصبع وسيأخذون الذراع. وقولهم: حذار أن تعلّم الفلاّح كيف يطيب الجبن مع الكمّثرى، أي متى عرف الفلاّح طيب الجبن مع الكمّثرى فلن يوصل الفاكهة إلى القصر. وقولهم: عيّر الثور الحمار قائلا: يا ذا القرنين. وقولهم: الأقارب كالأحذية، بقدر ما هي قريبة بقدر ما توجع. وقولهم من فضّل طريقا جديدا على الطريق القديمة، فقد عرف ما ترك وجهل ما اختار. وقولهم: لذ فرارا من فوجيا، لا من فوجيا نفسها، بل من أهل فوجيا. وقولهم: أم المغفّلين حامل على الدوام. وقولهم: فصل مارتن بسبب فاصلة. وقولهم: بين القول والفعل يسكن البحر. وقولهم: لتأمن الجار دع إحدى عينيك مفتوحة، ولا تغمض الأخرى. وقولهم: الحياة كشجرة الكريسماس، هناك دائما من يكسر البيض. وعندما تقع في محنة: يقولون لقد وقعت في باستيشو حقيقية، والباستيشو نوع اللاّزانيا الشعبيّة الكبيرة تعدّها النساء وجبة عشاء في أيّام الآحاد، فإذا نفذت منها قالوا: نفذت من بطن الشيطان.

في المساء الذي وصلنا فيه روما في القطار، خرجنا مثقلين بالأمتعة لنجد صفّا طويلا من العائدين في انتظار سيّارات الأجرة، فاستجبنا لدعوة غريب يهمس: لديّ عربة خاصّة. وعندما أقلّنا سار بنا في عربته المهترئة في طرق خاملة مظلمة، فسألناه وقد بلغ منّا الوجل مبلغا عن اسمه، فقال: جيان كارلو، ثم لذنا بالصمت. خيّل لي للحظة أنّ جيان كارلو ما هو إلاّ الكابتن هوك ذاته، وما عربته سوى السفينة المتداعية في قصّة بيتر بان. أردت أن أتحرّى يده المخبوءة في جيبه، ولكنّنا بحمد الله بلغنا الفندق ، ضاعفت له الأجرة، والتفتّ لصاحبي وقلت: لقد نفذنا من بطن القرصان!

**روميتو لا يكرّر قصائده**

كان لنا موعد مع مدينة كاستل دي سانغرو، وهي لا تبعد كثيرا عن مدينة أوفيد من أجل تناول وجبة عشاء في فندق كازادونّا القريب من سالمونا، كان موعدنا مع السيد نيكو روميتو، ومطعمه الحائز على ثلاث نجمات ميشلن، وحسبك أن تعرف أن إيطاليا، من أقصاها إلى أقصاها، ليس فيها إلا 8 مطاعم قبضت بقوة على هذه النجوم العجيبة.

كان الطريق إلى كاسادونّا خامل الذكر، أو كما في قول أبي الطيّب المتنبي:

**على طرقٍ فيها على الطرق رفعةٌ**

**وفي ذكرها عند الأنيس خمولُ**

فلقد كابدنا عناء طويلا لنتمكن من بلوغ الفندق ومطعمه، فليس هناك من لافتات إرشادية تقودك إليه، وكأن خمول الذكر دبّ فيه فلا يعود بوسعك تجنّب التيه. ولقد شعرت وصاحبي كما لو أننا في مفازة خضراء. وبعد أن تقطّعت بنا السبل، قررنا أن نقف في مركز البلدة الصغيرة، وأرسلوا السائق ليقلّنا.

كان الفندق والمطعم الملحق به ديرا في الأصل يعود إلى القرن السادس عشر، ولقد تمّ تحويله إلى فندق من 6 غرف فحسب على طراز حديث وفسيح بجدران مطليّة بالشمع، وهو صرح فخم يمتاز بإضاءةٍ رائعة في مكان تحفه الجبال المعممة بالثلج والسكينة. أما المطعم فيقع في الدور الأرضي ويشتمل على 8 طاولات فقط، ويسعى السيد نيكو إلى توسيع الفندق دون التفريط بأصالة البناء. فهو لا يريد الانزلاق في تجارية الحرفة، كما يدير في المكان ذاته مدرسة للطبخ، ويزرع في جوار الفندق ما يحتاج إليها مطبخه، كما يعتبر السيد نفسه متخصصا في الفطور.

حدّثني عن مطعمه قائلا: هذه أرضي، وهذا هو المكان الذي ترعرعت وعشت فيه.

المكان تراثي قديم، وكأنه يحملك إلى الماضي أو يحمله إليك. وكان من شأن السيد نيكو أن يدعوك لزيارته واكتشافه، قال: هنا تتقاطع الشخصية مع الهوية ومع التعليم والإبداع والجغرافية والطعام.

نيكو ابن الثور، من مواليد 30 أبريل، يتطلّع ما حوله، ويمدّ بصره عميقا وكأنه يستحضر واقعة قديمة، قبل أن يقول: العمل اليومي عبارة عن بحث شاق، تتخلله الأفكار التي نتبادلها وانتخاب أفضل ما تجود به الأرض مع ضرورة توفّر الأصالة، أي كيف بوسعه أن يرتقي بالأكلات العادية ويرتفع بها لتكون أطباقا تليق بالآلهة.

إنها محاولة لجعل الطبق فريدا شبيها بقصيدة لا يمكنها أن تتكرر أكثر من مرة واحدة، لأن عملية الخلق لا تعيد نفسها بالصورة ذاتها. وهذا ما يجعل زيت الزيتون أو الخل البلسميّ أو اللحمة تتحول إلى نوتات في معزوفة خلّاقة. هنا كلّ شيء بمقدار.

أما مطاعم الثلاث نجوم، فهي في جوهرها محاولة للارتقاء بالأطباق المحلية مع ضرورة التمسّك بالمكونات التي تنتجها البيئة نفسها.

فلكل إقليم هنا عاداته ومواده وموارده، فلا يفكرون باستيراد شيء من خارجه، وإلا يُعد الأمر خروجا على تقليد المطبخ الإيطالي.

ويردف السيد نيكو: هنا مزيج من اللامتوقع والفخر والإصرار على أن يكون لي دور متجدد كل يوم. لذا، تجدني في مطاردة يومية لحلم ما أحاول تحديده أول الأمر قبل أن أقبض عليه.

إذن.. دعوني أقدّم لكم كازادونّا على طريقتي.

**مصير أكيتون**

عندما مثلت أمام تمثال أوفيد في سالمونا وتأملت في وجهه تذكرت الكلمات التي رددها يشكو مرارة المنفى عندما حل في توميس برومانيا: "عوقبت بلا ذنب اقترفت كما عوقب أكيتون". وهنا يذكرنا أوفيد بأسطورة أكيتون التي ساقها في كتابه "التحولات"

في مغارة تقع في أقصى الغابة اعتادت ديانا ربّة الصيد كلما هدها التعب أن تستحمّ من ينبوع هناك، وذات مرة ألقت سهامها وأسلمت قوسها لحوريات الينبوع، وما أن خلعت ثيابها حتى رحن يغترفن الماء ويسكبنه عليها من جرارهن الطافحة، إذ أقبل آكيتون حفيد قدموس يدفعه قدره إلى المكان المحتوم. ولم يكد يطأ بقدمه هذا المنعزل حتى تصايحت الحوريات وقد لمحن رجلا غريبا، فالتففن من حول ديانا ليقمن لها من أجسادهن ترساً. وإذ لم تسعفها القوس ولا السهام فقد رشقت الغريب بالماء وهي تقول: إذهب، إن استطعت وخبرهم بأنك رأيتني عارية. وسرعان ما أنبتت رشقات الماء في الرأس المبلل قرنين، وأطالت عنقه ودببّت طرفي أذنه، فأحالت الفتى وعلا شديد الهلع، فرّ يصرخ: ما أشقاني، ولكن لم تخرج من فمه أية كلمة. وإذ لا يمكنه العودة إلى القصر فكّر في الاختباء في الغابة. إذ ذاك لمحته كلاب صيده فانقضّت عليه وراحت تطارده متلهفة على الفريسة. أراد ان يصرخ: أنا آكيتون، تذكري سيّدك" غير أن الكلمات لم تعد طوع إرادته. وما أن أدركته الكلاب حتى مزّقته إرباً.

**روما الجمال العظيم**

روما مدينة يحج إليها عشاق الفنون من أركان الأرض، وروما صانعة المخرجين العظام ولها صور شتى في السينما، ولقد دخلت وصاحبي روما في ركب حجاجها، فليني يناولك بيده اليمنى شهادة خلوده "الحياة الحلوة"/لادولتشفيتا، وباليد الأخرى رائعته "روما". أنطنيوني يتحفك بفلمه "الكسوف" ، وفيرت ميللر تدعوك إلى "جنوح" في المتوسط، وبازوليني يأخذك إلى أعجوبته "ماما روما". لكن وودي آلن الذي تألق في فلميه عن برشلونة وباريس ها هو يخفق في "روما"، بعد عامين فقط باولو سورنتينو سيعيد إلى روما "الجمال العظيم". وها هو "بن هور" الفيلم الفاره عن الإمبراطورية الرومانية الذي أخرجه وليم ويلر سنة 1959 وحصد 11 أوسكاراً في سابقة لم تتكرر في تاريخ السينما إلا مرتين بعد هذا التاريخ مع "تايتانيك" 1997، و"عودة الملك" من سلسلة "ملك الخواتم" 2003.

وفي روما شدني الحنين إلى كاس بطلة فيلم شاهدته قبل زمن بعيد في لوس أنجليس عن حياة الشاعر تشارلز بوكوفسكي. ففي تلك الفترة التي صور فيها الفيلم مطلع الثمانينات كنت طالبا في الجامعة وكان بوكوفسكي نفسه مازال يتسكع في الأزقة والشوارع الخلفية وفي الوجه الآخر لمدينة السينما والشعر والفن. الفيلم هو "حكاية جنون عادي" أدت فيه دور البطولة فاتنة روما المدللة أورنيلا موتي، في دور كاس فتاة الليل التي تقاطع مصيرها في الضياع مع مصير الشاعر البوهيمي بوكوفسكي. إن براعتها في أداء الدور إنما تتحدر من تراث روما الذي تشربته هذه الفاتنة، والفيلم أخرجته قريحة ماركو فيريري ولعب دور بوكوفسكي في فيه الممثل بن غازارا الذي تقمص بوهيمية الشاعر، إلى درجة أنه أحل صورته مكان صورة بوكوفسكي في خيالنا. فلم نعد نميز هذا من ذاك

مع "حكاية جنون عادي" توقفنا عند البطلة والبطل والمخرج. بقي ما لا يمكن العبور عنه وأعني به موسيقى الفيلم التي وضعها الفرنسي فيليب ساردي. كمولع بالموسيقى التصويرية للأفلام، كلما تذكرت هذا اللحن ردني إلى ذكريات لوس أنجليس وإلى كاس أورنيلا موتي.

**الفصل الحادي عشر:**

**كابري**

**صخرة كابري ومكائد الميناء**

في أوبته من باليرمو، كادت سفينة غوته أن تتحطم على صخور كابري وتغرق، زرتها من أجل أن ألمّ ببعض عطورها التي تصنّع مما ينبت فيها وحولها من زهور وأعشاب. كان الوقت شتاءً، بدت لنا كابري وهي صخرة على الحافة الجنوبية من خليج نابولي لا حياة فيها.

ووفقاً للمسوح الجغرافية والجيولوجية التي أجريت على الجزيرة، عُرف أنها كانت مدينة مأهولة بالسكان منذ عصور مبكرة، وتم اكتشاف عظام عملاقة منذ الحقبة الرومانية لحيوانات من بيئات مختلفة وأسلحة حجرية استعملها الإنسان الأول الذي استوطنها. وكان ذلك أثناء حفر أسس فيلّا أغسطس، وقد أمر الإمبراطور بأن يتم عرضها في الحديقة الرئيسية بمنزله.

لقد اجتهد الإمبراطور أغسطس في تطوير كابري وتأهيلها، فبنى المعابد والفيلّات والقنوات، وشجّر ساحاتها لتصبح جنته الخاصة. ثمّ قام تيبريوس خليفته ببناء العديد من الفيلّات في كابري وأشهرها فيلّا جوفيس، التي تعدّ إحدى أفضل الفيلّات الرومانية التي لا تزال باقية حتى الآن. كما نقل مقر إقامته إلى كابري عام 27 ميلادية وحكم إمبراطوريته منها حتى وفاته عام 37 للميلاد.  
لم يكن في ذلك الشتاء مزار متاح سوى فيللا سانت ميشيل، وهي على بعد خمس دقائق فحسب من وسط الجزيرة.  
في ما بعد عرفت أنها فيلّا الطبيب السويدي أكسل مونتي، وهي من الفيلّات التي يختلف معمارها ومحتوياتها بسبب أنها كانت منزلا للطبيب، ولقد أضفى عليها الكثير من روحه، ووزّع مجموعته الخاصة من القطع الأثرية الرومانية والمصرية في الحديقة وأرجاء المنزل، وهي موجودات ثمينة ونادرة.

بعد تجوال في الفيلّا، وعندما أوشكت على الخروج اقتنيت كتابا باللغة الإنجليزيّة من تأليف صاحب المنزل، ثم وقع بصري بغتة على طبعة عربية للرحلة محفوظاً في خزانة مقفلة، في كان الليل يرخي سدوله في سورينتينو عندما شرعت وصاحبي في تصفح كتاب أكسل مونتي وكان بمثابة سيرة ذاتية عن تجربته كطبيب عاصر الحرب العالمية الأولى وشهد فصولا من ويلاتها كما تحكي اليوميات قصة انتقاله للسكن في الجزيرة. أدركت على الفور أننا اكتشفنا تحفة أصفى في جمالها من عين الديك.

لاحقاً وفي زيارة أخرى مع صاحبي إلى نابولي عقدنا العزم على أن نعيد الكرّة ونزور كابري ثانية للقبض على النسخة العربيّة من اليوميات، حاولنا في اليوم الأول، وكانت الفوضى في ميناء نابولي عارمة، والبحر هائجا، والعاملون في مكاتب الحجز لا يحسنون التحدّث بغير الإيطاليّة، وزد على ذلك أنّ الفتى العربي في نابولي غريب الوجه واليد واللسان.

علمنا بعد مشقّة من الإدارة أن آخر سفينة ستغادر بعد الساعة الخامسة عصراً، ولكن لن يتسنّى لها أن تعود في اليوم نفسه، فعدنا أدراجنا إلى الفندق.

وفي اليوم التالي ذهبنا مبكّرين إلى الميناء، وبينما نحن ننظر رأيت طفلا صغيرا يقلّب بين يديه قطعة حلوى، فأخذت له صورة، واكتشفتُ أن أمه كانت تدفعه إليّ، ولم أكن أعلم أنني موشك على الوقوع في فخ كانت حبائله نسجت خفية، فما أن شكرت الأم على سماحها لي بتصوير ابنها حتى بادرتني قائلة: لو تتكرم على الطفل بمبلغ من المال، فتناولت ورقة نقدية ودسستها في يده.

وما هي إلا برهة حتى خرج أطفال تقاطروا نحوي من أماكن شتى وتحلّقوا بأيدٍ ممدودة من حولي، فشعرت بحرج شديد، وبينما كنت أكابد الأمر وإذا بي بمارد أسود طويل كقطعة من الليل، قدماه ثابتتان في الأرض ورأسه يطاول سماء نابولي، وكان بائعا جوّالا يحمل بضائع رخيصة من المسابح وأساور الجلد وأطواق للشعر، فتذكرت قول أبي العلاء:

**ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان**

ثم صار يحدّثني بمزيج من اللغات ليدرك إلى أي البلاد أنتمي، فسأل: من أين انت؟

قلت في محاولة للهرب: من مصر، قال: أهلاوي، ولاّ زملكاوي؟ فحدستُ أن الشبكة تكاد تُطبق عليّ من قبل مجموعة من الشحاذين الذين من فرط براعتهم جعلوني أستعيد ما كتبه الحريري والهمذاني عن حيلهم، وتذكّرت صديقي الإماراتي الوزير الذي ذهب للصلاة في مسجد في عاصمة عربية، فلمّا فرغ ناول أحدهم ورقة من فئة العشرة دولار، فهوت إليه الأفئدة، وتسابقت الأقدام، ومدّت له الأيدي، كان أحد الرفاق يشاهد الوزير وقد ولّى مذعورا من زحمة الناس، وسمع صوت أحدهم يقول: بلهجتهم المحليّة ما معناه (إلحق الأقرع الذي يوزع دولارات)، فقلتُ لصاحبي، لنكتفِ هذا اليوم من الغنيمة بالإياب، وعدنا أدراجنا قبل أن تطبق علينا مكيدة النابوليتانيين.

**الجزيرة العائمة**

أخيراً، زرت ولفيف من الأصحاب كابري، استطعنا أن ننفذ من فوضى إدارة الميناء وحصلنا على البطاقات، واستقلينا السفينة في رحلة استغرقت نحو 50 دقيقة. على يسارك وأنت تقصد كابري، سيكون بوسعك أن تلمح سورينتو التي تشتهر بأفخر ليمون في العالم. وعندما بلغنا كابري نهضت في مخيّلتي لحظة وصول أكسل مونتي إليها. ورحت أستعيد النص.

استقلينا سيارات أجرة من الضرب الذي لن تجد له شبيها في كل حياتك حتى لو امتد بك العمر أبدية كاملة، فهي أقرب للحمار منها الى السيارة، وكأنها مصنّعة يدويا في ورشة تعود إلى ما قبل عصر النهضة. سألنا السائق ان يقلّنا إلى فيلا سانت ميشيل. دخلت الفيلا بوجل يليق بأكسل مونتي وبسعادة غامرة، لأنني بلغت المكان هذه المرة وأنا أحمل الكتاب بيميني بعد أن أخذته بقوة، والترجمة للشاعر علي كنعان. وإلى ذلك كنت أحمل تطبيقا على هاتفي الذي يضم المكتبة الرقمية للرحلات التي صدرت ورقيا في مشروع "ارتياد الآفاق"

كنت في هذه المرة أحمل مونتي في قلبي ووعي مقدراً الأثر الذي تركه لي وفي، شعرت وكأنه كان ينتظر أن يتعقّبه كائن ما بعد حبل مديد من السنوات ليتمكن من الإلمام بدقائقه ولحظاته، ولقد منحت الرجل الوقت وتحلّيت بالصبر والدأب وقصدته إلى حيث كان يقيم، أقمت مقاربات كثيرة مع موضوعاته، فالرجل خلّد كابري كما لم يخلدها غيره، وعلى الرغم من أنها كانت موضوعا اشتركت في كشف مكنوناته عشرات المشاريع سواء على مستوى الكتابة أو السينما أو الأفلام التسجيلية.

وأمام تمثال لأبي الهول، بدا لي وكأن سؤاله الأبدي مازال معلّقا على شفتيه، نحن الذين كان علينا أن نرتاد المكان بقلوب ترى ما تريد، فسجّلت بالفيديو سردا لأجزاء من الرحلة.

ثم أتممت الجولة في البيت حتى انتهى بي المطاف في المكتبة التي سبق لي وأن رأيت فيها قبل سنوات طبعة عربية من الكتاب.

طلبت من قيّم المكتبة أن يزودني بتلك الطبعة، فتردد أول الأمر، ولما عرضت عليهم العمل والتطبيق باللغتين العربية والإنجليزية، شعروا أنني بذلت من الجهد ما استحق عليه أن أُجاب إلى طلبي، ويُفتح باب الخزانة من أجلي، فجاءوا برزمة من المفاتيح، وأخذوا يستعرضون تجريبها واحدا بعد الآخر بحذر من سيطلق كائناً طال حبسه.

فتح باب الخزنة وهبت رائحة ورق قديم أخرج الرحل الكتاب وناولني إياه، فحملته برفق كمن يحملا كنزا. كانت ترجمة الكتاب أقرب إلى ترجمات حقبة الثلاثينيات التي تعتمد على قوالب لغوية جاهزة.

أما كابري فهي أشبه بسفينة رست قبالة نابولي بعدما جرفها الحراك القاري حتى بلغت هذا المكان واستقرت فيه، فقد وصلت إلى هنا من مكان ما، لا يمتّ جيولوجيا بصلة إلى محيطها، لا سيما أنهم وجدوا أحافير تعود إلى حيوان وحيد القرن، وعظام فيلة ونباتات من فصائل لا تنمو في البيئة الإيطالية.

إنها مدينة عائمة كانت تمخر عباب الأرض بصفيحة تكتونية ضالة اهتدت إلى نابولي وتوقفت كما يتوقف عقرب الساعة، حدث ذلك قبل حوالي 200 مليون سنة، لو كنا قصدناها في سحيق الزمن ذاك، لربّما كانت في مكان آخر، ولم تهتدِ بعد إلى سواحل نابولي.

نزلنا من كابري سيراً على الأقدام لنستمتع بالتضاريس والمعالم التي جعلت أكسل مونتي من قبل مفتونا ومهجوسا بهذه المدينة المبحرة، ولكي نتجنّب تاكسي العصور الوسطى.

ركبنا السفينة التي أبحرت في وقتها، وعندما حان موعد العشاء، قصدنا روميو وهو مطعم لطيف اسمه وحده كان كافياً ليحيل رحلتنا إلى ما يشبه محاولة لاسترداد جولييت التي دفعني إلى اكتشافها كتاب مونتي.

**إلى التيبر يا تيبريوس**

كان أغسطس يأمل أن يكون أجريبا خليفته في الحكم فزوّجه ابنته جوليا، ولمّا قضى هذا الدافنشي العظيم قبل الأوان أمر أغسطس أحنك قادته تيبيريوس وكان طويل القامة شديد البأس، وسيم الملامح بأن يطلق زوجته الحبيبة فيبسانيا ليزوجه ابنته الفاجرة جوليا وقد باتت أرملة وهو ما كان. فلما توج تيبيريوس أمبراطورا كان قد بلغ الخامسة والخمسين. في السنوات التسع الأخيرة، أوى إلى كابري ليدير منها إمبراطورية مترامية الأطراف. ما السبب الذي دفعه إلى هذا الأمر؟ أهي ليفيا أمه التي تشعر أن تدبيرها هو الذي هيأ له السبيل لاعتلاء العرش، والتي أفهمته أنه إنما يتولاه بوصفه ممثلاً لها لا أكثر، وكانت رسائله الرسمية في سني حكمه الأولى تحمل توقيعه وتوقيعها معاً؟ أما جوليا التي اتّهم فيما بعد أنه أماتها من الجوع بسبب تهتكها ولا مبالاتها. أما سجانوس أكثر الناس وفاء له، وقد جعله رسولا بينه وبين مجلس الشيوخ ولكنه دبّر مؤامرة للإطاحة بالإمبراطور انتهت بإعدامه خنقا. ثم أعقبت ذلك فترة من حكم الإرهاب وتولى قيادتها أحياناً شيوخ أضر سجانوس بمصالحهم، أو آذى أقاربهم وأصدقاءهم، وأحياناً أخرى تولاها تيبيريوس نفسه. ودفعه الخوف والغضب، اللذان استوليا عليهِ بعد أن زال عن عينيه ما كان يغشاها من خداع، إلى سورة جنونية من الانتقام. وفي هذه الفترة قتل كل إنسان ذي خطر عاون سجانوس أو كانت لديه يد في تنفيذ أغراضه، ولم تنجُ من القتل ابنته الصغيرة نفسها. وإذا كان القانون يحرم قتل العذارى فقد فضت بكارتها قبل خنقها؛ وانتحرت مطلقته أبكاتا Apicata، ولكنها أرسلت قبل انتحارها خطاباً إلى تيبيريوس تبلغه فيهِ أن ليفلا Livilla ابنة أنطونيا قد اشتركت مع سجانوس في تسميم زوجها دروسس ابن الإمبراطور، فما كان من تيبيريوس إلا أن أمر بمحاكمة ليفلا، ولكنها امتنعت عن الطعام حتى ماتت. عاش تيبيريوس ستة أعوام بعد سقوط سجانوس، وأكبر الظن أنه أصيب وقتئذ بخبل في عقله. وبغير هذا الافتراض لا نستطيع أن نفسر ما يعزى إليه من أعمال القسوة التي لا يصدقها عقل. وفي عام 37 غادر تيبيريوس كابري، بعد تسع سنين من الاعتكاف، وطاف ببعض مدن كمبانيا، وبينما كان يستريح في فيللا لوكلس في ميسينوم انتابته نوبة إغماء وخيل إلى من حوله أنه قضى نحبه. التفّت بطانته من فورها حول غايوس الذي سيصبح في ظنها إمبراطوراً بعد قليل، ولكنهم روّعوا حين رأوا تيبيريوس يعود من إغماءته. ثم أنقذهم من هذه الورطة صديق لهم بأن كتم أنفاسه بوسادة. يصفه المؤرخ ثيودور ممسن Mommsen بقوله إنه كان "أقدر حاكم شهدته الإمبراطورية". وقد حلت به في حياته كل الكوارث التي يمكن أن تحل بإنسان إلا القليل النادر منها، وحتى بعد وفاته لم ينج من قلم المؤرخ **غايوس** تاسيتس. واحتفل الشعب بموت الإمبراطور الشيخ بهتافه: "إلى التيبر يا تيبريوس"!

**أم الرومان**

مونولوع تيبيريوس

أم الرومان، أسميتها كذلك، ليحمل كل مواطن روماني نصيبا من العار الذّي جللّني به أبوها، الإمبراطور أغسطس. قال عنها: "أحبها كما أحب بلادي". وما شأني، أنا تيبريوس، أن يطلّقني من زوجتي الحبيبة فيبسانيا، ويزّوجني لقاء كرسي الإمبراطوريّة، بهذه الإبنة الداعرة الفاجرة التي ما تنفكّ عن مطاردة الرجال، حتى صار العامّة يقولون: إن شعرة واحدة من عانة أمنّا جوليا تشدّ ما لا يقوى على شدّه قطيع من الثيران.

ليت جوبيتر أهلكها في الطوفان الذي كاد يأخذها عند اسبارطة، عندما راحت تطارد زوجها الثاني أجريبا - والد زوجتي فيبسانيا - حيثما حلّ.

كان أغسطس يعدّني للحكم بعده، بينما راح عشيقها سيمبرونيوس يعدّ لها المخدع. ولمّا ذاع أمر فجورها، غمّ الأب، فراح يصدر القوانين لحفظ قيم الأسرة الرومانيّة! هلاّ حفظت ابنتك؟

ثمّ نفاها إلى جزيرة فينتوتيني الصغيرة بعيدا عن متناول الرجال، ومنع عنها الزّوار، سوى أمها سكريبونيا التى رافقتها في المهجر. ثمّ نفى العشّاق واحدا إثر الآخر، وعلى رأسهم عشيقها الساقط سيمبرونيوس. وأمّا أولّوس، ابن خصمه مارك أنطونيوس، الذي ظهر يعبّ معها الخمر في منتدى روما على مرأى من الناس ومسمع، فقد أرغمه على الانتحار. وطال الشكّ شباب روما وشيوخها، ثمّ أن أغسطس عفا عنها، ولكّنه أوصى أن لا تدفن في مقابر الأسرة، ثمّ نفق.

ولمّا آل إليّ الأمر، رجموا بأنّني أجعتها حتّى الموت، وقالوا أرسلت في قتل سيمبرونيوس في منفاه في أفريقيا. ها أنذا أدبّر أمر الإمبراطوريّة من على هذه الصخرة "كابري"، بعيدا عن العاصمة حتى لا ترى روما ولا أهلها هذا الوجه الصارم الأسود الكظيم.

**أكسل مونتي والطيف**

أقف في المكان نفسه الذي تجلّىّ فيه الطيف مخاطبا أكسل مونتي: "سيكون لك هذا المكان كلّه، فاردا ذراعيه على مداهما، المعبد والحديقة والمنزل والجبل وقلعته، إن كان بمقدورك دفع الثمن.

سأل أكسل: من أنت، أيها الطيف الذي لا يكاد يرى؟ أجاب: أنا الروح التي تحرس المكان، ولا تطالني يد الزمن، فقبل ألفي سنة وقف رجل مثلك ذات مرّة هنا في ذات المكان، قادته المقادير إليّ كما قادتك، ولم يسألني سوى السلوّ والأمان على أن يظفر بهما في هذه الجزيرة الصغيرة. فأجبته بأن ثمن ذلك هو وصم اسمه بالعار على مدى الدهر. فقبل هذا العقد ودفع الثمن؛ وأقام إحدى عشرة سنة هنا مع ثلّة من الرفاق.

 أجل، حاول أن يفارق المكان مرتين لائذا بقصره فوق تلّ البلاتين في روما، ولكن الشجاعة خذلته فعاد ولم ير روما بعدها. قضى في رحلة العودة في منزل صديق يدعى لوكلوس، وكانت وصيته أن يحمل جثمانه إلى هذه الجزيرة.

أمام هذا الباب سأل أكسل الطيف قائلا: "وما الثمن الذي علىّ أن أدفعه للظفر بالسعادة على هذه الجزيرة؟" فأجابه: "أن تتخلى عن طموح الطبيب فيك وتنبذ المستقبل. سترى فوق هذه الصخرة صباحات تشرق بأبهى الشموس وليالي تطالعك فيها أجمل الأقمار، وسأضمن لك الخلود كما ضمنته لتبريوس. ولكن قبيل موتك ستدفع ضريبة أخرى"! ما هي؟ سأل أكسل؟ ضوء عينيك، أجاب الطيف. وعندما سأل أكسل الطيف عمّا إذا كان سيموت هنا، أجابه بقوله: "حذار من هذا السؤال! فلو أعلمتك بساعة موتك لنغَّصت عليك عيشك، ولن تحتمل وطأة الحياة".

ثم ربت على كتف أكسل فسرت في جسده قشعريرة. وغاب الطيف حالما وافق أكسل على ذاك العرض، وبلا تردد قبل الصفقة.

**البابا الكورتوزي وعطوره**

 ورد ذلك في الأسطورة، أو هكذا سيتعين عليّ القول لأن ما حدث حركته أصابع الروايات التي تواترت عن المشهد حتى رفعته في نهاية الأمر إلى مرتبة الأسطورة. فلقد ورد أن أحد الآباء في دير سانت جياكومو الكرتوزي توفر على أنباء تفيد بوصول جيوفانا دي أنجيو ملكة نابولي (1300م) إلى جزيرة كابري. فقام من فوره وقطف طائفة من الزهور المنتشرة في الجزيرة كزنبق الوادي والقرنفل البريّ وزهور الآيلنج وقلمين من الصندل، ثم جعلها في وعاء خزفي.

مكثت الأزهار نحو ثلاثة أيام مغمورة في الماء حتى تحللّت، وتسلل إلى الماء زيتها، وعندما أراد التخلص منها شدّه ما صار عليه الماء، فلقد كانت تنبعث منه رائحة زكية لم يعهدها من قبل.

أخذ النقيع وقصد به الكيميائي الذي قام من فوره بتتبع أصل العطر وتقطير مكوناته واستخراج زيوته الكثيفة، حتى انتهى إلى العطر الشهير "فيوري دي كابري" فأصبح هذا النقيع الذي توصل إليه الأب الكرتوزي مصادفة أول عطور جزيرة كابري.

**الفصل الثاني عشر:**

**بومبي**

**مدينة تبعث من جديد:**

**بومبي ورأس الميدوزا**

ما أن بلغنا بومبي حتى داهمتنا السماء بزخّات من المطر الغزير، الأمر الذي نغّص علينا متعة التّجوال في المدينة التي فوجئنا بحجمها الضخم وهي تخرج من تحت الأنقاض.

لم تكترث بومبي كثيرا بالزلزال الذي قوّض بعض مبانيها عام 62م، وراحت تضمّد جراحاتها وتصلح من هيأتها حتّى عاد نبض الحياة الطبيعيّ في سكّانها ومعابدها وأسواقها ومرافقها الأخرى.

في صبيحة الرابع والعشرين من أغسطس عام 79م، أفاقت بومبي على نسائم صيف شرقيّة عليلة تهبّ عليها من فيزوفيوس، وكانت قد ألفت زفير العملاق وسعاله، وما إن جاوزت الساعة منتصف النهار بقليل حتّى انفجر صدر البركان كالرعد باعثا بحممه وصخوره المنصهرة بارتفاع 20 ألف متر إلى قبّة السماء، وسرعان ما بلغ زبد موجها المدينة في دقائق وهي تسبح بسرعة مائة كيلومتر في الساعة. وقد شبّهها المؤرخ بلينيو الأصغر، عندما رآها، بمظلّة عملاقة كشجرة الصنوبر.

داهمت الحمم البركانيّة، والغازات السّامة المدينة الساحليّة وهي في أوج نشاطها؛ وجمّد فيزوفيوس، كرأس ميدوزا جبّار ظهر بغتة، سكّانها العشرين ألفا وهم في حالة من الصرع والذهول في صور شتّى. ولم ينقشع ليل المشهد الذي دام يومين حتى كانت المدينة بأكملها تحت غلاف من الحمم والرماد بلغ ارتفاعه عشرين ذراعا.

قال الوثنيّون: إن جوبيتر قد صبّ جام غضبه على بومبي؛ وقالت الأقليّة اليهودية: نالها ما نال سدوم وعمورة من البطش؛ وقال المسيحيّون: انظروا إلى الإمبراطور إنّه طغى؛ ولو كان المسلمون قد أبصروا النور لما فاتهم أن ينسبوا ذلك لفسق بومبي وفجورها أو يقولون: "كذلك يأخذ الله القرى وهي ظالمة". وطال المدينة سبات تجاوز خمسة عشر قرنا من الزمان، ثمّ بعثت من جديد.

منذ عام 1748 بدأ التنقيب المنّظم لعلم الآثار عن المدينة التي دلّت عليها بعض الاكتشافات السابقة. وعندما عرض متحف نابولي بعض آثار بومبي أثناء زيارة الملك فرانسس، ملك نابولى وزوجته وابنته عام 1819 وشاهد الزوار الملكيون صور الفحشاء والأدوات الجنسيّة التي ضمّها الجناح أمر الملك بأن تحجب عن الجمهور. وما زالت الغرفة 65 من متحف نابولي الدولي للآثار غير مصرَّح بدخولها إلا بإذن مسبق.

واليوم يخيّل للزائر أن المدينة قد بعثت من جديد، فها هو المحامي تيرينتيوس وزوجه على وشك البوح لك بشيء، وفيللاّ الأسرار ما زالت تحتفظ في غرفها الحمراء بطقوس باخوسيّة تصوّرها الجداريّات الجصيّة التي تبعث فيك الحمّى، والأفران تستعدّ لتقديم خبز وجبة الغداء، ورفاق الحديقة الذين لفّهم عناق أبدي، وبريابوس ذاك الذي برز مفاخرا بعضوه الضخم في الميزان، وجوليا الأرستقراطية الثريّة تستقبل الزوّار في قصرها الذي حوّلته بعد الزلزال إلى سوق وحمّام فاره. وقصر فاون المهيب الذي يستقبلك الإله على عتبة بابه، وليس أخيرا أشهر دور البغاء الثلاثين المنتشرة بتسعيراتها المتباينة تستقبل العملاء وتودّعهم.

في الثاني من مارس عام 1787 تسلّق الشاعر الكبير غوته قمّة فيزوفيوس وعبر مشيا موضع الحمم المقذوفة قبيل سنوات وكاد أن يعرّض نفسه للموت، إذ سعل البركان ملقيا بعض الأتربة والدخان المتصاعد، واليوم ينام البركان ملء جفونه بعد أن أقلع عن الدخان والسعال. ولكن العلماء يؤكدون بأن لفيزوفيوس صحوة ربّما تكون قريبة سيكرّر فيها الدمار القديم نفسه الذي شهدته بومبي وما يحيطها من ضواحي جديدة نشأت، وسيردد المسلمون الذين لم يعلموا من خبر بومبي شيئا مع إخوانهم من سائر الملل والنحل: كذلك يأخذ الله القرى وهي ظالمة.

**الفصل الثالث عشر:**

**نابولي**

**السي والهاي سي**

الغناء الأوبرالي ضرب من السير على حبل مشدود في سموات على، أو غوص عميق في طبقات وسطى، فعند الرجال يصدح التينور، وهو يرتقي بالسامع إلى الأوكتاف الخامس، وعند النساء تحلق السوبرانو إلى الأوكتاف السادس وما فوق، في سماء ترتفع على سماء التينور، وأمّا الباص فهو أشبه ما يكون برحلة للصوت تشبه رحلة الملاّح خارون، ذاك الذي ينحدر بك إلى الأوكتاف الثاني، حيث عالم لا نظير له في الأساطير سوى عالم هاديس السفلى.

والمغنّون في هذه الطبقات يعلمون جيّدا أن الجمهور العارف يتربّص بمن تدور عليه الدائرة، ويكافئون المغنين إذا ما بلغوا النوتة المبتغاة بعاصفة من التصفيق، فينال الأخيرون الأجور السنيّة، خصوصا إذا ما بلغوا الشهرة، وقد يدفعون حياتهم الفنية ثمنا، أو الموت كمدا إذا هم أخفقوا على خشبة المسرح في بلوغ هذا الشأو الرفيع.

يحتاج مغنّي الأوبرا إلى قوّة في الصدر ونقاء في الحنجرة، وهو ما يؤثر بدوره على الرئة وأجهزة الدورة الدمويّة. والمغنّون الذين لا تسعفهم التقنية والبراعة، غالبا ما ينتهون نهاية مفجعة. ففي سنة 1831 بينما كان أمريكو سبيجولي يؤدي دوره في أوبرا لدونزيللّي على خشبة مسرح باسيني في روما، وبينما كان يحاول البلوغ بحنجرة ملأى إلى تلك النوتة الشهيرة المطلوبة في جملته الموسيقيّة، إذ بشريان رقبته ينفجر ويخرّ صريعا أمام الجمهور المذعور.

أمّا أدولفي نورّيت الفنّان البارع، والممثّل القدير في آن، فقد كان في أوج مجده، عندما كان يؤدي دور آرنولد الأثير لديه من أوبرا وليم تل، عندما صدح في إحدى الأغنيات ليطال تلك النوتة المشؤومة – سي الأوكتاف الخامس-، فأخفق، وكان من بين الحضور - لسوء حظّه - الفنّان روزيني الذي شبّه صوت الفنّان المخفق بصياح ديك مخصيّ، وأدرك نورّيت أن عليه أن يعتزل الغناء، ففسخ عقده مع دار الأوبرا، ولاذ هربا إلى نابولي، ولكن آرنولد أو الديك المخصيّ ظل يلاحقه حتّى لقي حتفه بعد عامين، بأن ألقى بنفسه من شرفة شقّته في الطابق الثالث بنابولي.

هناك الكثير ممّا يقال عن اعتزال معجزة الغناء في القرن العشرين ماريّا كالاس، ولكن أغلب الظنّ هو ذاك الأداء الباهت المتلفز في خريف عام 1974، وكان آخر ظهور لها في سابورو عاصمة الشمال اليابانيّ، والذي ظلّ هاجسها الشاغل حتّى آثرت أن تنام نومتها الأبديّة في شقّتها الباريسيّة في السادس عشر من سبتمبر عام 1977، على إثر الإفراط في تناول العقارات وهي لم تتجاوز الرابعة والخمسين من العمر.

**رؤيا كاروزو**

**صوت المغني وقلم المسافر**

حدث ذلك صباحاً في يوم أربعاء، عندما استيقظت في نحو الساعة الخامسة، وأنا أشعر بسريري يتأرجح كما يتأرجح الفلك في اليم. ولبرهة حدست أنني أشق الماء في طريقي إلى بلادي الجميلة. هرعت إلى النافذة وأزحت الستارة على عجل بيد مرتعشة، اقشعرّ بدني فزعاً، فلقد كانت مباني سان فرانسيسكو تتداعى، ثم تتهاوى كعلب الكبريت، كبيوت الرمل تذروها الريح.

أجزاء هائلة تتصدع وتسقط، ثم تعقبها صيحات الرجال والنساء والأطفال. مكثت صامتاً ثواني معدودات، ولوهلة خلت أن ما حدث محض كابوس. ولكن غرفتي التي لم تكف عن التأرجح قادتني إلى تصديق هذا المشهد المروع، الثواني القليلة كانت كافية ليندفع إلى ذاكرتي أربعون ألف مشهد.

كل ما فعلته طوال حياتي صار يواجهني الآن، أشياء هامة وأخرى تافهة، فكرت بأول ظهور لي في الأوبرا، وفي اللحظة ذاتها استعدت عرض كارمن الذي كان في الليلة السابقة وحسب.

استجمعت قواي واستدعيت خادمي، الذي وصل مسرعاً بثبات وهدوء وبصوت لم ينل منه الفزع قال: لا شيء هناك. ثم نصحني بارتداء ملابسي والخروج إلى الخلاء خشية أن يتداعى الفندق ونصبح من أنقاضه. وفي هذه الأثناء أخذ طلاء السقف ودعائمه ينهال على هيئة وابل من الغبار يغطي السرير والسجادة والأثاث برمته.

ناولني الخادم الملابس التي جعلني هول الصدمة لا أعرف ما هي، فارتديت بنطالين معاً ومعطفاً، وشددت الجوارب على قدمي ولبست الحذاء بينما جعلني ارتجاف الغرفة أقفز بتوتر فادح من مكان إلى آخر.  وطوال الوقت كنا نسمع انهيار البنايات وصراخ الجموع الفزعة. ركضت إلى أسفل السلم، ومن ثم إلى الشارع.

عاد خادمي، وهو فتىً شجاع، وحزم أشيائي في حقائب كبيرة وجرّها ست درجات إلى أسفل السلم، ثم أخذ يخرجها إلى الخلاء واحدة بعد أخرى.

تجمع بعض السابلة، وقصدني رجل منهم حاول أن يستولي على حقائبي مدعياً أنها له، وأنا أؤكد أنها لي، ولكنه لا يبرح مكانه، ثم اقترب منا شرطيّ فبادرته قائلاً: أن هذا الرجل يريد الاستيلاء على حقائبي وإنني كاروزو، الفنان الذي غنى في مدينتكم الليلة السابقة في أوبرا كارمن. فتذكرني وأبدى عناية بأمتعتي وحقائبي وجعل الرجل يغادر وهو لا يلوي على شيء.

أفضى بنا الطريق إلى ميدان يونيون وهناك رأيت بعضاً من معارفي، أخبرني أحدهم أنه فقد كل شيء ما عدا صوته، ثم شكر الله أنه خرج من المأساة بصوته ولم يتركه خلفه كما فعل مع أمتعته. وحاول أحدهم إرشادي إلى منزل ما زال قائماً، فقلت إنه لم يعد آمناً، وإن كان هناك ما هو آمن حقاً فلن يكون غير الميدان. وأنا أفضل المكوث في مكان لا أخشى فيه الموت دفناً تحت ركام المباني المتهاوية.

جلست على الأرض من أجل استراحة قصيرة بينما ذهب خادمي ليعتني بالأمتعة. ومن مكاني رأيت ألسنة النار تطال كل شيء في المدينة الخربة.

تجولت على غير هدى طوال ذلك اليوم، ثم أخبرت الخادم بضرورة أن نغادر ونبتعد من هنا، بيد أن الجنود لم يسمحوا لنا بالمرور، ولم نجد عربة لنقل أمتعتنا، فبتنا ليلتنا تلك على الأرض الجرداء. كانت الأرض سريراً صلباً وقاسياً مما جعلني أكابد آلاماً مبرحة في أطرافي حتى الساعة.

نجح الخادم بإحضار رجل بعربة أكد لنا أنه سيأخذنا إلى حيث عبّارة أوكلاند مقابل مبلغ ما، لم نختلف معه ووافقنا على شرطه، ومن فورنا قمنا بتكديس الأمتعة في العربة وصعدنا، فأخذ الحوذي يسوط الحصان مسرعاً نحو عبّارة أوكلاند.

مررنا بمشاهد فاجعة وبشعة طوال الطريق، مباني مدمّرة وأنقاض وخرائب في كل مكان، والدخان ممزوج بالغبار الذي كان يتصاعد من جميع الأرجاء.

بدا الحوذي كما لو أنه ليس في عجلة من أمره، وهو ما جعلني أشعر بالجزع، فحرصي على العودة إلى نيويورك كان بالغاً إذ كنت أدرك أنني سأجد سفينة تقلني إلى بلدي الجميل إيطاليا حيث زوجتي وأطفالي.

عندما بلغنا أوكلاند أخيراً، وجدنا قطاراً على وشك المغادرة، وبدا العاملون في منتهى التهذيب، فاعتنوا بأمتعتي وقالوا ليس عليّ سوى أن أذهب وأستقل القطار، وهذا ما كنت سعيداً وتواقاً إلى فعله.

بدت الرحلة إلى نيويورك طويلة ومملة، ولم أنم إلا القليل من الوقت، ربما نحو ساعة في كل إغفاءة، فلقد كنت لا أزال تحت وقع الصدمات الفاجعة التي جعلتني أكابد حالة مريرة من الإعياء.

السيّد كاروزو:

ها نحن قد بلغنا بلدك الجميل إيطاليا، بل نحن في مدينتك التي شهدت ميلادك، ونقيم منذ وصولنا في فندق الجراند فيزوفيو، في جناح لا يبعد إلا بضع خطوات من جناحك الأثير الذي كنت فيه تقيم.

عندما سكنت في فندقه في نابولي عرض علي أن أزور جناحه فأعرضت عن ذلك، فعلى الرغم من افتتاني بصوته الفريد الذي قل أن يجود زمان الفن بمثيل له، إلا انني لم أغفر له سلوكه الفاحش في متنزه السنترال بارك في نيويورك، بحق سيدة تتنزه، ولعمري هذا بعض سلوك محدثي النعمة، فلطالما عرفت قدما كاروزو الأزقة البائسة لنابولي وساحاتها، وصدح صوته في فضاءاتها، قبل أن يشق طريقه صعودا مع ظهور الغرامافون الذي حمل هذا الصوت الجهور إلى آذان الناس في أصقاع الأرض.

إن ما جعلني أسكن غرفة فيردي وأحجم عن جناح كاروزو، هو ما تمتع به الأول من نبل ورفعة وروح ثائرة، إلى جانب عبقريته الفنية، وهو ما افتقرت إليه عبقرية الثاني، فظل في سلوكه شيء من مثالب سنوات الفقر وأخلاق الدهماء.

إنما لا يعيب كاروزو عندي أن حياته المبكرة كانت شقية وبائسة، فقد اضطره فقر أسرته أن يشتغل عامل ميكانيك حيناً وحينا في مصنع، وأحياناً ماسح أحذية، إلى أن أصطفت حنجرته فورتونا ربة الحظ، ورفعته إلى مصاف النجوم.

**فيتزجرالدو**

حتى بعد قرن من رحيله ما يزال صوت كاروزو آسرأ وجذاباً وملهما لعشاق فن الأوبرا، فها هو المخرج الألماني العظيم فيرنر هيرتزوغ يرسخ هذا الهوس الطاغي بشخصية كاروزو في فيلم "فيتزجرالدو". والفيلم الذي يعتبر اليوم من كلاسيكيات السينما العالمية يروي قصة تاجر المطاط فيتزجرالدو الذي أراد أن يرد الجميل لسكان الأمازون في البيرو بأن يهبهم متعة سماع صوت كاروزو، ولأجل هذه تحقيق الغاية طفق يبحث عن طريقة لبناء مسرح للأوبرا في الادغال.

كان على فيتزجارلدو التغلب على تحديات كبرى، سأتركها ذكر وقائعها لمشاهدي الفيلم، فلا أفسد عليهم المفاجآت. ولكن لابد من الإشارة هنا إلى التحديات التي واجهها طاقم الفيلم، فنتيجة الظروف الصعبة للتصوير وما صاحبها من أمطار لم تنقطع تعرض الممثل الأول للدزنطاريا ونقل إلى المشفى للعلاج، وقضى بعض العاملين في الفيلم من سكان المنطقة نحبهم.

أسند المخرج دور البطولة للمثل البولوني الأشهر كلاوس كينسكي الذي ضاق بدوره ذرعا من الظروف القاسية والغريبة، وشكا سوء التغذية بسبب شح وجبات الغداء، وهدد بترك العمل مرارا، ولكن مخرج الفيلم وفريقه من الأهالي هددوه بالقتل، فانصاع. فيتزجرالدوعمل سينمائي يتوج هذا العشق المجنون لكاروزو وفن الأوبرا. ويتبوأ الفيلم اليوم ذروة ما قدمه المخرج العبقري هيرتزوع من أفلام.

**كارمن في نابولي**

إذا كانت كلمة كارمن تعني الأنشودة أو الرقية، فكارمن بروسبر مريميه هي أنشودة أندلسيّة رقيقة مولعة بالرقى، مغناج طروب شديدة الشغف بالرجال. إن الجمال الأندلسيّ، كما يقولون، يقتضي اجتماع ثلاثة: سواد الهدب، والحاجب، والضفيرة؛ وبياض ثلاثة: الوجه واليد والأسنان؛ ووردية ثلاثة: الشفة والظفر والحلمة. وكان قدر دون خوسيه، الجندي الغرّ أن يكون صريع هوى هذه البضاعة. فقبل أن تلّقنه في غرفتها الحمراء أولّ درس في الغرام، وقف يصلّي للعذراء فقطعت عليه صلاته قائلة: ما الذي سألتها في صلاتك؟

فأجاب: سألتها أن تعودي إلى عملك في مصنع التبغ وأن تنبذي وراء ظهرك حياة البغاء!

فقالت: لمَ لم تصلِّ لطواحين الهواء؟

فقال: صليّت لأجل أن يباركك الربّ فتأخذك بي عين الرأفة.

فغمزته قائلة: هذه العذراء التي تصلّي لها أندلسيّة، وهي تعرف جيّدا أنني لن أتغيّر.

قال: كلّ العذراوات هنّ أمنّا الطيّبة مريم. وأضاف: صلّيت لعذراء نيفاس، وعذراء إليزوندو، فقاطعته هامسة في أذنه كأفعى: عاهدت الشيطان، ولن أعود إلى مصنع التبغ.

لا شكّ لديّ إن باز فيغا، الأندلسية الأصل، التي قامت بدور كارمن والتي عرضت بضاعتها الأندلسيّة بسخاء، كانت شهيّة كتفّاحة، عذبة كأغنية. ولا يقلّ جاذبية عنها وأدفع للأسى منها سوى الممثل الأرجنتيني ليوناردو سباراجيّا الذي قام بدور دون خوسيه، الذي لو صلّى لطواحين الهواء لاستجابت دعاءه، ولكن الفيلم يمضي كما شاء بروسبير مريميه كاتب الأوبرا، وكما أراد أراندا البرشلوني مخرج الفيلم النهاية التي أودت بكارمن وخلّصتها من شراك الحب المنصوبة لها من حبيبها الثقيل الظل في كلّ مكان. وفيما هو منخرط في البكاء، ويداه في خناقها قال: لو أنني قتلتك الآن أفلست أجنب النفس أنهارا من الدموع.

فأجابته، وكانت تؤمن بالطالع: ستفعل ولكن ليس الآن، فدع عنك دموع التنّين هذه فهي أنسب لأحد رقاي وتمائمي. وحمل السعير الذي يؤجج جسد الصبيّة وفستانها معا إلى إسكاميللّو، مصارع الثيران، لتلقي بنفسها في أحضانه. ولكن دون خوسيه يرديه قتيلا ويخطفها منه. ولمّا أرادت الخلاص منه بعد أن طفح بها كأس الكراهية، زاد تشبثّا بها حتّى تخلّص منها بطعنة خنجر أو خلّصها منه إن صحّ التعبير. ولكن كيف يقتنع دون خوسيه بذلك، وهو يضمّ جسدها العاري المضّمخ بالدم ويمطره بوابل من القبلات، ويرسل صيحته الأخيرة الشجيّة في رثائها أو لعلّها في رثاء نفسه، إذ يقول:

عندما يقتلونني

سيهبونني الحياة لأجدك

وهناك في الموت

سأحظى بجسدك الحبيب

ليكون بجانبي إلى الأبد

وإذا لم ترحمني العذراء لخطيئتي

ما همّني

أن اصطلي بنار جهّنم وأنت بجانبي

ما همّني

مادمت سأفوز بك، ولو لوهلة قصيرة في الحياة الأخرى

أنا الذي عبدت جسدك

وسوف يظلّ حيّا خالدا في أغانيّ، ولو بت في عداد الأموات.

هذا على الضفّة الشرقيّة من الوادي الكبير في إشبيليا، وأما على الضفّة الغربية فتسكن كارمن أخرى تصدح بلحن حظي بشهرة كبيرة في عالم الأوبرا لمؤلفه بيزيه، فما من مدينة كبرى في العالم اليوم إلا وتقطنها كارمن. قامت بدور البطولة فيه مغنية الميزو سوبرانو جوليا ميغنيز من مواليد منهاتن. وعلى الرغم من أنّ ليس لها حظّ من حسن وغنج بنات الأندلس، إلاّ أن أبّولو نفسه بارك صوتها فاختارها فرانسسكو روسي لتقاسم مغنّي التينور الكبير بلاسيدو دومينغو دور البطولة في فيلم لا يقلّ قيمة عن العمل السابق. التزم المخرج فيه الرواية الأوبرالية للعمل، وأدت به جوليا رقصات بزّت فيها كل راقصات مصنع التبغ الأندلسيّات المولد. فمن لم يسحر بأدائها الراقص في أغنية الهابانيرا الكوبيّة الأصل: "الحب طائر نزق"، وأغنية السكواديلاّ التي تغوي بها خوسيه "تحت أسوار إشبيلية سأرقص السكواديلاّ". ورقصة الغجر: "الصنوج لها رنين" وأغنية مصارع الثيران: "نخبك يا سيّدي" وأغنية الوردة: "بوله أحتفظولقيت استحسان الجمهور وصدى في الحبس بوردة" وأغنية ميشيلا: "دعني أقول لك أن لا شيء يخيف".

كارمن عمل ليس باليسير ولوج جنّاته المتوحشة، ولكن بوسعك الآن أن تأخذ مفاتيحها بقوة. أراد له بيزيه أن يكون تاماً وشاملاً، وهو ما دفعه لاحقاً إلى الكتابة بعد فراغه منه قائلا: "يقولون إنني غامض وملتبس ومعقد ومعنيّ بإظهار الطابع الشكلاني وأفتقد إلى الموهبة، ولكنني فرغت للتوّ من كتابة عمل واضح يحفل بالموهبة ومفعم بالتنوّع والألحان الشجيّة والرقصات". رفع بيزيه الستار عن عروسه كارمن في باريس في 3 مارس 1875 ولكن أيّ من الجمهور لم يتّقدم إليها، وطالتها أقلام النقّاد بالسوء، وفي 3 يونيو من العام ذاته قضى الموسيقار الكبير كمدا لهذا الإخفاق عن عمر لم يتجاوز السابعة والثلاثين.

كل ما سلف تداعى إلى ذهني وأنا أقف على مدخل مسرح بليني في نابولي المكان العريق الذي احتضن العرض الأول لأوبرا كارمن في إيطاليا في الخامس عشر من نوفمبر عام 1979 وذلك بعد أربع سنوات على رحيل جورج بيزيه، وبخلاف ما لقيته كارمن من إخفاق في عرضها الباريسي، فلقد لاقت نجاحا باهرا ومنقطع النظير، في نابولي وأحتفى بها النقاد كما يليق بعمل خالد. ولا عجب، فإن نابولي برهنت هذه المرة أيضا، على أنها الاذن الأكثر رهافة في استقبال الموسيقى وتذوقها في إيطاليا.

**العيد في بوسيتانو**

ميري كريسمس قالها بوجه بشوش لوريندسو ابن الحوت بائع التحف البوسيتاني، فنحن في بوسيتانو الواقعة على مقربة من ساليرنو في ساحل أمالفي. ميري كريسمس قلت مودعّا إياه وأنا أهمّ بالخروج حاملا بعض التحف التي اقتنيتها، وقفلت عائدا وصاحبي إلى العربة، فمصباح النهار قد أنهكه السفر والطريق إلى نابولي طويلة كثرثرة ليست لها نهاية.

يحتفل العالم المسيحي في الخامس والعشرين من كل عام بعيد ميلاد المسيح (الكريسمس)، وتقام لهذه المناسبة طقوسا باتت مظهرا احتفاليا يألفه العالم.

لم يعد خفيّا اليوم أن لا علاقة في الأصل بين المسيح وعيده المزعوم، وأن هذا الاحتفال ليس إلا عيدا وثنيّا سطت عليه الكنيسة في مسلسل سطوها الطويل.

كان الشمال الأوربي يحتفل منذ قرون سبقت المسيح نفسه بـ "يول" في الحادي والعشرين من ديسمبر وهو عيد يقام بمناسبة بدء الأيام التي تتقاصر فيها ساعات الليل عن النهار. وهذا اليوم هو فاتحتة الاعتدال الخريفي. وقبل هذا التاريخ بأيام كان الرومان يحتفلون بعيد ربّ الغلال زحل، فيقيمون مآدب وأفراحا يكثر فيها القصف واللهو أيّاما. ولعل عيد الإله مثرا ربّ الشمس الموافق الخامس والعشرين من ديسمبر هو المناسبة التي أغرت رجال الكهنوت سلب هذا الإله عيده لصالح ابن الله المجهول المولد. وما إن حلّ القرن الرابع للميلاد حتّى اعتمدت الكنيسة هذا العيد بشكل رسميّ. ثم تسلّل السانت كلوز الهولندي ذو الأصل التركي نيكولوس الطيّب المغرم بالأطفال من ثقب المدفأة بعد أن أعاره رسّام الكاركاتير الأمريكي توماس ناست حلّته الحمراء وذقنه الصّوفي الأبيض الطويل عام 1836م. وأما شجرة الكرسماس ذات التفّاح الذي يرمز لآدم وحوّاء وفردوسهما المفقود فهي عادة شماليّة أقحمت هي كذلك عبر النافذة. ولمّا راقت هذه التوليفة للتاجر الأمريكي سام حوّلها بلمسة من عصاه إلى أكبر تظاهرة تجارية سنويّة يتلقّفها العالم.

بقي أن أذكر أنّ الكريسماس كلمة مكوّنة من مقطعين: الأول، كريس: وهي كلمة إغريقيّة تعني المسيح. ومس أو موس: وهي مصرية قديمة تعني ميلاد. وأمّا "ميري" فالقاموس الإنجليزي لا تسعفه الذاكرة لإيجاد أصل لهذه المفردة قبل القرن الحادي عشر، ومعناها المتداول: "شعور بالفرح أو السعادة.". وهنا يخامرني ظن بأن ثمة سطو آخر وقع في زمن ما خطفت فيه نخلة عربية باسقة بعذوقها وجذورها من صحراء الجزيرة، ونقلت إلى الغرب وحسب القاموس الإنكليزي دخلت كلمة ميري حيز الاستعمال للمرة الأولى في القرن الثاني عشر وهو قرن العائدين من إحدى الحملات الصليبية، ففي قاموس "ميريام ويبستر" "ميري" تعني: مليء بالبهجة والسعادة: Eat, drink and be Merry "كل واشرب وكن سعيداً" أو "فكلوه هنيئاً مريئاً"، كما في سورة النساء، وفي سورة الحاقة " كلوا واشربوا هنيئا...". ولكنني سأسند ملف تلك الجنحة لمفتش أكثر مهارة في فن القيافة، ليقص أثر هذه الكلمة. إما للمؤمنين بهذا العيد وما يحمله لهم من بهجة أقول: ميري كريسماس.

**أصوات نابولي**

عندما أزور نابولي أحرص على سماع الأغاني الشعبية التي غالبا ما تصدح في المقاهي والساحات وزوايا الشوارع، أتمتع بتلك النغمات الأصيلة الصادرة عن مواهب مجهولة والتي غالبا ما تبقى محلية ومجهولة، إلى أن تبلغ أذن صائد أميركي، فيلتقط الجوهرة المجهولة ويدفع لصاحبها بضع ليرات ويحملها معه إلى أرض الفرص والأحلام وهناك ينزع عنها كلماتها ويلبس ألحانها كلمات إنكليزية لتظهر في فيلم أو عرض مسرحي وتتحول إلى أغنية مشهورة لا علاقة لصاحبها المجهول بها.

في عام 1953 خطفت أغنية "الحب السري" التي أدتها الممثلة دوريس دي جائزة أفضل أغنية في حفل الأوسكار وللمفارقة كان من بين الأغنيات المرشحة يومها الأغنية النابوليتانية "ذاك حبي" التي أداها دين مارتن في فيلم كادي ومذ ذاك ارتبطت به، ولم يعد لمؤلفها الأصلي ذكر.

ومن المفارقات الكبرى اليوم أن لا أحد يكترث بأغنية الأوسكار تلك، بينما تستطيع كل أذن اليوم أن تعرف أغنية "ذاك حبي" من أول توقيع في لحن الأغنية. والأمر ينطبق على أغنية لا تقل عنها شهرة، وأعني بها "أوه سلاميو" أو يا شمسي" فما أن وقع هذا اللحن الشجي في أذن الفتى الفيس بريسلي حتى بذل لشرائه ما بذل، فكلف كاتبا أن يستبدل كلمات اللحن، فكتب كلمات جديدة للأغنية التي ستعبد له طريق المجد. "ناو أور نيفر" "الآن، أو أبدا لا".

الغريب أن الإيطاليين على الرغم من فرادة إبداعاتهم الموسيقية وجمالها الخاص، فهم متورطون اليوم بسماع الموسيقى الأميركية. ولا يخطر لهم أن يرددوا: هذه بضاعتنا ردت إلينا.

**قمر الشمال وقرص الجنوب**

في نابولي قصدنا بيزاريا براندي، فكما هي الفوكاشيا قمر الشمال الإيطالي، فإن البيتزا هي قرص الجنوب الزاهد. يحكى أن الفران رافاييل اسبوسيتو ابتكر في هذا الزقاق الضيق في نابولي عام 1889 قرص المارجريتا مؤلفا من ثلاثة ألوان ليرمز على العلم الإيطالي: الحبق الأخضر وجبنة المازوريللا البيضاء والطماطم الحمراء. وقد خطرت الفكرة ببال رافاييل عشية الاحتفال بعيد الوحدة الإيطالية. وأما مارجريتا فهي مارجريتا سافو ملكة إيطاليا.

بصرف النظر عن تاريخية الحكاية، تناولنا قرص الملكة وكان على بساطته لذيذا، ومما زاده لذة ما صدحت به فرقة موسيقى نابولتانية من ألحان أعدت كمينا للسياح لنيل ثمن مضاعف للبيزا، دفعناه بكل سرور لقاء ما سمعنا من أغان شعبية وألحان شجية يندر أن تسمع في مكان آخر، فنابولي كما قلنا في مكان آخر هي بحق إحدى أذني إيطاليا.

في وقت آخر عدنا إلى المطعم نفسه على أمل نيل متعة أخرى، ولما حضرت البيتزا خاب الظن فلم تكن كتلك التي قدمت إلينا في المرة الأولى، كانت باردة كما لو أنها لزبون أعرض عنها. بعد تلك التجربة الفاشلة، وقبل أن نغادر سألنا ماذا حل برفائيل وأين ذهبت الفرقة الموسيقية.

بعد تلك التجربة قررنا أن نمعن البحث في أزقة نابولي عن بيتزريا أصيلة، ولكم يبدو الأمر شاقاً ففي إيطاليا كما هو معروف، بين كل بيتزريا وأختها بيزريا ثالثة، وعليك أن تحسن البحث وتدقق في الاختيار.

**الفصل الرابع عشر:**

**صقلية**

**في المجاز إلى صقلية: لي بيت هنا**

صقلية بوابة أخرى للدخول إلى إيطاليا، بل لأوروبا. ولا أجد نفسي فيها غريب الوجه واليد واللسان كما حال أبي الطيب المتنبي في شعب بوان. كعربيٍ وجدت النفس تجول في رواق الوعي المقارن، فشواهد الثقافة العربية الإسلامية لا تزال شاخصة رغم مضي ألف عام، تراها في البنيان والعمارة، في الأقواس، والمشربيات، وفي الحروف المكتوبة على أبواب الكنائس التي كانت مساجد، وعلى بعض البيوت القديمة، وتسمع رنين اللغة العربية في تموجات اللغة المحكية المحلية، وتتذوقها في الأشهر من صنوف المائدة، خصوصا في الأسواق الشعبية. والأخيرة أصبحت محجاً سياحياً تجذب عشاق المآكل ومن يشغل النهم مخيلتهم، وحيث تزكم أنوفهم أبخرة الطهي العربي، المشرقي والمغربي، والأوروبي المستحدث. ولن أنسى "البوظة العربية" المثلجة كأصل للبوظة الإيطالية الشهيرة "جيلاتو".

على السائح العربي أن يمتلك مفاتيح الوعي التاريخي لكي تتهادى خطاه موقّعة على الحوار الصامت بينه وبين الأسماء التي رسّخت الثقافة العربية في أوروبا، وإيطاليا تحديداً، وجعلت منها منهلاً للعلم بترجمة العلوم العربية والفلسفة والرياضيات والفلك والزراعة والصناعة، وذلك في عهدي كل من روجر الثاني وفريدريك الثاني، اللذين استقطبا العديد في العلماء العرب، وأشهرهم الأديب الشاعر والجغرافي محمد الإدريسي صاحب أول خريطة للعالم، وصاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وهذا بعض ما جعل صقلية منارة العلم في أوروبا وبوابتها للدخول في عصر النهضة، ومنها دخل دانتي إلى المعري، وبترارك إلى رباعياته، وأسرت الشاعر غوته في رحلته. وفي لحظة استيقاظ الحواس لهذا كله، أقول لنفسي، ولو في المجاز، "لي بيت في صقلية"، مستعيراً هذا العنوان الذي يختزل راحة النفس العربية في الجزيرة، من الكاتبة الإنكليزية دافني فيليبس: "بيت في صقلية". ولقد عنيت بترجمته واتاحته لقراء العربية في مشروع "ارتياد الآفاق. وقد تم ذلك.

**الحجّ إلى صِقليّة**

**برونتي، أرض الفستق**

كَطوافِ الحجيج حولَ الكعبة طُفنا حَولَ "أتنا" المُبارك. انْطلقنا مِن تاورمينا إلى بسكيارو، فسوليشياتا، وباسو وبسكيارو، ثم راداتزو، إلى أنْ بلغنا برونتي، بلدُ الفُستق الذائع الصيت، تناولنا طائفة من الحلويات بالفُستق مع القهوة في كافيتيريا "لوكا"، قال أنجلو السائق: نسميه فراستوكا.

في الطّريق تحدثنا عنْ جوسيب تورناتوري الصِّقلي، وهو منْ مواليد باجريا القريبة من باليرمو، وأفلامِه العظيمة بدايةً بسينما باراديسو 1988، ومالينا 2000، ومراسلة 2016، وعرجنا على ذكر الجميلة اللبؤة غارسيا كوشينوتا، بطلة فيلم البوستينو "ساعي البريد" 1996، وبعد وجبةٍ لذيذة، شاهدنا حُقول الفُستق تنتشرُ على مَدّ البَصر وفي كلِّ رُقعة.

واسم "برونتي" يعودُ لأسطورة السايكلوب العملاق ذُو العين الواحدة، الساكن أسفل جبل "أتنا" وهو صانعُ صواعق الآلهة وأسلحتهم في الميثولوجيا الإغريقية، واسمُ البلدة يعني "الصّاعق".

**أرض الأوديسا**

على خُطى "غوته"، أسيرُ في صِقليّة. ورحلتهُ دليلي الذي لا يفارقني، كانت سعادته وهو يجوب أرض الأوديسا لا توصف، حتى صارت مقولته الشهيرة: "من لم يزر صِقليّة ما زار إيطاليا"، العبارة التي يحفظها الصّقليون عن ظهر قلب، قال غوته: "دعوني أعبّر بإيجاز عن رأيي في الشعراء الأقدمين والمحدثين من أمثالنا"، إنَّهُم يُصوّرون الأشياء والأشخاص كما هي في ذواتها، أمّا نحن فلا نصوّر في العادة سوى أثرها الذاتي، إنهّم يصوّرون الفزع، أمّا نحنُ فنصفُ بطريقةٍ مفزعة، إنَّهُم يُصوّرون الشيء المفرح، أمّا نحن فنصوّر بطريقةٍ مفرحة، وهكذا دواليك.

**فتح باب الفردوس وغاب**

يمّمنا بعد ذلك كاتانيا، وعرجنا على منزل الموسيقار "بلليني"، الذي صار متحفاً يحمل اسمه، وهو المكان الذي شهد ولادته في 2 أو 3 نوفمبر 1801، كان المتحف متواضعاً مقارنة بالصدى المدّوي لأعماله، وكاد يكون أقرب لخيبة الجمهور الذي شاهد عرض أوبرا "نورما" الأول في لاسكالا ميلانو، وأكثر من المتحف تواضعاً كان الحارس الذي بدا كالقرفان من وظيفته.

ولنتوقف عند أوبرا نورما، وتلك الأنشودة التي تناديني "كاستاديفا" أو الربة الطاهرة:

**ربتي الطاهرة، تكلل بفضتها**

**هذه الشجيرات الأزلية المباركة**

**عيوننا شاخصة نحو وجهك المحبوب**

**نقياً، سافراً من كل خمار.**

عدنا بعد ذلك إلى الفندق لسماع بافاروتي وساثرلاند يؤديان أغنية دويتّو "إليك أيّها العزيز" من أوبرا " البيوريتاني" لنرتقى بألحان ذلك الساحر إلى ملكوت السماء، قال عنه فاجنر: "كلّه قلب"، وها أنا لليوم الثاني على التوالي استمع إلى أغنيات هذه الأوبرا وتلك، وكأنني أسمعها للمرة الأولى، فأترحّم على روح محسن سليمان الذي فتح لي باب الفردوس وغاب.

**النهر والينبوع وصخرة السايكلوب**

تناولنا وجبة غداء خفيفة وشهية في بيتزرية مسّينا، التي تواجه بوابة مسّينا في تورمينا ثم يمّمنا شطر آش ترتيزا (أكي وأكوا) ولفظها دال على الماء. تنتشر البلدات المبدوءة بلفظ آش كثيرا في هذه المنطقة (آش يالي، آش كتينا، آش بونا كورسي، آش سانت أنطونيو، آش بلاتالي، آش كستيلّلو...) وبما أنها بعض من أرض الأساطير، فلا يخامرني أدنى شك في أن آش هو ذاته النهر المغمور بحمم جبل أتنا الذي ما زال ناشطا حتى الساعة، فلقد غطّت حممه المتدفقة مدن الساحل الشرقي في كاتانيا ونوتو وما بينهما عام 1693، ولم يبق من أثر للنهر اليوم سوى الأسماء الدالة عليه. وآش هذا هو النهر الذي ارتبط بأسطورة أكيس وجلاتيا.

فلقد ورد أن جلاتيا كانت على عادتها تستحم مع رفيقاتها عندما رمقها ابن نبتون السايكلوب بوليفيميوس وصار يتدلّه عشقا بالحورية التي صنعها بجماليون المثّال، دون أن يفطن هذا الكائن ذو العين الواحدة إلى أنها قد تراه قبيحا ولا يصلح لعشقها، على الرغم من مكانة أبيه. وكان يراهن في نفسه أنها قد تتحول إلى ثمرة ناضجة وتسقط في حبه من تلقاء نفسها، فالقبح لا يمنع من الوقوع في الحب كما ورد في مثل قوطي قديم، ويماثله في ثقافتنا المثل الشائع "الحب أعمى"، وهو تماما ما آل إليه مصير بوليفيميوس بعد أن فقد عينه الوحيدة حينما فقأها له أوديسيوس أثناء رحلة عودته من حرب طروادة، وعلى الرغم من ذلك مكث السايكلوب مدلّها بحب جالاتيا، التي كانت تهيم بالشاب الوسيم آكيس حبا غير آبهة بقصائد ابن نبتون التي راح يتغنى بها، والتي باتت شائعة في الشعر الرعوي السكندري منذ القرن الثاني قبل الميلاد، ما يؤكد انتشار الأسطورة بشكل واسع في العصر الهيلينيستي.

لم يرق للعملاق وحيد العين عشق جلاتيا للوسيم آكيس، خصوصا وإنها لم تعره اهتماما، فحمل صخرة وهوى بها على رأس آكيس فصرعه. وقد خلّد الفنان الألماني جون هيانريش تشيباين السايكلوب عاثر الحظ في لوحته التي رسمها عام 1779.

تضرّعت جلاتيا إلى الآلهة أن تترفق بحبيبها الصريع، فحولته إلى نهر، بينما تحولت جلاتيا ذاتها إلى ينبوع. قمت بزيارة الينبوع في ساراكوزا، أما آكيس الراعي الصقلي المغدور، ففقد القدرة في أيامنا هذه حتى على أن يكون نهراً، وكأن صخرة السايكلوب ما زالت تطارده وتهوي عليه كلما أراد أن يعود إلى الحياة في صورة عاشق أو نهر.

شاهدنا البيوت التي تحتلّ المشهد في الوقت الحاضر، وقد شيّدت فوق طبقات من الحمم البركانية التي بردت ومنحت الارض معادنها، فأصبحت خصبة تميّز صقلية.

ثم اتجهنا صوب صخور آكي تريتز المرتبطة بملحمة الأوديسا، حيث ورد في أخريات مغامرات أوديسيوس أنه توقف على الساحل الصقلي المقابل لجبل أتنا، فأرسى سفنه، وخرج بحارته يستكشفون المكان، وفي كهف مطل على الماء عثروا على أنواع من الطعام فشرعوا يلتهمون ما لذ منه وطاب، حتى فوجئوا بمخلوق هائل الخلقة تتوسط جبهته عين وحيدة وهو يرفع حجراً ضخماً ويسدّ عليهم فوهة الكهف ويحتجزهم فيه. لم يكن ذلك المخلوق سوى السايكلوب بوليفيميوس ابن نبتون، وكان قد عاد لتوه من رعي قطيع أغنامه. فصار كلما أراد التهام واحد من رجال أوديسيوس يحرّك الحجر ويقبض عليه ويلتهمه.

وليدفع عمن بقي من رجاله البلاء خاطب أوديسيوس السايكلوب قائلاً: عندي لك هدية من الآلهة، فأجاب السايكلوب: ومن أنت؟

فأجاب أوديسيوس: أنا لا أحد.

وكان أن قدّم له خمرة، فشرب السايكلوب منها وطاب له النبيذ، فطلب المزيد، فقال أوديسيوس سنعلّمك زراعة العنب وعصره واستخراج شراب الآلهة، وشرعوا بالعمل حتى أتمّوه وصنعوا له خمرة، فطابت له وأنس برجال أوديسيوس، وحدث أن أفرط في الشراب وغفى، فحمل أوديسيوس ورجاله عمودا خشبيا مدبب الرأس واندفعوا به نحو عين السيليكوب ففقأوها، صرخ السايلكوب طلبا للنجدة، فتخفى رجال أوديسيوس في جلود خراف وانسلّوا إلى سفنهم الراسية ونشروا القلوع والأشرعة. وهرعت جماعة منهم إثر ذلك إلى السايكلوب الجريح، وسألوه: من فعل بك هذا؟

فقال: لا أحد.

وأخذ يزمجر ويتقاذفه العمى يمينا وشمالا، وراح يقذف الصخور ناحية البحر واحدة إثر أخرى يريد تحطيم السفن التي همّت بالمغادرة.

في ذلك الموضع رأينا الصخور التي ما زالت تنتصب ثلاث منها بقامات متفاوتة تطل على الساحل في آشي تريتزا، وتلامحت هناك صخرة أخرى بالكاد تظهر للمبحر المقبل من جهة الماء، ولا يحيط بها إلا من كان بصره حاداً، ومن فرط ضآلتها صارت تضرب مثلا في الرجل قليل الشأن، فيقولون: ها قد أقبل الصخرة الأخيرة في تريتزا.

سألت آنجلو السائق والمرشد عن الجزيرة الجميلة التي تقع قبّالة الساحل، فلم يحر جوابا وهو ابن البلد، وربما يكون قصدها مرات عدة من قبل، فشرعت أنقّب عنها في خرائط غوغل، وعرفت أنها تُدعى سايكلوبي، فتيقّنت من أن ابن نبتون المدلّه بحب الفاتنة جلاتيا لم يبرح مكانه حتى يومنا هذا، وربما ما زال يرعى قطيع خرافه في ناحية منها في انتظار أن يطل أوديسيوس بسفنه ثانية ليواصل انتقامه.

في طريقنا عرّجنا على ناكسوس التي ارتبطت في ذاكرتي بالعلامة التجارية Naxos المصدرة باثمان زهيدة لأعظم الأعمال الموسيقية الكلاسيكية.

ولكن ناكسوس الصقلية مدينة ارتبطت بالإغريق، فلقد كانت تتبعهم إداريا وجغرافيا وتُعدّ مرفأً لسفنهم، ولأن صقلية تشتهر بالليف الذي يطلقون عليه تسمية لوفا التي يظهر عليها بشكل جلي تأثير الصواتة العربية، فلقد ذهبنا لاقتناء لوفا من محل اسمه اير بريستوريا، فوعدتنا البائعة بتأمين زوجين منها.

في اليوم التالي عبرنا مضيق مسينا، واستغرق منا عبوره إلى إقليم كلابريا حوالي العشرين دقيقة وفي عزمنا الصول إلى سشيلا. يروي بعض الأساطير أن اوديسيوس قابل في هذا المكان الربة سيريس وسألها المساعدة في رحلة عودته إلى إيثاكا، فحذرته من محن ومخاطر ستواجهه، ومما أخبرته به نصحها له أن إذا ما سئل عمن يكون أن يجيب اسمي لا أحد. وعلى رغم أن هذه الحكاية لم ترد في الأوديسا نفسها إلا أنها متداولة بشكل كبير، أميل إلى الأخذ بهذه الأسطورة فعلى رغم دهاء أوديسيوس، لابد أن هناك من أوحى له بهذه الإجابة.

سشيلا اليوم بلدة وادعة تطل على البحر، تناولت هناك وصحبي وجبة غداء في مطعم صغير اجتذبتنا إليه رائحة حساء شهي. من هناك تراءت لي في أفق البحر سفينة شراعية تتهادى استدعت إلى مخيلتي سفينة أوديسيوس وصحبه وكأني بها ماتزال مبحرة بهم إلى أيثاكا.

**جيوفاني فيومارا والسكّر والجيلاتي**

تكبّدنا عناء الوصول إلى بلدة جيوفاني فيومارا في فيلا فرانكا ترينان وهي كافتيريا يملكها عم السائق أنجلو الذي عمل في مقتبل عمره مع عمه الذي زعم أن السحر لا ينقصه أبداً في عمل الجيلاتي (الآيس كريم). فلمّا جربناها، لم تكن سوى سكرا ونكهات، فقلت لصاحبي: هات لي بعضا من تاريخ السكّر ليفلح في تعزيتي من خيبة الأمل.

السكر، إنه ليس السكر الذي باغتنا به عم السيد أنجلو بالطبع، ولكنه السكر الذي عرف العالم نباتاته منذ الألف الثامنة قبل الميلاد وصار متاحا لهم في القرن الثامن عشر مع إنشاء مزارع قصب السكر في جزر الهند الغربية والأمريكتين.

ومعروف للبعض منا أن السكر غير مجرى التاريخ وأثر على تشكيل المستعمرات بحسب جغرافية تواجده، واستمرار تجارة العبودية التي وقف خلفها أرستوقراطيو أوروبا على نحو شبيه بعبودية أمريكا للأفارقة في مزارع القطن، ومن ثم شيوع العمل بالسخرة، وصولا إلى الحروب التي نشبت في القرن التاسع عشر للسيطرة على تجارته.

والسكر الذي كانت طرقه ومصادره بيد الأسكندر وحلفائه في نحو عام 320 قبل الميلاد، كان معروفا كعلاج وليس كطعام، والعرب اجتهدوا في تَسْييله، وكان معروفا على هيئة معجون لزج شبه بلوّري، فتمكنوا من توسيع زراعته بنظم ري مبتكرة من أجل توفير مناخ مناسب لزراعته وتكثيره. وعرفته أوروبا من خلال الاحتكاك بالحضارة الإسلامية في صقلية وقبرص والأندلس في القرن الثامن والتاسع الميلادي.

وفي أواخر القرن الثالث عشر ارتبط ظهوره بعودة الفرسان الصليبين إلى بلادهم ومعهم ما أطلقوا عليه "الملح الحلو". وسرعان ما شكّل منذ القرون الوسطى حجر الأساس في اقتصاديات أوروبا، ودارت حوله صراعات الاحتكار والتجارة، ولا علاقة لهذه المادة بالملح الحلو الذي تذوقناه عند عم السيد أنجلو.

ولما عرجنا على كهف بولوفيمو في ميلاتزو، وهو كهف الأوديسة ذاته حزّ في نفوسنا أن نجده موصداً ومهجوراً، فتوغّلنا في رأس هذه الجزيرة لالتقاط صور قبالة كافتيريا الفارو، كان مشهدا آسرا يستحق عناء الذهاب إلى هذه البقعة القصية من الأرض الصقلية المحفوفة بالأسرار والأساطير والكائنات التي منحتها الآلهة حياة أخرى في هيئات جديدة.

**بحيرة بركوزا**

مفعمين بالتوقعات اللطيفة قصدنا بحيرة بركوزا في وسط صقلية، وتشتهر هذه البحيرة بأنها كانت مسرح خطف العذراء بيرسيفوني ابنة سيريس ربة الفصول التي أطنب أوفيد في سبك أسطورتها شعراً في تحولاته، فأحزننا أن نجدها مطوقة بطريق أعدته بلدية صقلية لسباق السيارات، على غير رغبةٍ من أوفيد، ولو فعلوا ذلك أيام ابن نبتون، وحيد العين، لهطلت عليهم حجارته وشتتهم في الآفاق.

تقول أسطورة اختطاف بيرسفوني أن بلوتو إله العالم السفلي صعد إلى عربته التي تجرها خيول مطهمة سوداء، وراح يتجول في أنحاء صقلية، عندما رأته فينوس من قمة جبل، فسألت ابنها كيوبيد أن يصوب سهمه الذهبي نحو القلب من هذا الإله. فلبى رسول الحب الطلب، واختار من بين آلاف السهام أدقها، وأسند سلاحه إلى ركبته. انحنى طرفاه المرنان، واخترق طرف القصبة قلب بلوتو.

بينما كانت بيرسيفوني تلهو بسعادة ورفيقاتها من حوريات البحيرة العميقة، رآها الإله بلوتو وفي غمضة عين، واختطفها فأخذت تصرخ مستنجدة بأمها سيريس، لكن صرخات الحورية المذعورة لم تبلغ سمع الأم.

حاولت الحورية كياني، صد بلوتو، لتنقذ صديقتها. فثار الإله غضباً ولكز خيوله الرهيبة، ثم هز صولجانه الملكي ضاربا به صفحة الماء، فانشقت البحيرة، وفتحت له ممراً، وغاب في الأعماق.

أجهشت كياني حزنا وألماً، وذرفت دموعاً غزيرة حتى أنحلها الحزن، وتحولت إلى نهر. وطفقت سيريس تبحث عن ابنتها المخطوفة في جميع أركان الأرض وأرجاء البحار، ليلًا ونهارًا، ولكن عبثاً، وعندما أنهكها البحث وكدها العطش، بلغت ضفاف نهر، ولم يكن ذلك النهر سوى الحورية كياني التي كان يمكن أن تخبرها بما جرى لبريسفيوني لو لم تتحول إلى بحيرة. عبثًا أرادت أن تتكلم، ولكن لم يعد لها فم أو لسان. وشاء القدر أن يترك من بيرسفوني على سطح البحيرة علامة. فها هو حزام الحورية المخطوفة يطفو على سطح البحيرة التي غابت في أعماقها.

أدركت الأم أن ابنتها قد اختطفت، فراحت تصب جام غضبها على الأرض والحقول، وتلعنها وتصفها بأنها جاحدة للجميل. أطلت حورية أخرى رأسها وقالت أيتها الإلهة الغاضبة لا تتعبي نفسك، ساخبرك بما جرى أمامي: انشقت الأرض، انفتح ممر إلى الأعماق حيث نهر استيكس في العالم السفلي، رأيت بعيني ابنتك. كانت بيرسيفوني حزينة، ولم يفارقها الرعب، لقد اصبحت ملكة زوجة لبلوتو الذي يسيطر على الجحيم وإلهة على العالم السفلي.

جمدت سيريس بلا حراك كأنها صخرة وهي تستمع إلى كلام حورية الماء، ثم صعدت عربتها واندفعت في الفضاء نحو السماء.

وهناك مثلت أمام جوبيتر بوجه حزين، وقالت له: أتوسل إليك يا رب الأرباب أن تعيد لي ابنتي. سأغفر لخاطفها بلوتو. أجاب جوبيتر: ابنتك هي ابنتي أيضًا، وليس هناك ما يخجلنا في صهر مثل بلوتو فهو أيضاً أخ لإله السماوات، ولكني أردها بشرط: أن لا تكون شفتاها مست أي طعام من عالم الجحيم. هذا هو قرار آلهة القدر.

إلا أن سيريس أصرت على إعادة ابنتها من الجحيم، وكان ذلك على خلاف القدر، لأن الفتاة أفطرت، عندما أخذت سبع حبات من قشر الرمان الشاحب وعصرتها بين شفتيها، ولم يرها أحد سوى إسكالافوس، فكانت وشايته الوقحة بها عائقًا أمام عودتها إلى الأرض.

بكت سيريس، وحوّلت الواشي إلى طائر شنيع. نما في رأسه منقار وعينان واسعتان وأجنحة شقراء، وتضخم من الرأه، وطالت أظافره وتقوست، وهكذا أصبح بومة مشؤومة.

إلا جوبيتر الموزع بين أخيه بلوتو واخته الحزينة سيريس قسم العام إلى قسمين متساويين، بحيث تقضي بيرسفوني نصف العام صحبة أمها ونصفه الآخر صحبة زوجها في العالم السفلي، لن يقبل بعد ما قسم أن يعطي سيرس حق الاحتفاظ بابنتها العام كله.

إن الدلالة من وراء ذلك أن مصير بيرسفوني يرسم صورة لتكامل دورة الطبيعة، والعلاقة بين الحياة والموت وبين الظاهر والباطن وبين المشرق والمعتم وبين الفردوس والجحيم. فهي تقضي النصف المضيء من السنة مع الأم والنصف الخريفي المتلبد المعتم مع زوجها فتكون له بمثابة الضوء المشرق في عتمة العالم السفلي.

ارتسمت على وجه البحيرة ابتسامة حزينة لتحيتنا، وبدا الشارع خاويا من السيارات والمارة. إنها البحيرة التي باحت فيها الحورية ليليس بمشهد العربة التي يقودها هاديس أو بلوتو وهي تهبط بابنتها إلى العالم السفلي بعد أن خطف بلوتو العذراء. لم تكن بيرسفوني هناك لتروي لنا الحكاية.

ثم زرنا بلدة "أنّى" الواقعة على مقربة من البحيرة، وتُعدّ أعلى بلدات إيطاليا ارتفاعا، أطلق عليها العرب اسم يانا وخلّفوا أسماءهم على الكعك الصقلي، فباتت القشطة معروفة بلفظ كاسانا، والتنور تانورا، والزعفران زافارانو، والزهرة زاكارا، والزبيب زبيبو، وساق الشجرة زكّو.

قرأت على لوحة تعريفية أسماء الطيور المهاجرة التي تتردد على البحيرة في أغسطس وكان منها البلشون الرمادي، والسنونو، والوروار، والبازي، وسواها من الطيور.

رحنا نفتش عن معبد ديمتريس ربة الفصول والمواسم، وكانت الربة المعبودة في هذه المدينة، فلم نجد سوى الكنائس والأديرة وقد زالت تلك المعالم الحضارية التي تربط صقلية بثقافتها اليونانية، ولم يبق إلا النذر اليسبر مما يدل على تلك الحضارة.

أنهينا الجولة وعدنا إلى صقلية، وفي طقس لطيف مع الغروب يممنا شطر الساحل ننشد مطعم فيلا سانت أندريا، وكان مديره في انتظارنا وعلى الرغم من تأخرنا على موعد العشاء، فقد استقبلنا بحفاوة بالغة، وكأننا جلبنا معنا مزرعة من الملح الحلو.

في ساركوزا زرنا النبع الشهير أريتوزا ويقع على مقربة من أورتيغيا. ما أن اقتربنا حتى تبدا لنا النبع محاطاً بالحشائش الخضراء ونباتات القصب. وأريتوزا في الاساطير الإغريقية اسم إحدى حوريات الاثيرات وكانت عذراء. تقول الأسطورة أنها بينما كانت في رحلة صيد مع أرتيميس مرت بنهر ألفيوس، فتعرت ونزلت تستحم، وما أن غمر جسدها ماء النهر، حتى تعشقها ألفيوس، وطاردها فهرعت تستنجد بأرتيميس، التي نشرت ضبابا حجبها عن ألفيوس، وحملتها إلى أرض صقلية، لجأ ألفيوس المتيم بحب اريتوزا إلى زيوس رب الأرباب متضرعا فحوله على نهر يجري إلى صقلية ليغذي ذلك الينبوع، وألفيوس واحد من أكبر أنهار اليونان التي تصب في البحر الأيوني.

ومازالت أريتوزا تحيا في الجهة المقابلة للمتوسط. انتقلت الأسطورة نفسها إلى الضفة الشرقية من المتوسط، وها هي بحيرة عرطوز في ريف دمشق تحمل الحكاية نفسها منذ بواكير العصر الهيلينيستي وحتى اليوم.

**إيكاروس وديدالوس**

وما دمنا في علاقة صقلية بالأسطورة، والإنسان بالسفر، فلم يكن بحرها وحده مسرح السفر والترحال، بل وسماؤها أيضا التي ارتبطت بأقدم أحلام الإنسان في الطيران. تقول الأسطورة اليونانية أن مينوس ملك كريت طلب من ديدالوس الحرفي والمخترع الشهير أن يقيم له متاهة يحبس فيها الميناتور فلا يخرج أبداً. فلما انتهى من إنشائها، حسبسه وابنه إيكاروس فيها حتى لا يفشيا السر. جمع ديدالوس وابنه إيكاريس رياش الطيور وصنع الأب منها أجنحة له ولابنه، وثبتها بالشمع. وقبل أن يحلقا قاصدين حما الملك الصقلي كوكالوس حذر ديدالوس ابنه من أن يقترب من الشمس، لكن جموح الفتى أنساه الوصية، فذاب الشمع وهوى إيكاروس ساقطاً في البحر بين جزيرة صقلية وأرض اليونان على مرأى من ابيه المفجوع. لما وصل ديدالوس إلى قصر الملك الصقلي في أجريجنتو التي زارها غوته أكرم كوكالوس ضيافته وقربه منه، وأسند إليه مهاماً عظيمة.

أسطورة ديدالوس وإيكاروس عن الطيران، تحيلنا على زمنين للإنسان في علاقته بفكرة الطيران، زمن الحلم، وزمن التجريب. ففي زمن الحلم ولدت أسطورة إيكاروس الإغريقية، وفي زمن التجريب تحضر تجربة عباس ابن فرناس ابن قرطبة، العالم المخترع والأديب متعدد المواهب، الذي سجل لنا التاريخ تجربة طيرانه عندما صنع لنفسه جناحين وذيل من الريش واستعمل مواد أخرى منها الحرير لتثبيت الجناحين وقفز من حافة هضبة مرتفعة على مرأى من حشد قرطبي، فطار مسافة ثم وقع وتأذى قليلاً ولكن أنجز أول تجربة طيران علمية موثقة في تاريخ الإنسان، فسبق عبقري الاختراعات ليوناردو دافينشي بأكثر من 6 قرون في تجارب رسم الطيران التي قام بها في ما بعد.

**كوازيمودو وبرانديللو والحلوى الصقلية**

خلال إقامة امتدت شهراً في تاورمينا توجهنا إلى مقهى صقلية في نوتو للقاء السيد كورادو الذي سبق أن قدمته لنا قبل سنتين صديقة تدعى ستيفانيا ابنة صاحبة مطعم إلّوغو دي أيمو إيناديا في ميلانو . السيد كورادو الذي يعتبر أهم صانع حلويات في إيطاليا دعانا لتذوق ما انتخبه لنا من أطباق الحلوى. كان ورادو يدرس في فلورنسا عندما وصلته رسالة من قريبة له تملك مصنعا للحلوى ستغير هذه الرسالة مجرى حياته.

عندما وصل إلى نوتو اكتشف أن الفستق التي تشتهر به برونتي واللوز الذي تشتهر به صقلية كان مهددين بالاندثار، فابتكر فكرة رائدة وجريئة ستغير بدورها حياة المزارعين في الجزيرة. فقد قرر شراء كامل المحصول السنوي من هاتين الثمرتين، وراح يعد الأطباق التي ستذيع شهرتها ليس في نوتو وحدها ولا في صقلية وحسب بل وفي عموم إيطاليا، ومن ثم في أوروبا. ولقد شاهدنا بأم أعيننا وفود السياح المقبلين على الحلويات التي يصنعها كورادو.

وصلنا إلى مقهى كورادو واستقبلنا الرجل بحفاوة بالغة، وقدم إلى قائمة بأنواع الحلويات التي يصنعها، وهي كثيرة، وبينها أنواع يدخل في مكونها الشوكولا والبرتقال والليمون وأنواع الفواكه كالتوت والكمثرى والمشمش والقشدة والفانيلا وغيرها

فيقدم الكانولي وهي الحلوى الصقلية الأشهر ولها شكل الأنبوب من عجينة مقلية ومحشوة بالقشدة والفستق وأحيانا الكرز المحلى بالسكر. والكساتينا وهي حلوى تحضر من جبن الريكوتا الأبيض بالسكر والفواكه وتغطى بعجينة اللوز مع ماء الزهر ونكهات الفواكه والقرفة، والبينولي وهي تتكون من كرات صغيرة من العجين مقلية ومحلاة بالسكر أو العسل.

في طريق عودتنا رحنا نتذاكر عن أدباء إيطاليا العظام، ومنهم حملة نوبل، ولصقلية نصيب فيهم، فقد نال سلفاتوري كوازيمودو ابن مودكا القريبة من نوتو جائزة نوبل سنة 1959، ويعتبر من الشعراء المجددين في الأدب الإيطالي، إلى جانب لويجي برانديللو الشاعر والقاص والمسرحي الذي سبقه إلى نوبل سنة 1937.

ينشد كوازيمودو بلغة شجية:

**"نبهيني أيتها الصديقةُ الوادعة**

**لعلي أنهض من هاوية الحجارة**

**وأبلغ السماء**

**أبدي الخوف لأولئك الذين يجهلون**

**أي ريح هائجة تلاحقني."**

والآن أقرأ لبرانديللو هذه التأملات القلقة عن الذات وصورتها لدى الآخرين التي ربما تختلف كثيرا عن صورتها عن نفسها: " أكانت صورتي هي حقَّاً تلك الصُّورة التي لمحتُها خطفاً؟ أأبدو حقَّاً هكذا، مِن خارجٍ، حين - وأنا حيٌّ - لا أفكِّر في نفسي؟ أنا إذاً في نظر الآخرين ذلك الغريبُ المباغَتُ في المرآة: أنا هو، ولستُ الأنا التي أعرف.

**موسيقار السماء**

**بِلّليني أو بجعة كاتانيا**

كيف تتحدّث عن "إيطاليا" ولا تعرّج على قلبها في الموسيقى: "فينتشينزو بِلّليني"؟ ولد بللّيني الصقّلي أو بجعة كاتانيا في الثالث من نوفمبر عام 1801، ورحل عن عالمنا في 23 سبتمبر 1835، وهو في شرخ الشباب مخلّفا وراءه أربعة أعمال خالدة في دنيا الأوبرا، من جملة أعماله التي لا تزيد على أصابع اليدين.

إل بيراتا (القرصان) التي بوأته سماء المجد بين يوم وليلة، ولا بيوريتاني (البيوريتان) التي تنفث آريّاتها في أذنيك السحر، ونورما التي يختبر بها أبوللّو أداء ربّات الصوت، و"لا سونّامبولا" المُسَرْنَم، السائر في النوم التي اصطفاها لتنقش آياتها الموسيقيّة على ضريحه في المقبرة الشرقيّة في باريس. وقال عنه فاغنر كما أشرنا من قبل: "كلّه قلب"، وكتب هو إلى صديق: "أشعر بأنني كبيتهوفن، صرت آلة لقوة إلهيّة خفيّة".

أما تاجر الحرير "فرديناندو تورينا Ferdinando Turina" زوج "جويديتّا Giuditta Cantù"، فيرى أنّه الشيطان ذاته. فبينما كان التاجر يعكف على غزل الحرير في مصنعه في نابولي، كانت زوجته تنعم بحياة حرّة بعيدا عن زوجها المشغول، وتسافر مع أخيها إلى أصقاع إيطاليا، وصادف اجتماعها مع الموسيقار في جنوة خلال ربيع عام 1828، وهي لم تتجاوز الخامسة والعشرين بعد، فعاشت في أحضان الشاعر سنوات يتبادلان الحب سرّا في فنادق المدن الإيطاليّة، إلى أن نمي خبرهما إلى زوجها التاجر بعد مرور خمس سنين، فلاذ الموسيقار إثر ذلك بالفرار من بلاده.

كتب إلى صديقه الحميم "فرنشيسكو فلوريمو" يقول: كانت في نشوة من الحب تقول: بللّيني، أستظلّ دائما تحبنّي؟ وهل سيزداد حبّك لي؟ وأجيبها: "أقسم بذلك، يا حبيبتي".

قام هذا الصّديق بحرق مجموعة الرسائل المتبادلة بين الموسيقار والسيّدة "جويديتّا" في شيخوخته، قبل أن يسلّم مكتبة "الكونسرفتوار" في "نابولي" أوراقه.

**عزيزتي "جويديتّا":**

من يلومك على الفزع، من تاجر الحرير الفظّ، إلى أحضان موسيقار السماء؟

ولكن ليت شعري كيف آل ذاك الحبّ بعد انقضاء السنين الخمس؟ أكما آلت اليه تلك الزهرة التي حدّثنا عنها في سانامبولا؟ أم تراه غنّى لك ذاك اللحن الإلهي وهو يعرض عليك خاتم أمه ويهمس: إنّه خاتم أمّي، وهي تبتسم الآن لحبّنا؟ أم أنّك حبست في قفص الحرير النابولي، فلم ينتهِ إليك ما آل إليه حبيبك بللّيني من مجد وكيف راح يرتقي سلّم الخلود؟

حكاية **لا سونّامبولا[[11]](#footnote-11)**

إليك قصّة حبّ حدثت في قرية من قرى سويسرا جمعت بين فتى اسمه إلفينو عقد على فتاة يتيمة تدعى أمينا، وقدّم إليها خاتم أمه عرفانا وحبّا. ولكنّ الفتاة، بينما كانت تسير وهي نائمة دخلت نزلا، فقادها النوم إلى أريكة يجلس عليها فتى ظنّه خطيبها -عندما نمي إليه الخبر- بأنه عشيقها.

وسائر الحكاية، هي محاولة الفتاة دفع ما طالها من الأذى والنميمة، فثبت لخطيبها بأنه الحبيب لا ينازعه في ذلك منازع، وتنتهى هذه الحكاية الساذجة بأن تكلّل المحاولة بالنجاح، وتتزوّج أمينا من إلفينو.

الكلمات التي كتبها الشاعر المسرحي المشهور فليتشي روماني لا تقلّ عن القصّة سذاجة، ولو أنها محكمة السبك، ولكن ما رفع هذا العمل في المنزلة إلى مواقع النجوم فهو التبر الخالص الذى سكبه بللّيني لحنا في قوالب الكلمات.

بضعة أصوات تلك التي كتب لها بللّيني أعماله لسونامبولا ونورما، وكانت أعظمها شأنا جوديتّا باسا، التي قال عنها ستاندال عندما سمعها لأول مرّة: "إن صوتها يكهرب الروح".

وقال بللّيني إنّها "موسوعة للفنون". كما أن العروض الأولى للعمل باغتت المشاهدين بعواطف جيّاشة وأخذتهم في وابل من الدموع. واعتبرت – أمينا - أكثر الأدوار الأوبراليّة إتقانا في الموسيقى الإيطاليّة. وقيل إنّها مخزن من الألعاب الناريّة في عالم الأصوات (الكلوراتورا[[12]](#footnote-12)). بينما صار إلفينو صاحب أجمل الألحان الفرديّة الطويلة في دنيا الغناء.

بعد موت بللّيني عزف الجمهور عن الألحان العاطفيّة وراحوا يحجّون لموسيقى فاجنر الذي هيمن على جماهير ذاك العصر، ولم تبعث موسيقى بللّيني حتّى جاءت ماريّا كالاس التي راحت المطابع تسكّ أسطواناتها سكّا.

لا يستطيع كبار نجوم العالم اليوم أداء أغنية "إليك هذا الخاتم" كما كتبها بللّيني، ولكن الراسخين في العلم يحرصون على سماع ساثرلاند مع بافوروتي المسجّل عام 1980 وهي تحلّق بصوتها إلى الهاي إي[[13]](#footnote-13)، وكذلك أسطوانة ماريا كالاس مع مونتي المسجّلة عام 1957، ولا يفوتهم تسجيلان أقل شأنا ولكنّهما مؤثران، أولهما لتاجليافيني سجّله عام 1953، وآخر لجي جيمينيز في دور إلفينو سجّله عام 1997.

إذاً تعكس أوبرا **لا سونّامبولا** جانبا من سيرة بيليني نفسه الذي أحب جوديتا زوجة تاجر حرير من نابولي، وكان ينبغي أن تكون أمينا، وتبادل عشيقها إلفينو الهوى في نزل المدن الإيطالية، ولكنّ تاجر الحرير فريديناندو تورينا روّعها هي وعشيقها، لانتهاكها عهد القران المقدس، ففرّت لائذة إلى قرية قصيّة في سويسرا، بعيدا عن هوى الموسيقار وسلطان التاجر.

**البراق المجنح مارسياس**

زرت معبد أبولو في ساراكوزا المدينة التي أنجبت أرخميدس وابن حمديس الصقلي وتجولت في أرجائه. هناك تذكرت ما أنزله هذا الإله الجميل من عقاب لا يرحم بالسنتور الخليع ماريسياس. وكنت قد شاهدت اللوحة التي تصور هذه الأسطورة والتي أبدعتها ريشة الفنان الفرنسي تشارلز أندريه فان لو في القرن الثامن عشر.

تقول الأسطورة أن مارسياس هذا عثر على ناي مسحور ملقى في الغابة يعود للإلاهة أثينا، تناوله وراح يعزف عليه ألحانًا شجية سحرت الألباب، ولشدة اغتراره بفنه تخدى أبولو إله الفنون نفسه ودعاه إلى مباراته في العزف على مزمار القصب، بحيث يتعين على المهزوم أن يقبل بما يحكم به المنتصر.

عزف ماريسياس وعزف أبولو وعندما خسر مارسياس المبارة طلبت الآلهة من أبولو إنزال العقوبة الأشد. استغاث مارسياس وتوسل إله الفنون قائلا: لماذا تجردني من نفسي؟ هل كانت مبارة في العزف على ناي تستحق كل هذا الثمن الباهظ؟ لكن توسلاته ذهبت أدراج الرياح، وتم سلخ جلده حيًا، وترك جسده ينزف بغزارة. بكاه أوليمبوس، وندبته آلهة الينابيع وكذلك الرعاة الذين كانوا يرعون على تلك الجبال ويأنسون عزفه. ومن دموعهم التي ضرجت الأرض انبثق نهر بين الصخور ووصل سيله إلى البحر وحمل اسم مارسياس.

**سينما براديسو**

من منا لم يخفق قلبه وهو يشاهد للمرة الأولى في صباه أورسيلا أندرس وهي تخرج من البحر مقبلة كحورية في فيلم "دكتور نو"؟، أو مشهد العناق بين برت لانكستر ودوبورا كير على شاطيء بحر هائج في فيلم "من هنا إلى الأبد"، أو انغريد بيرغمان في الفيلم الرومانسي "كازبلانكا" وهي تسال عازف البيانو أن يعيد عزف القطعة الموسيقية مرة أخرى Play It Again Sam والحوارات التي سارت مضرب المثل وحديث الشاعر في "ذهب مع الريح" بين كلارك غيبل وفيفيان لي، أو أطول قبلة في تاريخ السينما احتال بها هيتشكوك على مقص الرقيب في فيلم "سيئة السمعة" بين انغريد بيرغمان وغاري غرانت.

سحرت في طفولتي بريجيت باردو في "عندما خلق الله المرأة"، و بسيلفيا كريستل في "إيمانويل"، وأنيتا اكبرك وأنوك إيميه في "الحياة الحلوة" لفلليني، ومارلون براندو وماريا شنايدر في "التانغو الأخير في باريس". يومها كانت سينما الدورادو في أبوظبي تدهشنا بما تتحفنا به من أفلام لم تكن تخضع للمراقبة، إلى أن عرض فيلم "في وادي الدمى" لمخرجه ماك روبسون، وأثارعرضه ، ضجة واحتجاجا لما احتوى عليه من مشاهد بدت جريئة وفاضحة، ما دفع بوزارة الإعلام إلى تأسيس قسم الرقابة على السينما، وعين أحد معارفنا رئيسا لهذا القسم، ولما أفسد مقص الرقيب علينا متعة المشاهدة، صرنا نتسلل ملبين دعوة الرقيب نفسه لمشاهدة عرض ما اقتطع من أفلام.

هذه الذكريات عن سنوات المشاهدة المبكرة للأفلام كاد أن يطويها النسيان إلى أن أعاد بعثها جوزيب تورناتوري بفيلمه الرائع "سينما باراديسو" لأكتشف يومها أنني هذا الصبي نفسه سلفاتوري المولع بالسينما. والفيلم يحكي قصة مخرج سينمائي كبير يدعى سلفاتوري يعود إلى قريته الصغيرة في صقلية إثر رحيل صديق قديم يدعى الفريدو. يروي سلفاتوري ذكريات طفولته كمساعد في عرض الأفلام لألفريدو صاحب سينما براديسو الذي أورثه حب السينما حيث أمضى الثنائي أوقاتاً طويلة في عرض الأفلام والحديث عنها، هناك في عتمة غرفة العرض تعلم سلفاتوري من الفريدو مهارات العرض والشغف بالسينما، وهو ما زرع في الصبي بذرة الحلم بمغادرة البلدة الصغيرة ليصبح مخرجا كبيرا.

رغم الإخفاق الجماهيري الذي لقيه الفيلم لدى عرض الأول في إيطاليا سنة 1988، إلا أنه اختطف السعفة الذهبية في مهرجان كان وجائزة الأوسكار عن أفضل فيلم أجنبي، ولم تبق صالة عرض سينما في العالم إلا واستقبلت الفيلم، ليتحول إلى إحدى أيقونات السينما في العالم.

ثم توالت أعمال هذا المخرج الصقلي وفي العام 1995 أخرج تحفته صانع النجوم، وفي سنة 200 فيلمه المدهش "مالينا"، وفي 2016 فيلم "كوريسبوندس"، أو "مراسلة"، وليتحول بعد ذلك المخرج هو نفسه إلى ايقونة في صناعة السينما.

هذه الصور والذكريات عن السينما وماضيها وصولا على حاضرها الصقلي تواردت إلي في تشيفالو على الساحل الشمالي من صقلية بالقرب من باليرمو. حيث جرى تصوير بعض من مشاهد فيلم "سينما براديسو" .

**المستطرف الإيطالي**

**نسكن معاً ياسيدي**

قُبض على أحدهم في مديرية الشرطة بنابولي وكان عليه تأكيد هويته قبل أن يشهد في قضية ما. سأله المحقق: أين تسكن؟ فقال الرجل وهو يُلملم شظايا الوجوه التي تحيطه: أسكن مع جنّارو يا سيدي   
ــ أها، تسكن مع جنّارو إذن، وأين يسكن جنّارو؟   
ــــ إنه يسكن معي في نفس المكان يا سيدي   
ـــ من الجيد أن أعرف هذا، ولكن أين تسكنان أنت وجنّارو؟   
ــ فنظر الرجل بدهشة نحو المحقق، وقال بلهجة مستغربة: نسكن معاً ياسيدي!

**أطبق فمك!**

حدث ذلك في فلورنسا عندما أراد أحد الأثرياء تزويج ابنه المعتوه فقبض على يده بقوة وقال له: لا تتفوّه بكلمة، أطبق فمك حتى ينصرف آخر المدعوين، هل تفهم ما أقوله؟ إياك أن تتحدث مع أحدهم في أيّ أمر، وإذا أراد شخص ما أن يحدّثك بشيء، انظر في عينيه، ثم ابتسم وأشح بوجهك صوب الجهة الأخرى، فتبدو وكأنك لم تسمع ما يقول.   
ــ نعم يا أبي سأفعل...

وأراد الأب أن يطمئن إلى أن ابنه المعتوه أدرك ما يجب فعله فقال له ليتأكد بنفسه:   
ــــ وماذا تفعل؟   
ــ أبلع لساني ولا أتكلم بشيء.

فاطمأن الرجل وقام من فوره بدعوة جمع من علية القوم، وكان يظهر على الجميع أنهم يعرفون بأمر المعتوه، فتجنّبوا إحراج الأب، وران صمت ثقيل على المكان وكأن على رؤوسهم الطير، وكان من بينهم سيدة يبدو أنها لم تكن تعرف شيئا، فأخذت تنقّل عينيها في الوجوه الساكنة وقالت: ما الأمر، هل حدث شيء لا أعرف به، ما سبب كلّ هذا الصمت؟ آه، لا بد من وجود معتوه بينكم. أليس كذلك؟! فانبرى الابن سريعا وهو يكاد يفترس أباه بعينيه: الآن يا أبي وقد عرفوا من المعتوه من غير أن أنبس بكلمة، هل أستطيع الكلام؟

**جحيم مايكل آنجلو**

كان مايكل أنجلو لا يزال منهمكا في العمل على لوحته (يوم الدينونة) في قبّة مصلّى السستينا عندما بلغه احتجاج أحد المتعلّقين بأهداب حاشية البابا بول الثالث.

كان يرى أن ميكيل أنجلو أفرط في تعرية الجميع ولم ينجُ من ذلك حتى الربّ نفسه، وكأنه سلّط عليهم صيفاً سماوياً لاهباً فلا مناص من النظر إلى الثياب على أنها فانية كالأجساد التي تحتها.

وأخبر بياجو البابا بهواجسه، بيد أن البابا أنكر عليه احتجاجه، ووجد أن الفنان الذي كان أثيرا لديه كان يرى إلى الأمر على أنه تمثيل لحالات لاهوتية تخييلية، ومن حقه أن يجتهد في تصويرها. فأضمر مايكل أنجلو في نفسه وقرر أن يرسم السيد (بياجو) عاريا في الجحيم، فيكون بذلك قد منحه تأشيرة أبدية للإقامة في الجحيم حيث لا يرى المطهر ولا الفردوس.

وعندما وصل جحيم مايكل أنجلو إلى مسامع بياجو هرع ليتأكد من الأمر، وهاله أن يرى نفسه عاريا يتقلّب في جحيم الرسّام غليظ القلب. فذهب من فوره ليحتجّ ثانية لدى البابا، وتوسّل إليه أن يأمر مايكل أنجلو بإخراجه من الجحيم، فالأمر لم يعد جحيماً فحسب، بل جعل جسده مشرعاً على عيون المتعبدين وستلوكه ألسنتهم، إنها إهانة ليس كمثلها شيء.

فلم يتمالك البابا نفسه وقال وهو يقهقه ملء فمه: وماذا تريدني أن أقول له، هل أتوسّل إليه أن يضع ورقة توت على عورتك؟ وكيف ستصمد ورقة توت أمام جحيم مثل جحيم السيد مايكل أنجلو وقوده الناس والحجارة؟ فقال السيد بياجو وهو يرتعد: حسبي على جلالتكم أن تأمره بإخراجي من الجحيم. فأجاب البابا وهو يتطلّع إلى خاتمه ويكابد حتى لا تغلبه نوبة جديدة من الضحك: إن سلطتي لا تتعدّى الجنّة والدنيا، أما الجحيم فلا سلطة لي عليه يا سيد بياجو. وما زال الرجل يتقلّب مخلّدا في جحيم مايكل أنجلو منذ خمسة قرون.

1. صدرت عن "دار السويدي" ، أبوظبي، بيروت 2017. [↑](#footnote-ref-1)
2. الهون والقوط ولاحقاً اللومبارد هم القبائل الجرمانية التي قامت بغزوات متكررة للشمال الإيطالي ابان القرن الخامس مع ضعف الإمبراطورية الرومانية. [↑](#footnote-ref-2)
3. المقصود به جبل داد الذي ورد في معلقة طرفة بن العبد: كأن حدوج المالكية غدوة/خلايا سفين بالنواصف من دد [↑](#footnote-ref-3)
4. شطر من بيت للشاعر الماجدي بن ظاهر. [↑](#footnote-ref-4)
5. كومو: مدينة شمال إيطاليا، عاصمة مقاطعة (كومو) Como في إقليم لومبارديا، مقامة على الضفاف الجنوبية الغربية لبحيرة كومو التي تشتهر بها، تحد سويسرا من الشمال الغربي وتبعد 45 كم شمال مدينة ميلانو. [↑](#footnote-ref-5)
6. جون تريلاوني هو أحد أبطال جزيرة الكنز 1883، بقلم روبرت لويس ستيفنسون. تريلاوني هو مالك أرض ثري يمول الرحلة الاستكشافية بأكملها. على الرغم من إظهار مهاراته القيادية، فهو من النوع الساذج إلى حد ما والذي يكشف على الفور للجميع الهدف الحقيقي من الرحلة؛ تمكن من الحفاظ على رباطة جأشه طوال المغامرة [↑](#footnote-ref-6)
7. نوع من المراكب الخشبية. [↑](#footnote-ref-7)
8. أ نظر كتاب مارك توين the Innocents Abroade [↑](#footnote-ref-8)
9. من مفكرة "تحليق الطائر" لليوناردو دافنشي [↑](#footnote-ref-9)
10. أنانيّ (Anangi): بلدة قرب روما . [↑](#footnote-ref-10)
11. كلمة إيطالية معناها المسرنم، أو السائر في نومه. وهو عنوان أوبرا لبيليني, [↑](#footnote-ref-11)
12. ضرب من الغناء في طبقة اليسوبرانو يتميز بالزخارف الصوتية المركبة والمعقدة. [↑](#footnote-ref-12)
13. الهاي إي : هي الري العالية في السلم الموسيقى. [↑](#footnote-ref-13)